
د. كفاح أبو هنود
في صحبة الأسماء الحسنى
عصير الكتب

كلمة الغلاف

تنبثقُ كُل البدايات من الأسماء الحُسنى التي لا تنتهي..

وفضلُ الأسماء الحُسنى أبعدَ ممّا ترى، وأوسع ممّا تَظُن!

هي مفاتيح الخَزائن!

يا بني.. جالِس ربّك بأسمائه؛ تَرى ألطافًا عجيبة..

استَغرِق في الدُّعاء بها؛ يتبدّى لك ما خَفِي عنك، وتَرقى بك من الحُسن إلى الأحسَن!

يا بني.. تُوقِظ الأسماءِ الحُسنى الأرواحَ لأُمنياتها..

والظّمأ لكلِّ اسمٍ لا ينتهي؛ حتّى تنتهي الحَوائج إليه!

فتوسّع في الأسماءِ: تتّسع لك المواهب.. وامْنح الأسماء قدرها؛ تنحلّ لك المعضلات!

فالزَم الأسماءِ ليلَك ونَهارَك؛ يولَد لك معنى: (ولَسوف يُعطيك رَبُّك فتَرضى)!

إهداء

إلى من أيقنوا أن كل الحصون دون الله تنهدم

وأن كل الدروب دون فتحه مغلقة

وأن كل نور يفيض من نوره وما عدا ذلك حجاب العتمة

وأنه بدء البدايات وإليه المنتهى

وأن الفاني إذا اتصل بالباقي باقٍ

فاختاروا صحبة من إذا اتصلت به استغنيت عن السبب

ونالك من الوهاب ما هو فوق الأسباب

إلى هؤلاء أهدي هذا الكتاب..

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين محمد – صلى الله عليه وسلم – ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أما بعد:

هذا الكتاب مخطوطة تربوية جمعتها الكاتبة من خزائن علم السلف الصالح ونثرتها على لسان الشيخ في قالب أدبي؛ إذ صاغت ما بلغته يداها من كتب ومخطوطات في علم التزكية على هيئة حوار عميق بين الشيخ وتلاميذه المثقلين بأسئلة الحياة وتحديات الواقع ومعاناة البحث عن أجوبة لأسئلة تختبئ في حنايا القلب.

كان الشيخ يستمع إلى صوت الوجع، ويرى لهيب الألم المتقد في حرارة الكلمات، ويقبل على تلاميذه مصغيًا لهم وسامعًا ومربيًا وموجِّهًا، تقبل الشيخ اعتراضاتهم، واستمع لنفث الأسى من همومهم، وأصغى لهم وهم يقولون بين يديه: قد زلت بنا الأقدام فأعنَّا.

لقد تشبع الشيخ بعلم الصالحين، وتجربة عميقة وعيش خاص مع الله، فكانت مجالسه ملأى بحديث من أقوال السلف ودرر علماء التزكية وحكم الصالحين، وثرية بما وهب الله أولياءه من الفهم عنه.

قدم الشيخ في مجالسه رؤية تربوية عميقة ارتكزت على بناء صحبة العمر لله، وتذوق العلاقة مع الله عبر الأسماء الحسنى، وصياغة سلوك صالح، وطهارة عالية،

وعيش متسامٍ، ورقي روحي من خلال آثار الأسماء الحسنى في تشكيل الروح والفكر والسلوك.

(في صحبة الأسماء الحسنى) هي خلاصة كلمات ابن الجوزي والتوحيدي وابن عطاء السكندري ومئات الصالحين والشعراء الذين نطقوا بروائع المعاني القلبية، هنا تفيض روح الإيمان ويتجلى الحب ويزهر الشوق معاني تبلغ بالعبد مدارج القرب ويكاد بها أن يصل إلى صحبة الله -تبارك وتعالى-، وعلى سطور هذا الكتاب يحملك الشيخ إلى عوالم الصالحين، فتلتقي بكل ما فاضوا به من صدق الكلمات، وترتاح على ضفاف العيش في صحبة الأسماء الحسنى، ويصبح الشيخ رمزًا لكل العلماء الربانيين الصادقين..

فإلى رحلة استغرقت مني ثلاث سنوات من القراءة والعمل كي أصيغ لك هذه الصفحات، أشكر فيها المولى الكريم الذي أذن لقلمي أن يسطر هذا الحب عنه، وأشكر جمهور القراء الذين دعموني بالمتابعة والدعاء ونشر الكلمات.

(في صحبة الأسماء الحسنى) محاولة لعيش معنى (يحبهم ويحبونه)، فإن أحسنت في الانتقاء من الكتب ودووابن الشعر واختيار الروائع وجميل الصياغة فذلك الفضل من الله، وإن قصرت فذاك بعض ذنبي.

وأخيرًا: إن عفو الكريم وستره وقبوله غاية ما أرجو.

في صحبة الأسماء الحسنى

الأسماء بوابةُ الخَزائن، وخزائن الله أوسع مِن عظيم الأُمنيات، وكل من عثَر على طريق الخزائن؛ وصل!

قَرِع الشيخُ بهذه الكلمات بابَ القلوب، ثمَّ قال:

لو اتَّصلتِ الروح بالله، وأتمَّ العُمر بالأسماء الحُسنى، لَضَربتْ حول صاحبها سِتارًا لا يُهتَك!

فتَبَتَّلْ بالأسماء حتى تَذوق!

يا أبنائي، كُلما جاورتَم الأسماء، تفتَّحت لكم كنوزٌ مَخفِية، فَشمِّروا، فإنَّ الطرق للأُمنيات مُتاحة!

ووالله بالأسماء يُطوى لك ما لا يَطويه حَوْلُك، وتَقطِفُ من الغاياتِ ما تَشاءُ؛ لو بَلغْتَ حال: (وكُنتُ يدَه التي يبطشُ بها)!

يطول الطريقُ دون الأسماءِ الحُسنى، ولا نَصل!

انوِ صُحبةً للأسماء، تُبَلِّغْكَ إليه، وعش معه أنسَ التَوسُّل..

والله لو اعتكفتَ إليه، لرأيتَ كيف يُغرفُ لك الفَضل غرفًا! وإنَّ الله إذا اختصَّك بالصُحبة، فقد بلغتَ من القُرب مَبلغًا بعد أنْ أضنى الشيطانُ ما كان منك خاليًا! فتفَقَّد الليلةَ غيابكَ عن الأسماءِ كمْ أنقصَك!

(وَمن لَم يتفقَّد نَقْصَه، دامَ نَقصُه)!

تنهد تلميذ من أقصى المجلس، فقال الشيخ:

تنبثقُ كُل البدايات من الأسماء الحُسنى التي لا تنتهي، وفضلُ الأسماء الحُسنى أبعدَ ممَّا ترى، وأوسع ممَّا تَظُن!

هي مفاتيح الخَزائن، وثق أنّك من دون خَزائنه تَرجو المحال!

يا بني، لا تبحث بعيدًا، ارْجِع إليها، فالسِّر هُناك!

إنَّ العبدَ إذا أَمَّ موارد الأسماء ارتَوى، فالزَم الأسماء ليلَك ونَهارَك؛ يولَد لك معنى: ﴿ولَسوف يُعطيك رَبُّك فترَضى﴾.

يا بني، صاحِب الأسماء، ترَ من الخَير الضِّعف.

قال التلميذ: الضِّعف؟

قال الشَّيخ:

(ولا الضِّعف؛ حتى يتْبع الضِّعفَ ضِعفُه، ولا ضِعف ضِعفِ الضِّعفِ، بَل مثله ألف)، حينها تفهم معنى:

اللهُ أكبر!

يا ولدي، جالِس ربَّك بأسمائه تَرَ ألطافًا عجيبة، استَغرِق في الدُعاءِ بها؛ يتبدَّى لك ما خَفِي عنك، وتَرقى بك من الحُسن إلى الأحسَن!

يا بني، تُوقِظ الأسماء الحُسنى الأرواحَ لأُمنياتها، والظَّمأ لكلِّ اسمٍ لا ينتهي، حتَى تنتهي الحَوائج إليه!

فتوسَّع في الأسماء، تتَّسع لك المواهب، وامْنح الأسماء قدَرها، تنحل لك المعضلات!

يا بني، اهتِف: اجعَلني بكَ يا اللهُ!

وتذكَّر أنَّ الله على كُل دعاءٍ شَهيد!

قال تلميذ: عَلِّمنا كيف ندعو.

قال الشَّيخ: الاسمُ لا يُفَسِّره إلا تكرارُ السُّؤال به، وكلَّما رَدَّدته ازدَدتَ منه سَعة، وتَضاعفًا في غَيثه، ثُمَّ لا تراك إلا وقَد وُهِبْتَ سِلسلة مفاتيح الإجابة تَرِنُّ بين يديك، حتى يُخيَّل لك أنَّ الداعي في تَبتُّله نَجِيُّ الله، قد اقتَرب حتى انتشَر تُراب الجنَّة بين يديه!

يا بُنيَّ، لكُلِّ اسمٍ رزق، ولكُل رزق مَذاق.

ثمَّ قال الشَّيخ: غدًا نَفْتتِحُ مجالس الأسماء الحُسنى، فلا يَغيبنَّ أَحد.

الله جل جلاله

مَن شغَل عمره بِعمارة الأوقاتِ واجتناب الغَفلات، أخرَجه الله مِن مَضيق العُسر إلى فَضاء اليُسر،

وتَدارَكته المعونة بالمَنح المكنونة، تلك هي التجارة مع الله.

(بهذه الكلمات افتتَح الشيخ المجلس).

فقُل: يا ربِّ اجعل كُلي بكلِّي معك!

هو الله، ما أقربنا إليه به! إذا وعَد وفَّى، وإذا أعطَى زادَ على مُنتهى الرَّجا، ولا يُبالي كمْ أعطى، ولا لِمن أعطى، وإنْ رُفعت حاجةٌ إلى غيره لا يرضى، وإنَّما تَفقِد الأيدي صوتَها إذا امتَدت فارغةً مِن يقينها، فارغة من شروط الإجابة، الله -جل جلاله- هو الاسم الكريم، مَن أخَذه بِشَرطه ناله.

يا أبنائي، إنَّ للهِ عِبَادًا يُنْفِقُونَ مِن الأمَل عَلَى قدر حُسْنِ الظَّنِّ بِهِ، فَأُولَئِكَ أُولَئِكَ، أولئك مَن مُنِحوا!

فاخلَع ظُنونك؛ إنَّك بوادي الغِنى، وهُز مقاليدَ العَرش بِ: يَا الله!

ورَدِّد: وَسّع اللهم لنا المدى، ولا تَدع لنا أمنيةً سجينة الشِّفاه.

يَا أبنائي، إنَّ صوت الدُّعاء بالأسماء يَهزم الألم، يَهدم جِدار المنع، وَيبسط لك ما ضاقت عنه الحِيَل!

وكلَّما غِبتَ في الدُّعاء، نبتتْ في الإجابة سُنبلة!

والله كُل الهُموم لها رِتاج، فإنْ كان الله كان لها انفراج، فرَدِّد: يَا الله على الجِراح التي تنتحب!

وإذا رأيتَ الاتِّجاهات كلَّها غَرق، فلا يُرعبك الطُّوفان، من كان مع الله رأيتَ الأمواج عنه تُقاتِل، ومَهر الحُب أن تحيا لله في كلِّ المراحل، أن يراكَ الله معنى التَّنزيل، وعمرك لله فرضٌ ونوافل.

أن يراكَ نخلة لله، ما هزَّها فِتن المعاول..

أن يراكَ غابةَ الزيتونِ، ومِن زَيتك مِيلاد المشاعل!

أنْ تُنفق العُمر لله مِئذنةً، ما مسَّ صوتها عُقمٌ، والصَدى لله في كل الأماكن..

أن ترحل إلى الله أمَّة، ويراكَ صِبغة الله ربَّاني الشَّمائل!

ومَن كَان لله كما يُريد، كَانَ الله له فوقَ ما يريد!

اشْدُدْ الخُطى بالله؛ تمشي الأمَّة على إيقاعِ خُطاك، وقُل لَه: كُل الطرق إليكَ، ومُنتهاي بين يديك، أحبُّك يَا الله فارفعني إليك.

إن كنتَ لله فاضرب بعصَاك المستحيل، واسأل ما شِئت مِن قَدر.

هو الله، له الغَيم، وبيده يسقي جفاف الأحلام مَا شاء من مَطر!

هو الله، يطوي الطَريق لأمنيةٍ بلا سبب ولا سَفَر!

هو الله، إن كنت له كما يشاء أتاك ما تشاء.

تهدَّج صَوت تلميذ وهو يقول: يا ربُّ، هذا القلب بالهَم مَركوم.

قال الشَّيخ: يا بُنيَّ، خَفَّ محملنا، إن كان بالله هذا الحمل مَشدودًا، الناس في وهْن الخُيوط، وأنت بحبل الوصْل بالله مَسنود! يا بُنيَّ، وَضَعُ العارفون مَفَاتِيحَ الدُّنْيَا عَلَى الدُّنْيَا، فَلَمْ تُفتَحْ، فَوَضَعُوا عَلَيْهَا مَفَاتِيحَ الْآخِرَةِ فَانْفَتَحَتْ! كن له كما يريد وأسرج الدعاء واشتعِل توسُّلًا بالأسماء، فإنَّ حاجَاتك آنَ آنَ تَمامها!

يا أبنائي، كُل هَمٍّ فاضَ، مع الله غَاض، إذا أقبلَت إليه بالأسماء الحسنى تَساقطَ الوجع، ورأيتَ ما ضاقتْ عنه الأسباب يتَّسع، وما كان مُقيَّدًا بالانتظار عُتق، فَأوقدْ زيتَ يقينك.

إنَّ سيماءِ العَطاء في الأسمَاء، هذي المفاتيحُ فاعمد إلى أقفالها، وقُل: يا رب بك لا بِنا بَلِّغنا مقاصدنا!

قال تلميذ: وحقُّك يا الله إنِّي قد نَويت، وأخشَى أنْ أموتَ وما وصلت، تأخَّرتُ؛ وهل بعضُ البُعد يُقضى؟!

تنهَّد الشيخ ثمَّ قال: مَن تمنَّ القُرب من الله، لم يتأنَّ، سابِق وقُل لله: لتَرينَّ ما أصنَع!

لئن صَدَقت فإنه سَيسقيك مِن سائِغ طيب البُشرى ما يَجري به الدَّمع على المجرى.

ثم نظر الشيخُ إلينا ووجههُ يَندى، فالتفَّت الأعينُ حولَه بالحُب، فقال: الله بدء البِدايات، وبالله نَكتمل، فَقُل في تَرتيلةِ البدء: يا الله، إنّي إليك اليوم مُرتحل.

قال تلميذ: كيف الوصُول؟

فردَّ الشيخُ: يا ولدي، الواصلون به وصَلوا، ومَن عَجلَ إليه الخُطى عُجلتْ إليه المنى، وعلى قَدر صَفاء الطَّوية تُوهب العَطيَّة. مَن قُبِل لديه فإنه عَن العطاء لن يغيب، وإنما يتقبل الله من المتقين، وإنَ الله إذا وَهب عبده نعمةً لا يستردُّها، فلا تُسقِط هِمَّتك بيد همِّك، واعلمْ أنَه مَن اشتغلَ بمراد الله شَغلَ الله العبادَ بمُراده، فاجعلْ عين همِّك ربك، يَكفكَ ما أهمَّك.

قال تلميذ يُراوغ حُزنه: فإنَ عَجِزتُ؟!

قال الشَّيخ: قُل اللهُمَ هَبني يدًا أرفعُ بها كفِّي. يَا ولَدي، لو رفَعتَها مَا رجعتْ خالية.

تأرجحتْ دمعةٌ مِن عين تلميذ وهو يقول: اللهُمَ أرهَقَني الأفُول، فلا تَمْحُني مِن لَوح القَبول، نعوذُ بك مِن وحشة الرُّوح، ومن وحشة السبل!

قال الشَّيخ: إذا انقطعتْ حِبالك فَقُل: يا الله، غَوثًا لمن سُلبَ الوَصْلا.

اسأله الوصل وما بعد الوصل إلا العطاء. يا بُنيَّ، مَن وقفَ على بابنا، اصطفَيناه، ومَن اصطفيناهُ صَفَّيناه، ومن صفَّيناه أكرمناه، ومَن لازَم الباب وصل.

لازم الباب وانقُش عمرك في سِجلِّ السَّابقين، واكتُبه هِجرةً لله مُستقرُّها في علِّيين، وكُن ممَّن لمْ تَعقهم عن الله العَوائق، ولمْ تشغلهم عَن الله الخَلائق.

يَا أبنائي، إذا سبَقتْ للعَبد مِن الله العناية، برزتْ له العطايا، فاعقِد يَقينك، ونَادِ اللهَ: يا الله، بدل حالي بأحسن حال. الله هو مُحوِّل الأحوال، فَقُلْ: اللهُمَ

كُن لي بين نفْسي ونفْسي، ولا تَكِلني لِحَولي. فإنْ نثَر لكَ اليأسُ حَبه، فرَدِّد على قلبك: لا قيد في مَقام الوهْب، بَل ﴿يفعلُ اللهُ ما يشاء﴾ لمن شاء اللهُ وحده.

فَقال تلميذ: سُبحان مَن يُحيي بأسمائه الأُمنيات بعد موتها!

قال الشَّيخ: لا عَناء في الدُّعاء؛ إذْ وُهِبتَ زمنَ العطاء. يا بني، على العَبد الإتيان بالأسباب، وعلى الله فَتح الأبواب، فالزم أسباب القرب، وإن مِحنةَ الطَّريق: أنْ تغرب في روحك الأسماء الحُسنى! مِحنة الطريق: أن تَنسى الله، فَتُنسى! نحنُ بغيرِ الله نَشُد الوَهن بالوَهن، وبالله، أنتَ تُزهر وإنْ كَان بك العَطش!

هو الله، فارحلْ إليه، فإنَّ مَداك في السُّؤال ذروةُ الأمَل، الوَهبُ منه مِنة، وإنْ وهبَ أتَمَّ، فتخير ما شئتَ من الأسماء الحُسنى، واستَفتح بها ظنك! فإنْ قالت الأسباب: لا، قال صاحب الأسماء: نعَم!

ألقِ المآرب بين يديْ مَن يملك المنح والمواهب، واعقدْ إيمانك بالأسماء، ثم استَسقِ حَوائجك بها، واهرُب مِن ضيق الأسباب، إلى سَعة الأسماء، ومَن استغربَ أنْ يُخرجه الله مِن غَفلته، فقد استعْجزَ قُدرة ربه!

قال تلميذ: اللهُمَ رُدَّ قلبي عليَّ، واطْوِ لي ذنبي، إنِّي بِأنأَى بِقاع البُعد، فأوصِلني إليك!

اكتظَّ صوت الشيخ بالوجَل، فقال: إنَّ الدمُوع التي تَنهملُ، بها القُرب يكتمل.

قُل له: هذا أنيني بلا كَلِم، وأحلامي مبعثرةٌ، وكلِّي صَدعٌ ليس يَنثلم.

ثمَّ اعتدَل الشيخ ورفعَ صوته وقال: اتْرُك ذنبك، واجمعْ قلبك، واطلُب ربك! مع الله تنال المقصود، ومع المقصود، اللطف في الموجود.

هو الله، ولو رأيتَ البلايا عليكَ طِباق!

هو الله، ولو رأيتَ الهَمَّ عليكَ يُراق!

وقُل له: (يا مرفأ الأوجاع)، ويا عافيةَ الجراح مِن آلامها، جُرحي ليس يندمل!

وكلَّما نزفَ الوجعُ، قُل له: واللهُ أكبر مِن أنْ يُحاط. أسمِعْ اللهَ صوتًا اصفر مِن كثرة الدُّعاء!

قَال تلميذ يُواري وجهه، ويواري حزنه: أُعيذُ عُمري مِن فَقدِك!

فرفعَ الشيخُ صوته بآمين، وقال: أتْبِعْ قلبك الله، إنَّ المعَافى مَن اتَّصلَ. يا بني، مَن ذكَر الله طابَ بالله، ومَن طابَ بالله وصلَ إلى الله. والزم اللهم، فقد قال الحَسن البَصريُّ: ﴿مَن قال اللهُمَ، فقد دعَا بجميعِ الأسماء الحسنى﴾.

الرحمن الرحيم

تكلَّم الشيخ للجمع بروحٍ مَسَّها القُرآن، فقال: نفتَتِح المجلس اليوم ببسم الله الرَّحمن الرَّحيم، مَا رتَّلها النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - إلا مَدَّها مدًّا، وتلك وربي حِبال الوَصل، لو تُدرك المعنى! سبحانه، إنْ بسَط في النَّعماء فهو رحمن، وإن قبضَ العَطاءِ فهو رحيم، ولا يَرى المعنى إلا مُبصِر، فقُل ﴿ربِّ أرِني﴾.

الرحمنُ، بها استَوى على العرش، واتَّسع لخلقه. والرحيمُ، كُل ما فيها للمُؤمن يَكفي.

مدَّ الصوت بالرحيم؛ تَبلُغ الآمال مَداها، حُروفٌ إنْ كان ﴿بسم الله مَجْراها﴾، فإنَّ إلى ربِّكَ مُنتهاها!

فَسلهُ دُعاء فوقَ دُعاء، وَحسْبك أنَّ الله يَسمَعه!

قُل الآن يا رَحيم، ألا تشعُرُ صَوتَ المدِّ عَميقًا كأنه يحتويك؟!

هذه المناجاةُ يا قوم؛ بِساطٌ يجمعنا بِمَن نُحبُّ، هي وطن الأُمنيات، وبها تَنتهي المسافات نَحو العَرش!

فإذا جَلستَ إلى ربِّك مرَدِّدًا (يا رحمن يا رحيم)، فتَحسَّس المعنى بقلبكَ، ثُم املأهُ بكاءً، واهمس بالمناجاة هَمسًا خفيًّا، ومَدِّد الصَوت حتى تَرى الدُّعاء قدْ بلغَ بك مَكانًا عليًّا، فإنْ تراءت لرُوحك الجنَّة، فإنَّ ذلك نعيمُ الاسم، فكيفَ بنعيمِ

النَّظر! وثقْ أنَّ أولَ النَّعيم يَطلُب آخره، فَمن وُهِبَ لذَّة الأسماء، وُهبَ لذَّة النَّظر، فاسأله لذة النظر إليه، فإنْ تمَّ لك به الدعاء فقد تمَّ لك العَطاء.

قال تلميذ: وما قيمة مَدِّ الصوت إن كان صوتي للوصل ليس يكفي؟!

ردَّ الشيخُ: نعوذُ بك يا مولاي أنْ تَصِلَنا ولا نَصِلك، فقل (أعِنَّا عَلينا لنسعى إليك).

يا ولدي، بالأسماء الحسنى تَتساقط المشاقُّ مِن عُمرك، تلك وربِّي مُنتهى الرحمة، وقد أمِنَ الحرمان، من سألَ الرحمن. يا بني، أما انتبهتَ كُلَّما أوشَكنا على الغَرق، ساقَ لك الدعاء مَرفا، أوَ ليسَ الدعاء بالأسماء بعضَ رحمته؟!

فافتَتِح عمرك بما افتَتح الله به القرآن (الرَّحمن الرَّحيم)، وَاشْدُدْ الدُّعاء بهما، واجمَع سَعةَ (الرَّحمن) إلى بَليغ (الرَّحيم)، ثم لَقِّنْ قلبكَ عُمق المعنى، وإياك أنْ تنامَ عَيناك وفي قَلبك حوائجُ هذا مفتاح جوابها!

إنَّ الاسم يُعطيكَ بركاته وأنوارَه وأسرارَه على قَدر استعدادك، فَتهيأ، واخرُج الليلةَ من وَهن الذَنب إلى ريِّ الأجور.

قُل: يا ربُّ أسرَفتُ أدرِي، وَلَولَا ﴿رَحمَتِي وَسِعَتْ﴾ لهلكت.

يا بُنيَّ، الدُعاء بالأسماء الحُسنى وديعةُ الغيب، ولا يليقُ بها إلا﴿فاستَجبنا له﴾.

قُل له في سُجودك: آنسَتُ رحمتك يا رب، وديار الحزن تَتَّسع، لكن ثقتي بـ ﴿وَرَحْمَتِي وَسعَتْ كلَّ شيْءٍ﴾.

آنستُ رحمتك يا رب كُلما مسَّني الخَطأ، آنستُ رحمتك كلَّما أخطأت دَربي في الوُصول.

ردِّد في يقينك: ﴿كَتَبَ رَبُّكمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، حتى لو اغتالك الوحل، واعلمْ أنَّ لك من يقينكَ نَصيبًا.

ثُم قال الشَّيخ: سَأبوحُ لكم بما يخلِّصكم من حِيرتكم، إنَّ أسرار الأسماء لا تُفتحُ بالعَجز، بلْ تُفتح الأسرارُ باليَقين. تأتيكَ الأحداثُ في قَسوتها، فإذا أحاطتْ بها الأسماء لانتْ، وبانَ السِّر في المعنى ﴿وألَنا له الحَديد﴾.

إنَّ الأسماءِ الحُسنى تُعلِّمك كيف يُصبح اليقينُ عادةَ القلب، والأسماءُ مِن سرّها أنَها يترقَّى بعضُها مِن بعض، فلا تَنتهي بك إلا إلى عُلوِّ المنتهى.

وهي كَالمفتاح الذي يوضَع في الأَقفال فيَفتحُها كُلها، ولا يُبقي منها مُغلقًا، حتى كأنَّ الفَضلَ يُنشَر لك ولا يُطوى!

يا بُنيَّ، إنَّ على العرش مَا لا تشرحه الحَواس، على العرش كتابٌ فيه (سَبقتْ رحْمتي غَضبي)!

قال تلميذ: يا رحمن، قادمون إليكَ بالحنين، وهارِبون إليكَ مما دُوِّنَ في صَحائفنا!

ردَّ الشيخ: كُل كفٍّ مُدَّ للرحمن أزهَر، كانَ جَدبا عادَ بعد الله أخضَر.

يا بُنيَّ، حدِّق إلى كُل ما هو مُغلقٌ ومُحكَمُ الإقفال، فإنْ أعجَزَك فاقرأ عليه ﴿وإنَّه بسم الله الرَّحمن الرَّحيم﴾، ثمَّ تأمل كيف أتَت سُليمان العُروش صاغرة! وصدَق السلف إذْ قالوا: (إذا أرادَ اللهُ رحمةَ عبدٍ ألهَمَه الدُعاء).

انتبه! كانَ بين العُقم والخَلاص دعاءٌ هو مَعنى ﴿ذِكْرُ رَحْمت رَبك عبده زكريا﴾!

وما الجَنَّةُ كلُّها يا أبنائي إلا ﴿نُزُلًا من غَفور رَحيم﴾!

ما كُل الفضل إلا ﴿ورَحْمتُ رَبك خَيرٌ ممَّا تَجمعون﴾!

قال تلميذ هزته المعاني: يا سيِّدي، أينَ يرتاح الذي أنهكهُ الظمأ؟ أينَ يرتاح الذي يسعى إليه ألفُ أسى؟

ردَّ الشيخ: أوَ ما رأيتَ الإجابةَ وهي تَهبطُ في السَّحَر؟! قُل: يا رحمنُ، خُذني شتاتًا وَلُمَّني، يا رحمنُ، مَسَّني الذنب بِضُرٍّ وأذًى، يا رحمنُ، زُرِع الدمعُ في عيني، فمن لي أنَا؟ يَا رحمنُ، ثَقُلَ الحِمل على الظَّهر وما في الدربِ إلا المأتم!

ردِّد: (يا رحمنُ يا رحيم)، أنتَ ربُّ الاستقامة، فأعوذُ بك أنْ أزيغ، آنِسنا من لُطفِ رَحمتك.

قال تلميذ يخشى مما في نيته: يا سيدي، كيف يكونُ سُوء الظَّنِ بالرحمن؟

قال الشَّيخ: الوَسوسة، والخوف الدائم مِن وقوع مُصِيبَة، وترقُّب زوال النِّعمة، كُلها مِن سوءِ الظنِّ بالرحمن الرحيم.

قال التلميذ: يا سيِّدي، إذن كيف أبدأ؟

ردَّ الشيخ: افْهَم عَنِّي، إنَّ الحُبَّ الذي يَمتلكك هو الطَّريق، انْصت لصوتِ الداخل فيك، وَقِفْ على بوابةِ الفضل، وواصل الطرْقَ حتى تُفتَح لكَ نافذة، فإنَّ ما تسعى إليه سَيسعى إليك. واذكُر، (والشاةُ إنْ رَحِمْتها رَحمكَ اللهُ)، فاطلُب رحمةَ اللهِ برحمةِ الخَلْق، اكتُب نيّاتك، وأشهِد الله أنك نويت الرحمة رَحمةً؛ لكُلِّ مَن يخطر على بالك، ثُمَّ اجعل رَحمتك الليلة شَفاعَة السؤال، حينها لنْ تُخذَل!

الملك المليك

سبحانه هو المِلك المليك المالِك للأمر، فردد: سبحانك أنت المالِك المليك، أنعمتَ علينا قبلَ أن نكون، فنحنُ لك بما كان مِنك! أنتَ المِلك المليك، احفظنا من أقدارٍ تجري بما ندري وما لا ندري! سبحانك أنت المالِك المليك للأقدار وللأحوال.

قال التلميذ: سبحانك في واسع ملكوتك أنت ملكينا ومالكنا وإليك يرجع الأمر كله!

لكن يا سيدي قل لي مِن أين تؤتَى الأمنيات إذا مُنعتُ بلوغها؟

قال الشَّيخ: يا بني، قَد يفتح الله أبوابًا وراءَها فسَح الآمال، فإيَّاك والتعلُّق بالعَلائق، وتوكَّل على المليك دون المماليك، وقُل: يا رب اجعلني في حِرز ﴿ما ودَّعك ربُّك وما قلَى﴾، وأخرِجني مِن جَفاف الانتظار إلى ﴿ولسوفَ يُعطيك ربُّك فتَرضى﴾، يا من يملك ذلك كله.

وانظُر إلى يَعقوب، إذْ وقفَ على بابِ ﴿لا تَقْنَطوا﴾، فرُفِع بيقينه ﴿على العَرش﴾!

كل الحوائج هو مالكها وقاضيها، فقُل: هَبْنَا اللَّهُمَّ كَرامةَ التَّأييد، وعناية التَّسديد.

وإنما تتباين المراتب في السُّكون تحت مجاري الأقدار، والتَّسليم لمالِك الأقدار، وإنَّما يَعمى القلب عن الحقائق إذا تعسَّرت عليه الطُّرُق، فقُل: يَا مالِكَ السَّبيل اهْدِنَا إليْك، وهبنا ما بين يديك.

قال التلميذ: سَلامٌ على قلبٍ صوتُ البكاء فيه مَبحوح، جِهاته وجع وما فيه مُتسع، وتثقله دمعةٌ تأبى أن تفيض.. سَلامٌ على قلبٍ يناجي، يا رب، هبْني جَوابًا قبله فَاء عطفٍ أو واوها! يا رب، جُز بي غثاء السَّيل، وأبعِد عنِّي الحُزن والأسف، جُز بي النَّهر يا إلهي إن قلبي ما اغترف.. يا رب، رحمتك أوسع من ضيق لغتي.

قال الشَّيخ: هوِّن عليك، إنَّ أيام الرَّخاء تسير في شوقٍ إليك، هوِّن عليك، سينجلي كَربي وكربك ويهرول الخير إليك.

يا بُنيَّ، سَلامٌ على أيام ﴿بسمِ الله مَجْريها ومُرساها﴾ مالك السفن ومجاريها، أليس هو القائل ﴿وهو الذي يسيركم في البر والبحر﴾؟ فقُل يا رب العرش الذي يَحمِله ثمانية، اجعلْ سؤالي قطوفًا دانية، والله، إذا أسفرَ المجهول عما خبأ الله، انكسَر الحزن، وقال العَبدُ لله قلبي ماذا قد مُنِح، فبادِر أيُّها الطالِب لِمَا فُتح مِن المطَالب.

يا بُنيَّ، إذا ضاقت فَذاك اختبارك، فازحف مِن حزنك الفتَّاك، مِن هشيمك إلى المِلك المليك! قل له: يا الله يا مالك يا مليك يا ملك. قلها بقلبك كأن لم

يسبق بها أحد قبلك. أتعرف يا بني ما معنى المليك؟ هو من بيده الملك وهو مالك أمرك.

تأوه التلميذ وقال: يا رب، أسألك من الدنيا طيِّب أقدارها، وأعوذُ بك من كَدر أقذارها، أنت المليك وبيدك خزائن ما ملكت، بيدك قلبي وما نويت، فاجعل الآخرة همي وما أردت.

قال الشَّيخ: هو المالك للأقدار، إنْ أكرم بالنِّعمة، فذاك فضل، وإن حكمَ بالنِّقمة، فذاك عَدل.

هو المالك يوجه ما يشاء كيفما يشاء.

يا بني، الزاد لك، وهو مكتوب، والزائد عليك، وهو مَسلوب، فأجمِل في الطَّلب، ولا تحمل نفسك النَّصَب.

يا بني، ما أذلَّك للمال، إلا خُضوعك للآمَال، ومَن ترك مَلَكْ.

قال التلميذ: يحزنني أنِّي عاجزٌ عنِّي، غباري كثيرٌ، وما أدري أيَّ الغبار أنفض! انقضَّتْ الفتن علَيَّ، فأنَّى أنهَض؟

تململ الشيخ ثم قال: اسمع هذا المعنى؛ دون الله أنت عاجز، و(مَن غابَ عنَّا، حظَّه الهَمُّ والعَنا، مَن فاتنا يكفيه حِرمان فَوتنا). يا بني، ما تولَّى الله مَن تولَّى، ذاكَ ذنب عقابه فيه، لو لم ينلك عذابٌ سوى بُعدك عنه، لكان يكفيك! فقل: يا رب، أنت المِلك المليك المالِك، ملِّكني الثبات ولا تجعلني ممن يلغي العهود وينقُض.

ثم اخرُج مِن منفى الذنب، وإليه فاركض!

ومن انقطعَ لصحَّة البداية، بلَّغه الله ما أراد من غاية! هنا البداية وهنا النهاية.

قال التلميذ: ليتني أبلغ هذه المعاني، لكن قلبي يتيه ويخذلني، وأكاد مِن ضعفي، يجتثُّني شَكِّي!

قال الشَّيخ: فكُن عبدًا كلَّما وقَعَ آبَ، وأرغم الشيطان بالمتاب، يا بني، كلَّما كان العبد للحُدود ألزَم، كان من الأوزار أسلَم، والله ما يبالي الشيطان بك، كنتَ على يمين الشَّر أو يساره، فاطوِ بساط التراخي وتودَّد، وقُل: اللهُمَّ لا تجعل صَحيفتي مِرآةً للشيطانِ، يرى فيها سَعيَه. هو ربك ومالك أمرك، ومن ملك نفسه ملَّكه الله.

وردد على روحك: يا مالك يوم الدين، هبنا توبة قبل يوم الدين تحيل السَّيئات حسنات، فكأنَّها ما كانت، وكأنَّ الذي كان ما كان، هبنا توبة قبل أن تملي الملائكة على الصُّحف أخبار الخطايا صغيرها وكبيرها، وتبعث الأمم جاثيةً على أقدامها، وفي الوجوه تاريخ سيئاتها.

قال التلميذ: يا مالك الخطى، إنَّ الطريقَ إلى الجنة وَعرٌ، إلا إذا مَهَّدتَه.

قال الشَّيخ: يا بني، انوِ، تتيسر السبل، ولا تفنِ عمرك في ليتَ ولعلَّ، وعسَى وحبَّذا، وتظلُّ في حسرة كانَ وما مضى، وينتهي اختبارك، وأنت أنت وحالك هُو هُو! فقل: نعوذُ بك مِن عملٍ زادنَا نقصًا، ملكنا وما ملكنا منه إلا الحسرة، نعوذُ بك من عمرٍ كان موتًا، وما كان حياةً تحيا.

قال تلميذ يُسمَع صوته ولا يراه الشيخ: هو الملك المليك، اللهم اكفنا شر من ملَّكته أمرنا.

قال الشَّيخ: يا بُنيَّ، ربما ملؤوا انكسار قلبك مَنعا، ربما وجَعُك في دجى الحُزن يقطر دمعًا، ربما خذلوك وقالوا لك كَلا، ربما فتحوا الجِراحَ قَبلًا وبَعدا، ربما عبَس الكلُّ فيكَ وتولَّى، ربما يحتويك اللظى، وترى الظلم حولَ روحك حَبلًا!

إن شاءِ الله قال لكل هذا الأسى، لا وكلا..

حاشا لِمن مَلك أقدار العدلِ، أن يتخلَّى!

قال التِّلميذ وهو يمنع صوته أن يتهدج: والله قد شَاؤوا أعمارنا مقبرة!

قال الشَّيخ: إذا أيقظَ القحْط جوع السنابل، وانتحبتْ السلال من فراغها، وإذا توزَّع اللاجؤون على خارطةِ المنافي، وغابت عن الأوطان أقمارها، فقل: أنتَ المالِك المليك، يا من تَسقي ولا تُسقى، يا من يبقى ولا نَبقى، ويا مَن ألقى إلى موسى ما ألقى، هَبنا من مُلكك ما يلقَف ما يأفكون، أنت الملك المليك، مُقدِّر الأقدار، ومِن غيرِ لُطفك يا لطيف سَنهلك.

يا بُنيَّ، إنْ أسكنوك عَتمة الحوُت، فزادُك التَّسبيح..

يا بُنيَّ، ما كَرُب نبيٌّ، إلا استغاث بالتَّسبيح!

سبِّحه، إن المليك من عتمة الحوت ينجيك!

القدوس

مِن النَّاس مَن لله يُساق، ومنهم مَن يُهرول لله بالأشواق، وكل عبور دون الله شاق، ولكن عند الوصولِ تُنسى المشقة، وكُلُّ تَعب في السير إلى الله له عِوض.

كان النَّاس جُلوسٌ، كُلٌّ قَدْ ألقى سِتره على وَجعه، حين افتتح الشيخ مجلسه بهذه الحكم فقال تلميذ:

يا رب، أشتاقُ يَاء النِّداء في (يا عبدي)، يا رب، هبني يَاءً بعدها القُرب!

قال الشَّيخ: يا بُني، طابت النفوس إذا اتَّصلت بالقُدُّوس، وعلى قَدر القُرب يكون الوَهْب، وإنْ نأت الروح خسِرت (واو) المعيَّة، وكمْ مِن عَطاء تعثَّر في معصية!

يا بني، نهرُ الريانِ بين يديكَ فلا تكن ذاك الذي ظمِئا!

يا بني، هو القدوس الطاهر الطيب المبارك، ولا يَطأ العبد بِساط القُدُّوس إلا بعمل تَقدَّس، كأنْ تمشي إليه بفقرك حاسِرًا، ومن الشَّهوات حافيًا، كأنْ تُنَزِّه حَسنتكَ عن أعين الناس، فَتبقيها خافية، كأنْ ترحَل إليه بقلبٍ ما زال صَافيًا، كأنْ تمشي في مَناكبها، فلا تبلُغك الفتنة بعاصفة.

أولئك الهارِبون بدينهم من شاهِقٍ لشاهق، ولِربهم قطَعوا العوائق، شَدُّوا النِّطاق على القلوب، وعُمرهم عُمر المعارك!

ردد: قُدُّوس قُدُّوس. احترِس بها من بريق البَريق، إذا هَيَّأت لك الفتنة سُلَّمًا!

قال التلميذ: يَا رب، مُتعثّر وأحبو لبابِك مُثقَلًا، رَبَّاهُ، لا ترد الآتي بصِفْرِ اليَد.

قال الشَّيخ: يا ولدي، معيَّة القُدُّوس لا تُبلَغ إلا بتنزيه النُّفوس، ومَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ الْعَافِيَةَ، مَلأَ الله حِضْنَهُ بالْعَافِيَةِ، فإياك وآفات النيات وأمراض الصدور، اترك خلفك ما يُفنيك.

يا بني، بالإثم يَسكنك الخَراب ويَمحوك التُّراب، الإثمُ لا يبقي لنا أثَرًا، وطريق القدوس أوله التَّقديس وآخره القَبول.

يا بني، مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْبِقَ الدَّائِبَ المجْتَهِدَ، فَلْيَكُفَّ عَنِ الذُّنُوبِ، وحَسبكَ أنَّ الطَّهارة تطوي المسافة إليه، فإذا دنَا الفؤاد، تبوَّأ مِن الفَضل حيثُ يشَاء.

هو القُدُّوس، إذا قَبِلك أحبَّكَ واجتباكَ، ثمَّ حبَّبهم إيَّاك.

قال تلميذ: يَا رب، قادِمٌ مِن هناك قدْ ملَلتُ البُعدا، وخَطوي يَبعُد كلَّما أوشَك، أوصلني إليك، سبحانه هو القُدُّوس الطاهر الطيب المبارك، فدلنا يا شيخي كيف نصل إليه.

قال الشَّيخ: يا بُني، (سَيئاتك في الخَلا، تنسِف حسناتك في الملا)، فاحذر ما بينك وبينه في الغيب، وأخسُّ النَّقص ألا ينفي المرء عن نفسه قَذى النقص، فكُن للفرائض حافِظًا، وللمعَاصي رافضًا، وَإِذَا حَفِظْتَ لِسَانَكَ، فَقَدْ حَفِظْتَ جَمِيعَ جَوَارِحِكَ.

يا بُني، اذكُر إذا تعثَّر الناس بكلماتهم على الصِّراط، وأمسكتْ بأقدامهم الخلوات، وعَوى ضجيج سَيئاتهم من هاوية النار، وارتجت الآه من حَسيسها،

والتفَتَ القلبُ، فلا عاصَم إلا الله، حينها تعلم مَرارَ أنْ تُنفق بَياض العُمر في سُود الليالي، مرارة أن تضل الخطى معراجها للسماء، في الحَشر لَن تخلَص النُّفوس إلا إذا استقرَّ فيها اسم القُدُّوس، فقل: أنت القدوس فطهر الصحائف والأحوال.

قال تلميذ ارتجف قلبه: كيفَ يستقر في القلب معنى القدوس؟

قال الشَّيخ: إذا سَكنت الخَشية في القَلب، وُهِبت الجَوارح التوفيق، فاجعل التَّقوى الأساس، وراقِب الخَواطر والأنفاس، واجعل تقويم عُمرك ما نَفضتَ مِن الغُبار، وإن مَدَّت الزِّينة إليك شَهواتها، فقُل: ﴿معاذ الله إنَّه ربِّي أحسَن مَثواي﴾.

أنت القدوس الطاهر فطهر أعمارنا.

يا بُنيَّ، خالِف النَّفس، واحذَر من الشَّيطان اللبس.

قال التلميذ: وأُشْهِدُ اللهَ ما شَقَّ لي قميصُ تُقى، وأنِّي سَترتُ ضجيج الهَوى، أنتَ المطَّلِع على غَيبِ قلبي وما فيه استَتر.

قال الشَّيخ: مَن تطهَّر من دسَائس النَّفس، أمِن مِن النَّكس. قُل: أعوذُ بك مِن قَدم النُّكوص، أعوذُ بالله من الفَقد في زمَن الوَجد، أعوذُ بالله مِن حِرمان المَنَن في زمَن المنح.

يا بني، طَهِّر حَرم قلبك، فهو مَوطن نظَر ربِّك، اقرأ لوحَ قلبك، يُنبيكَ بمآل أمرك، والعَبد حيث وقفَ قلبه، بلَغ مَقرَّه.

سُبُّوح قُدُّوس ربُّ الملائكة والرُّوح، باسمك الطاهر الطيب ارزقنا طهارة الخطى وبياض الصحف.

قال تلميذ: يا رب، اشْدُدْ قلبي بالرِّضا، حتَّى أنَام مِلء جُفوني مهما جَرى، ارحَم عِبادًا كلهم ذا النُّونِ!

قال الشَّيخ: سبحانه هو السَّلام القُدُّوس، المنزه فنَزِّهه عن تُهمة الشَّك، ورتِّلها إذا قَدَرٌ زَلزلك!

سُبُّوح قُدُّوس، نَزِّه الله عن سوء الظنِّ، فَربما دَفَع البَلاء بالبلاء كيْ يُنقذك..

سُبُّوح قُدُّوس، وفي عتمة الجُبِّ ثبِّتْ خُطاك، فهذا البلاء كَي يَصقلك!

ورُبَّ أمرٍ تكرهه فيهِ نجاتك، وَرُبَّ أمرٍ تؤثرهُ فيهِ هلاكك!

هو القُدُّوس فنزهه عن الشَّك، واخلَع على العتبات ظنَّك، وَقُل: أدرِكنا باللطف إذا نزل القضا، أسدِل علينا العَطا، وداوِ قلبًا ظنُّه بك ﴿عسَى﴾، ﴿عسَى الله أنْ يأتي بالفَتح﴾، فيكشِف الكُرَب الثِّقال.

قُدُّوس، أتيناكَ على فَقرٍ، فَعِدنا بقميصٍ وبِشارة، تنزَّهْتَ عن النَّقص، لكنْ مَن تعثَّر في الحُجُب وزَحمة الخَطايا وزحفتْ على قلبه آفات الذُّنوب، كيف يَفهم مُراده؟

يا بني، ضاقَ الجَواب على السُّؤال إنْ قال الربُّ في الحساب: يَا عبدي طَال الغِياب ولا إيَاب!

السلام

قال الشَّيخ: ما استُفتِح غيبُ البِشارات، بمثل القيام في المحراب، أما سمعتم ﴿فَنَادَتْهُ الملَائِكَةُ وَهوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المحْرَابِ﴾؟

بالدُعاء في الصلاة، توثَّق عُرى التَوفيق، إنَّ (الدعاء أبواب توفيقٍ، تُفتَح ولا تُغلق).

وللدعاء بركة الدُّنو وغنائمها؛ تيسير قبل التَّفريج، فإنْ ألهمَك الدعاء فقد أرادَ لك فسحة العافية، و(كَم من دَعوةٍ صالحة أدنَت عطيَّة وافِرة)!

والزيادةُ حَظُّ مَن أكثَر الطلب، فاعرِض على ربك دقائق الحاجات، وصابِر في خَندق الدعاء، ترَ المواهب عَجبًا، وما ألَحَّ في الدعاء إلا موقن، وثقْ أنَ (كُل حوائجك يأتِي بها الذي أتَى بك ولم تَكُ شيئًا).

يا أبنائي، دُعاء السَّحر لا يعرو صاحبه كَدر، وإن بكَت العين أبصَرت نعيم الإجابة، وبعضُ الأصوات عند الله معروفة، وما يلمُّ شتَات الأمنيات إلا بالدعاء!

وقد أفلحَ والله مَن رمَى حوائجه على باب الله، فاتقِ غارات الهُموم بدقائق السحر، فإنَّ العيشَ مع الله غنيمةٌ مضمونة، فإن رأيتَ قلبك عاجزًا فَقل: (أجِرْنا مِن الحرمان).

حدَّقَ الجَمْع إلى الشيخ وردَّدوا الدعاء، قال الشَّيخ: ليسَ مع الله إلا ﴿وعجلتُ إليكَ ربي لتَرضى﴾، وإنْ تَلتفت تخسَر ما لدَيك، فاستوِ في مقامك،

وأحسِن انحناءةَ قلبك، فإنَّ من انحنى لله استقامَ له كل شَيء، وقُل: اللهم أنت السَّلام، فسلِّم لنا أعمارنا، سلِّم حسناتنا من النَّقص، فإنَّ لوعة النقصان حسرةٌ إذا وُضِعت الموازين.

أنتَ السَّلام، فسلِّم صحائفنا من سَواد النكات، سلِّم عوراتنا من كَشف المستور.

أنت السَّلام، فاجعَل السَّلام على مَن عامل الله بالسرائر! الهاربُ من الشُّهرة كما تهرُب الناس من الفَجيعة.

أنت السَّلام، فاجعل السَّلام على مَن قبضوا على الجَمْر حتى شُمَّت في الأيادي احتراقها.

أنت السَّلام، فاجعل السَّلام على خطواتٍ ثبتت، والوحل يُراودها على انزلاقها.

قال تلميذ: اَللهُمَ سَلم سَلم!

قال الشَّيخ: إنَّ (خسارةَ التوَلِّي فادحة، تَسلُب الأربَاح الماضية)، فسلِّم اللهُمَّ أعقابنا من النُّكوص وقد شارفت المطايا على البلوغ، وسلِّم اَللهُمَّ نيَّاتنا من مُصانعةِ أعيُن الخَلق بطلب الشُّهرة.

أنت السلام فسلِّم سَعْينا من الفَضيحة، سلِّمنا من عقوبة ﴿فجَعلناهم أحَاديث﴾. سلِّم ذُرياتنا، وازوِ عنهم جَواذب المعاصي، وافسَح لهم في الطاعَة

فسحة، واجعلنا ممَّن قَبل الدعوة؛ ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ فقال: لبَّيك لبَّيك.

يَا ولَدي، إنَّما السَّلام لمن خاضوا مِليون إغراء، وظلت الأقدامُ نحو العَرش سِباقها.

إنَّما السَّلام لمن اشتدَّ حبلُ الرَّزايا حوله، وظلَّت الروح مَع اليقين عِناقها.

إنَّما السَّلام للصائمين عَن اللغو أبدًا، أولئك مُلوك الجنة، شعارهم ﴿وإذا خاطَبهم الجاهِلون قالوا سَلامًا﴾.

إنَّ الثرثرة شَعثُ الروح، وإذا توغَّل اللسان في الثرثرة رحَل السَّلام.

اظفر بِنفسك، ﴿فاصفَح عَنهم وقُل سلام﴾.

قال تلميذ: كيف نَغسل الرُّوح مِن أثر اللَغو؟

قال الشَّيخ: إنَّما تُغْسلُ الروحُ بِفَيض الصَّمت، فتعلَّم سَلام اللسان.

كان السَّلف لا يرون العبادة في الصوم، ولا في الصلاة، بل في الكَفِّ عن أعراض الناس، فإنَّ المسلم مَن سلِمَ الناس منه.

لا تفرح بالعبادة إذا كان لسانك لا يتوب من الغيبة.

قال تلميذ: اللهُمَّ أنت السَّلام، فهَبْنا السَّلام في الحِساب.

قال الشَّيخ: سَلامٌ لمن يرى الشَّهوات بعينه، ولا يشتهي الخطايا بقلبه.

دُروب الشهوات مآلها عَتم الخَواتيم، وخَلف كُل شتَات قلبٍ ذنبٌ مَستُور، فَقُل: اللهُمَّ سلِّم الباطن، وسَلِّم الخلَوات، ومتِّعني بعافيةٍ في قلبي، فلا يمرضُ بذنب.

صابر حتى تبلُغ ﴿ادخُلوها بسلامٍ آمنين﴾، تلك منازلُ الخائفين مِن هفوات الطَّريق، وَدِيارهم لا تُباع لِغيرهم.

قال تلميذ: تَشتبهُ علينا السُّبُل فنَتخبَّط!

قال الشَّيخ: اسأله سلامَة البَصيرة. يَا بُنَيَّ، سُئل حذيفة: أيُّ الفِتَن أشَدُّ؟ قال: أنْ يُعرَض عليك الخير والشَّر، فَلا تَدري أيُّهما تَترك.

وإنَّ (أمَارة الأتقياءِ السلامةُ مِن الفِتَن).

قال التلميذ: سَلامٌ عليَّ يومَ أموت، فأرحَلُ خَفيفًا، فـ ﴿قد خَاب مَن حمَلَ ظُلمًا﴾.

قال الشَّيخ: قال داوود: إلهي مَن حِزبك؟ قال الله: السليمةُ قُلوبهم، السليمةُ أَكُفُّهم، أولئك حول عَرشي.

يا بُنَيَّ، في الجنَّة ترى الناس بادية نيَّاتهم، سليمةٌ ليس فيها شية ولا ذنب، وترى السَّلام قناديل تحملُ معنى الصَّفاء، وكُلَّما اشتعل قنديل اشتَعل معنى، فهذا لسلامةِ قلبك، وذاكَ مِن سلامة نيَّتك، وتلك قناديلُ مصفوفةٌ، تضحك لِسَعيك الذي نَجا من عتمة الرياء.

كل لحظةٍ هي سَلامٌ وطَرب، لا زمنَ في الجنَّة، فقد صارت اللحظةُ عُمْرًا يفيضُ بخلود الفَرح، فلا ترى في الجنَّة إلا سَلامًا يُضيء. ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾.

قال التلميذ: اَللهُمَ خِفافًا خِفافًا في السَّير إليك، لا مُثقَلين بالأوزار، ولا مُتعَبين بالخَطايا، ينادَى علَينا: ﴿اهبط بسلامٍ منَّا﴾. اللهُمَّ قَيِّض لنا سبُل السَّلام.

يَا سيدي، دلنا كيفَ السلامة من الحَرام.

قال الشَّيخ: عليكَ بطُول القُنوت في الدعاء بأن يسلم لك دينك، وصنْ لسانك عَن الإثم، وَقلبك عَن ذنُوب الباطن.

يَا بُنيَّ، كُل السَّلام من حولك لا يكفيك إذا كانت المعارك في داخلك، فقُل: بَلِّغنا اللهُمَّ حالًا يبلِّغنا ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾.

كَان السلَفُ الصالَح إذا ذُكِرت الآخرة ارتَعدوا وقالوا: أنت السَّلام، أدخلنا الجنة دارَ السَّلام، أنت السَّلام، فسَلِّم لنا عاقبةَ أمْرِنا، وسَلم خَواتيمنا.

المهيمن

دخلَ الشَّيخ وعلى وجهه أنوارُ القيام، وكأنَّه من زمنِ الجنَّة، فقال بصوتٍ يفيض لله جلالًا:

مَن يبلغ في الأسماء الحسنى أنْ يلمسَ سرَّها؟! (وهل تصفُ الأسماءِ ما لا يوصَف)؟!

يَا أبنائي، للاسم ألفُ ألفُ مدى، حاشا يُغلق، والنور بالنورِ يُوصَل!

أسماءٌ تبعثُ من العَدم مُستحيله، وتُنيخُ لك المطايا حتى ترقى إلى معارجها، فيتمُّ لك ميقاتُ فَيضها، فلا أنت أنتَ، ولا نفْسك نفْسك، ولا الأحزان أحزانها!

يورق لكَ العَطاء مَددًا لا يَنفَد، فاصعَد بالأسماء مقامًا، يتلوه مقام، فإن لامَس قلبُك منتهى الذوق، فقل: أصبتُ قلبي. حينها مباركةٌ هجرتك إلى الأسماء الحُسنى، ومُباركٌ لك هذا الطريق.

قال تلميذ: يَا الله، مَن يبلُغ ذلك؟

قال الشَّيخ: مَن ذاقَ عَرف، ومَن لامَنا في المعنى ما ذاقَ ما ذُقنا!

قفْ في جَمر الرِّباط على الوصول، ستشتعلُ لك المعاني، وعلى قَدر حُسن الخدمة، تتَّسع لك المنّة، وقل اللهمَّ اكفنا كفايةً، ليس فوقها نهاية.

هو المهيمن على ما تريد ولا يكون إلا ما يريد.

قال التلميذ: جلالُك يا مُهيمِن لا يَبيد، وحُكمك نافذٌ في كل أمر، وليسَ يكونُ إلا ما تُريد.

قال الشَّيخ: هو المهيمن، لو رجعتَ إليه مِن مُبتدى الشدائد، لأكرمك بعجائبِ الفوائِد.

يا بُنَيَّ، إذا تعثر حُزنك في ترتيلك المخنوق، فَقل: يا رب، أنتَ المهيمن علَى الألم.

وإذا صارتِ الأيام تُشبه الرَّحى، فقُل: يَا رب، أنت المهيمن على التَّعَب.

وإذا تَراكَمَ اليأس فَوق قلبك، قُل: يَا رب، أنتَ المهيمن على الحاجات.

يَا ولدي، للَّيالي الثَّقِيلة رَبٌّ يُهيمن على المعاناة، وللفُرص المقفَلة رَبٌّ بيده مَفاتيح الفَرج، وللأوقات المرَّة، دُعاءٌ يهزُّ جَذع المستحيلات!

فَقل: إلهي، أَعِنَّا واسْكُب الفضل على أَفْئِدَةٍ ضَاقَت عَلَيْها المخارج.

قُل: إلهي، إني في انتظار وعدك؛ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾.

أنتَ المهيمن، على الزمان، والمكان، والأسباب، إليكَ سلَّمنا الأمر كله.

سبحانه هو المهيمن، ولو اشتَدَّ وراءك لهاث الهَمِّ.

هو المهيْمن، ولو التهَمَ الضُرُّ جسَدك.

هو المهيمن، ولو أوغَل العُمر في القُضبان ينتظر.

سبحانه! لطَالما أغاثَ المجدبين عندما قحَطوا، وأنزلَ الغيثَ من بعد ما قنطوا!

قال التلميذ: يَا سيدي، ما بَالُ قَلبكِ واثِقًا وَحولَكِ أمواجُ المصائِبُ تَعصِفُ؟!

قال الشَّيخ: هو المهيمن ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾. فطُوبى ثُم طُوبى لمن نفثَ الله في رَوعه الأمن، فلا يشكُّ في موعود الله.

طُوبى لمنْ ذاق شَراب اليقين يا رب وأسقَيته حتى أرويته، ثمَّ خَصَّصته بما خصَّصت به أولياءك المتَّقين.

طُوبى لمن صُنته بما لم تَصن به قلوب العالمين.

طُوبى لمن طلبَ ومنك وَجدَّ، وإذا لم يجِد، عامَلْته سُبحانك باللُّطف حتى تنقضي المدَّة.

طُوبى لمن إذا فقَد سَلَّيْته، وإذا عَدِم آويتَه حتى يصبر على حِكمة مواقيتك.

وكُلُّ المواعيد ﴿لا يُجَليها لوقتها إلا هُو﴾.

يَا بُنيَّ، هذه التدابير من نسجها بهذا الإحكام حتى أخرَجَتك مِن المضائق؟

أليس هو المهيمن على الخَفيِّ من الأسبَاب؟!

فقُل: يا رب، اجمَع بَيننا وبين مُرادك بكريم أسبابك. وإن احتَدمتْ في ساحك الحُروب فقل: (ليس لها من دون الله كاشفة).

قال التلميذ: يَا يُتم الأسباب دُون عَونك، سُبحانك أنتَ المهيمن، مَا خاب مَن قصَدك، حاشَاكَ ثمَّ حاشَاك أن تُغلِق باب الجود عنَّا.

قال الشَّيخ: يَا بُنيَّ، هو الله المهيمن، كَان لك بتدبيره لنفسك قبلَ أن تكون، فكُن له، هو مَن خلعَ عَن نفسك ضِرام حَريقها، فلا تنشغلْ بِسواه، وليكن همك

العُقبَى، ودَع عنك التنافس في الدنيا، وقُل: اللهُمَّ أبدِلنا بِهَمِّ الدنيا الدَنيَّة، هِمَمًا عَليَّة، أنت المهيمن فلا يشغلنا عنك شيء.

يَا بُنيَّ، هو المهيمن (قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)، فأطلق عَنان هِمَّتك لله، وارحل إليه بكلِّك، واربطْ بُراق قلبك على سَاق عَرشه. هُناك ثُم هُناك ما لا عينٌ رأتْ مِن عَظيم العطاء، وسَعة الأسماء، وجَلال الجمال!

ومَن اعترفَ مِن فضله، حاشا لقلبه أنْ يُقبِل على أنهارِ الدنيا.

قال التلميذ: اللهُم اقطَع عنا كُل حِجاب، وافتَح لنا كُل باب.

قال الشَّيخ: يَا بُنَيَّ، إذا عرفتَ فَالزَم، وإذا بلغتَ، فقل: بَخٍ بَخٍ رَبح البَيع، يَا قلب رَبح البَيع.

مَن وصَله، سَحَّ عليه كُل شَيء، وخَدمَه كُل شَيء، أليس هو المهيمن على الدنيا؟ أما سمعت، يَا دُنيا، مَن خَدمنا فاخدِميه، ومَن خَدمَك فأتعبِيه؟!

قال التلميذ: يَا رب، املأنا بالسَّكينة، وقَلِّبنا على مَا تُريد منَّا، وعيننا على يدك في الأمر، أنت المهيمن وإن لم نرَ. أواه ما أشَدَّ الصبر على الإيمان!

قال الشَّيخ: يَا بُنيَّ، يَقظتك بين الغافلين مَزيدٌ حظِّك عنده، هنيئًا لمن آمَن بأسمائه، وصبرَ على أحكامه في الرحيل والمقام.

يَا بُنَيَّ، إياكَ أنْ تلتفتَ لسواه، واجعل الاسم بوصلة الصبر على الطريق، وعنده اسجُد طويلًا، حتى تهتزَّ لك من أعالي الغَيب مِنَحٌ جَليلة.

إنْ جَمعَكَ عليه، بلَغْتَ بِساط السَّلامة، ومَا بعد ذلك إلا بِساط التَّوفيق، فقُل له: يَا رب، جُودك فائضٌ وخَزائنك مَلأى وأنت المهيمن على كل شيء، فأعْطِنا ولا تَحرِمنا.

يَا بُنَيَّ، في رِحابهِ أنتَ أمسيتَ لله ضيفًا، واللهُ للضَّيف يُغني.

العزيز

جلس الشيخ في مجلسه وتأمل وجوه الحاضرين، فرأى شابًّا يسلم من صلاته ويمسح وجهه بخفية، فقال: امسحْ اللهُمَّ أوجاعَنا، وَلُمَّ العَثرات مِن خَطواتنا، واجعل الإجابةَ في دُعائنا، واسقِنا غَيثك واسقِ بنا.

ثُمَّ قال: يا أبنائي، الهمُّ يُدفع بالمناجاة. اللهُمَّ إنْ بلغَ بنا الحُزن الغاية القُصوى، فَوحْدك أهلٌ لدفع ما اشتَدَّ مِن البلوى.

فإذا بالذي أنهى صلاته يقول: اللهُم رُوحي وما تَجِد.

قال الشَّيخ: كُل وجَعٍ يُفتَح بالله، يُرتَق، وما تَراه يأسًا مُطبقًا إنْ أجابَك بالفرج، ملأً لك به الأفق.

ارفَعْ كفَّك وقُل: يَا رب، إذا ألقتْ مراسيها الخُطوب، والتاعتِ القلوبُ، فارحَمنا. يَا رب، لا يمَسُّ أيامنا شُحوب.

يَا أبنائي، لولا الدعاءِ أعمارنا سَقَر! يدعو العَلاء الحضرميُّ في جَدب، فتفرغ له السحُب.

يا بني، مَن وقفَ لله مُنتصِبًا، جاءَه كل ما كان يَرتَقِب، وما نأى له طلَب.

أعَزوا دين الله فأعزهم العزيز، اعتَرضَهم البَحر في جِهادهم، فمَرُّوا كلُّهم على الماءِ ما ابتلَّتْ سُروج خُيولهم!

كانت مقطوعة أسبابهم، وسِهام الموت ترميهم، لكن خيلهم خَيْل لله ما كَبا، فأزاحَ الله عنهم الذُّل والسَّغبَ،

شَدُّوا توَسُّلاتهم بالدُّعاء، وشَدُّوا فوقها الكُربَ، أولاء أهلك، خَطوهم لله ما اضْطربا!

يَا بُني، ما عثُرتْ خيلٌ أعَزَّها الله، وما ذَلَّ مَن أعزَّه الله.

إنْ كنتَ به، تُطوى لك الأسباب ويدنو بَعيدها، ومَن صدقَ مع الله، كفاهُ الله مضرَّة الأعداء، وحَملَ عنه مَؤونة الأدَاء.

قال التلميذ: اللهُمَّ أعِزَّنا بطاعتك، إذا لاحتْ لنا فتنةُ الشهوات فإن الذل بعد الزلل.

قال الشَّيخ: يا بُني، الجَوارح سواقي، فلا تسْقِ قلبك معاصي السَّعي، وقُل: يا الله، بعزَّتك اعصِمني، فإنه لا عاصِم إلا الله، عصم يوسف في قصر العزيز إذ استعاذ به، هو العَزيز، إنْ تعلَّقْتَ بغيره، سقَطتَ مِن عينه.

قال تلميذ: (أيُّها القَلبُ أجِب)، اللهُمَّ خُذنا إلى مَقاماتهم، كادَ الذُّل بالبعد عنك يَسبينا.

قال الشَّيخ: سبحانه هو العزيز، فقُل لَه: أنتَ العزيزُ، إنْ عَرَّشَ الخَوفُ في قلبي، فبَلِّغني ﴿لاتخفْ إنكَ أنتَ الأعلى﴾. أنتَ العزيزُ، إنْ غيَّبَ العالم الطُّوفان، فَبلِّغني لا تَخاف دَركا ولا تخشى.

يَا بُنَي، (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) فلا تخفْ ولا تقل ليسَ لي أحد؛ مَعك من ليس له ﴿كُفُوًا أحد﴾، والوقائعُ إذا لَمْ يُرد الله انبعاثها، أطفأَ نَارها.

قال تلميذ: لِمَن يكون كل ذلك؟

قال الشَّيخ: يا بُنَي، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾، ومَن أطاعَ مَن فوقَه، أطاعه مَن دُونه، أولئك قومٌ ما هتَكوا لله أمرًا.

يا بني، إنَ لله سطواتٍ ونَقمات، وما هي مِن الظالمين ببعيد، عِزته في جَبروته، فاحذَر سَطوة الله، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ.

فقال تلميذ: يَا الله، وعزتك الاستدراجُ منك، هو حِبالٌ مِن مسَد، والإمهالُ منك، لا يُفلِتُ منه أحَد.

قال الشَّيخ: يا بني، دوامُ اعوجاج الخطى يُفضي إلى الخذلان، فقُل: أعوذ بك يا الله من بوائق الغَفلات، ومن الاغترار بكثرةِ الحسَنات. هو العزيز والعز في طاعته، والمستعين بِالنِّعَم على المعاصِي، مُستوَجِب السَّلب، ومَن نَقل قدمه في المعاصي مُستَعديًا، بسَط يَدهُ للإحسانِ مُستجديًا، ذاك ذل المعصية وربك العَزيزُ في انتِقامه فاحذره!

فانظر إلى إخوة يوسف كيف بسطوا أيديهم ذلًّا وقالوا: ﴿يَا أيها العزيزُ جئنا ببضاعةٍ مُزْجاةٍ فأَوفِ لنا الكيلَ وتصدَّق علينا﴾.

تنسى الذنب لكن الله لا ينسى، فانظر كم الفارق بين يا أيها العزيز وبين تصدق علينا!

يا بني، والله لو أَنت فِي غمضِ المنام، وَرب الْعَرْش نَاظر، ودعا عَلَيْك مظلومٌ لَمْ يلق غير الله نَاصر، لأصاب سهم دُعَائِهِ مِنْك الْفُؤَاد وَأَنت صاغر.

قال تلميذ: يا عالم السر منّي، لا تكشف الستر عني، اللهُمَّ اختر لقلبي سبيلًا، غيرَ ذي عِوَج، أنتَ العزيز، فامحُ ذنبًا اشتدَّت جرائره.

قال الشَّيخ: يَا بُني، أعِزّ نفْسك بسؤاله وحْده، والله كُل الأسباب التي نَلوذُ بها إنْ لم يُهيِّئها اللهُ، لا تتهيَّأ!

بعزتِه يُدني أحلامَك القُصوى، وبعزتِه يقصيها، وتأمل في قصة يوسف!

الجأ لمن بيده أسباب عزتك، وإذا رأيتَ القلبَ يخشى هَواجسه فقُل: ﴿فسَيكفيْكَهُم اللهُ﴾، وفي دُجى الهمِّ رَتِّل: ﴿فسَيكفيكَهُم اللهُ﴾، وإنْ وضعوك في ألفِ مُعترَكٍ فقُل: ﴿فسَيكفيكَهُم اللهُ﴾.

الله يَا مَلكِي، ﴿تُعزُّ مَنْ تَشاءُ وَتذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾.

قال التلميذ: اللهُم أعِزَّنا بكَ عِزًّا لا يَفنى، أعِزَّنا بك ولا تُهِنا.

رَدَّ الشيخ: الله يَا عزّي، الله يَا سَندي، الله يا نَجِيَّ القلبِ في الظُلَم، الله يا عاطي، الفَتح بلا سبَب، اللهُمَّ أيِّدني بك، واجعلني لَك، مُستعصمٌ بالعزيز، في قمَّة الضَّنك، مستعصم بالعزيز، في الحَلك.

يَا بُنَيِ، إنْ رأيتَ غُبارَ الفَجائع فقُل: أَعوذ بعزَّة الله وقُدرته من شَرِّ ما أجدُ وأُحاذِر.

بِحَول الله، لا يَقدرُ عَليك.

قال تلميذ: عَفوكَ يَا مَولاي، عفوك يَا شيخي، كيفَ السَّبيل لِعَفوه؟

قال الشَّيخ: أخلِص لله تُوَفَّق، وانوِ تُعن.

يا بني، إنَ الأواخر تَمحو الأوائل، فانظُر ما هي أواخرك.

الجبار

صلى الشيخ بنا ودعا طويلًا، ثم التفت إلى الجمع وقال: (هَل قصَدتَ اللهَ في كَربٍ ورَدَّك)؟!

كَم يأسٍ دهاكَ، وقبلَ أنْ تدعُوه، مَدَّك!

أينَما وجَّهت وَجهك، هو مَن يكشف همَّك.

كان الجمع كله في صمت خاشع فنظَر الشَّيخ إلينا، ثُم قال: لا تيأسوا، (كَم عَبرةٍ في دَعوةٍ، عبرت بصاحبها مَدًى لا يُعبر)! فقولوا: اللهُمَّ انقُل أحلامَنا مِن حَضيض أسبابها إلى بِشارات تَيسيرها.

يَا أبنائي، واللهِ مَا مسَّني عُسرٌ ففوَّضت أمره إلى الملك الجبَّار، ولزمت الاسم إلا تيَسر!

(فكُن لِما لا ترجو، أرجى منكَ لِما تَرجو)، فإنَّ موسى ذهبَ يقتبس النارَ، فكلَّمه الجبَّار.

هذا الواقع يهزم من لا يعرف الجبار.

قال تلميذ: اللهُمَّ لا تَدع الهَمَّ يهدمنا، واسندنا بقوَّة يديك، اللهُمَّ لا تَدع شِفاه القلب يابسة، بَلِّلها بِندى ما لَديك.

قال الشَّيخ: وإنْ لم تَجِد سُبلًا لليُسر مُفضية، فثِق، قَد بلَغ العرشُ آهاتك، فإنْ هالَك أمْرٌ، ادْعُ، عسى اليُسرُ مآبه! افتح كُفوف الرَّجا، فإنْ أثاروا عليكَ غُبار الشكِّ، فـ (قُل الله، ثُم ذَرْهُم).

قال التلميذ: يا رب، أنى نطيق ما يجري، يا رب، هذا القلب مُضطرب، وما عندك هو المرتَقب، يَا رب، يجثو الليلُ على أرَقي، فاجبُر دُعاءً، أنت العليمُ به.

قال الشَّيخ: كُل قلبٍ قد غَدا ذا كَسرة، فالجَبر منه دانٍ، ومَا كَان ليهيضَ جناحٌ الله يُجبره.

قُلْ: يا جبار السماوات والأرض، هَبني رَجاءً أرى من خلفِ عَتمته جَبرًا يفيضُ كأنَّ الكَسر لَم يَكُن.

يا بني، إنَّ في الأسماء مَا يكفي حوائج الخَلق، فالجأ لِلجبار إنْ ضاقت بك السُّبل.

والله إذا جبرَ نَقْصك، رزقكَ رزقًا تقضي به حوائج الخلق على يديك.

جبرَ عبْدَه زكريا، فَقُل لَه: يا جبار، اسمعْ ندائي بما سمعتَ به نداء عَبْدك زكريا.

إذا جبرَك، فقد أذِن الله بشفائك، وتلقَّى داءك بدوائك، وإني مخبركم بأمر، مَن جبر جُبِر، والمرء يأخُذ مما كان يعُطيه.

هو الجَبار، يَعُدُّ لك، كَم خَلةٍ في الأوجاع سدَدتُها! وكَم أنةٍ مُحتَبسةٍ ستَرتُها! وكَم غصَّةٍ في الحَلق نَزعتُها!

حاشا لمن يَجبُر كَسر القُلوب أنْ يَعثر، فابحثْ عَن نفْسك في اسمِه.

يَا بُنَي، مَن أودَع الاسمَ سَعيه أمطَره.

ثُمَّ أكمل الشيخ وقَال: هَذي الحَربُ مُجمِرة، أوقَدتْ أيامَنا حطبًا، فإنْ طغَى لهَبٌ عليهم، فأطْفئه بِصَدَقتك.

هو الجبار، لا يُطفئ غَضبه إلا الصَّدقة، وإنَّ المكَارِمِ عند الله ودائع، وبَيننا وبين الجبار عهد، أن مَن جبر جُبِر.

ثُمَّ تنَهَّد الشيخُ، وقال: يَا بُني، إذا أبصرتَ أرضَ الآخرة، وساءَلَك الجبار عن دُموع الليل يَسكبها المنسيُّون في خيام التَّعب، وقال لَك: أيْنَ كنتَ يَا عبدي عَن فُقراءَ ستَروا قلوبهم بالصَّمت؟ فقال لك:

أيْنَ كُنتَ يَا عَبدي عَن أراملَ أورقَ الحُزن في دمُوع صَبْرهن؟

أيْنَ كُنْت يَا عَبْدي عَن ألفِ ألفِ قدرٍ، لا نار تُؤنسها؟

أيْن كنتَ يَا عبدي عن غَزَّةَ، وقَد طوَّقتها ليالي الدَّهْر؟

أيْن كُنت يَا عَبدي؟ قَد كنتُ أرقُبُ مَن آنَس في صَحاري الفَقد كُربتهم، فأين كُنت يَا عبدي؟

واذكر يوم (يَأْخُذُ الْجَبَّارُ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضَهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْجَبَّارُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟)، ذاك يوم للجبار وحده.

فضجَّ الجمْعُ بالبكاء، وقال تلميذ: عَفوك يَا جبار السماوات والأرض!

قال الشَّيخ: يا كل بنيَّ، الأرواحُ المثقَلة بدُموعها، الأنفاسُ المرهَقة بأُمنياتها، ومَن صَمتوا وَمن سَكتوا عن كل أحلامهم، إنْ لم نَجبُرهم فكيفَ يَجبرنا الله؟!

يَا كل بنيَّ، مَن كَان غيمًا، طافت به السحُب، ومَن أجدبَ، فقَد أجدَب على نَفْسه.

لا يؤتى بكَ فيُقال لك: ليسَ في الصحف ما يكفي ارتواءك، فتَقف صِفْرَ الكَفِّ مُنفَرِدًا.

ثُم رفع الشيخ يديه وقال: اَللهُمَّ مَن كان كَفًّا حانِية، فلا تَجعل لَه أُمنيةً نائية.

قال تلميذٌ يَخنُقه الخَوف: يَا مَولاي، هَاك يدي، هَاكَ قلبي، عابِدٌ يخشَى حِسابك، يَا جبار السماوات، اجْبُر فَقرنا إذا حانَ سُؤالك، اَللهُمَّ بثَّ في الروحِ وِصَالك، واجبُر نقصَ سَعْينا إليك.

قال الشيخ وَشِفَته تَرتجف: يَا بُني، احمِل في فُؤادك قافلةً من النيات، واحْمِل عليها ما تستطيعُ مِن زادِ الوصُول، واخصُف على القلوب مَا تُرقِّع به أحزانها.

إنْ جَعلْتَ العمر سَعيًا في الحَوائج، حَوَّطك اللهُ أن ترى الحُزن، حَوَّطك الله أن يَكبُو لك دَربًا، عَوَّذك الله أنْ يظمأَ لك طَلَب.

قال تلميذ: لأَفعلنَّ ولأسيرنَّ في الناس جَابرًا.

قال الشَّيخ: عسَاهُ الجبارُ لكُلِّ كَسرٍ أصابَك، والجَبر أول مَا تأتي بَشائره، فإنْ سَعيْتَ في نَهارك لله، فاستَند بأكملك على حائط الدُّعاء، وقل: يَا رَب، (تأوي إليكَ الروح من رمْضائها).

قال التلميذ: يَا ربي، قلبي يَجري على قلقٍ، فارحَمني.

يَا رب، أتَّكئ على صبرٍ، كأنه في آخر الرمَق، فاجبر مَنسَأتي لا تَسقُط بي.

قال الشَّيخ: هُمومك طَوِّقها بالدُعاء، حتى تحَار الهمُوم أيْنَ تجري، تَحَدَّثْ إلى الله، وأخبِره عَن حُزنك القليل قبلَ الكَثير، عَن دمُوعك التي تَسقُط في قلبك، ولا أحد يَراها، عن اعْوِجاج الطُّرُق في خَطوِ أحلامك، قُل لَه عَن مَرارةِ طَعمِ الرحيل للأحلام، فَهو القَادِر أنْ يَرُدَّها عليكَ ردًّا جَميلًا.

يَا بُني والزم وصيتي، مَن جبَر، جُبر.

الخالق

سبحانه هو الخالِق، نستدلُّ به عليه، فاضَ إناءُ الوجود بفطرةِ الشهود، أنَّ لا خالِقَ إلا الله، وكان الكون بذرةً عذراء، فلَقَها باريها، فلا تجعلها بلا خالِقها فكرةً عَرجاء!

سبحانه، اختارَك عبدًا، فاقبَل اختياره. هو الخالِق مِن ضَباب العدم، أبدَع للحُلم نهاره، ومِن عَتمة الفَناء، شقَّ عن الكون سِتاره، شاء الوجودَ وشاءنا اختباره، فإن اشتَدَّ فيك القلق على أمرٍ قد انغلقَ، فقُل: أنت الخالقُ ربُّ الفَلق.

سُبحانه! ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾.

سُبحانَه! هو المنفرد بالخلق والتَّصوير، وهو المنفرد بالحُكم والتَّدبير.

سُبحانَه! للشَجرة هو ساقيها..

سبحانه! للخليقة هو باريها، ويَكفيها أنَّه كافيها ومكافيها.

فلا تَجزع، أمَا يكفيك أنَّه يكفيك؟ وما كان مِن رزقك، أتاكَ على ضعفِك، وما كانَ ممنوعًا عليكَ، لن تملكه بقُوَّتِك.

يا بنيَّ، ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

قال تلميذ: خالقٌ ووكيل، ما المعنى؟

قال الشَّيخ: له خيلُ المقادير، متى ما شاء يربطها ومتى شاء يوريها، فارحَل بالاسم إلى أقصَى اليقين.

يا بُنيَّ، مَن شقَّ عتمة الأسباب، نوديَ مِن أقاصي النار ﴿إني أنا الله﴾، ﴿خالقُ كُلِّ شيءٍ﴾، فآنِس مِن الله الإشارة، وقُل: يا مَن وهبْتَ الكونَ نبضه، ما مُورقٌ إلا الذي منك ابتدا، ما واصلٌ إلا الذي منك دَنا، فاجعلْ بَدئي أنت وأنت المنتهى.

سبحانَه! ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأرضِ﴾، تداركْ بالآية يقينك، واعرُج إلى قمَّة الانعتاق.

أتدري إلامَ يحتاجُ قلبك؟ أنْ ينبض باليقين، أنَّك بالله لن تخطئ المستحيل، وعلى جُرفِ هاويةٍ تفهم، أنك المؤمن الممتَحَن، فلا ريحُ الشكِّ تَهبُّ في قلبك، ولا تُزلزلك الأسئلة!

أتدري إلامَ يحتاج قلبكَ؟ أن تؤمنَ أنه متى كان الإيجاد، فعلىَ الله دوام الإمداد، متى كان الخَلق، فعليه سبحانه دوام الرزق.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ سبحانه! أيُطالبك بحقِّه ويمنعك وجود رزقه؟! أيُبرزك لكونه ويَمنعك وجود عونه؟!

أيُخرجك إلى الوجود ويَمنعك الجود؟!

ما بين المجرَّة والمجرَّة بين يديه، فاسأله ما يُعجزك، وثقْ بالخالق الرازق، وخَلِّ عنك الخلائق. اسأله وقُل: بأمرك الذي أودعته في ﴿كُن﴾ اقضِ حاجتي، أنت خالِقنا ولك أمرنا! ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾.

يا بُنيَّ، مَن لم يسأل الخالق، ابتُلي بسؤال الخلْق.

تنهّد تلميذ قائلًا: والله إني لأسأله، لكن كأنَّ أحلامي جُبلت على لاءٍ نافية!

قال الشَّيخ: وضِّئ قلبك بالثِّقة، يَقطُر لك الغيم عافية، وتوشَّح بالأسماء، فإنها وربِّي كافية.

اجعل ذِكرك ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، ولا تكن بين وبين، بل امْدُد اليدين، ولا تسأل كيفَ وأين، وإنْ طُردتَ عن حِياض الماء، وإن نبَذوك في العراء، وشاؤوكَ وراءَ الوراء، ﴿قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

هوِّن عليك وكُن بربِّك، وقُل ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾، يختار ممَّن شدَّ على الحقِّ نواجذه، وأغارَ على العَجَل رغم هطول الفتن.

يا بُنيَّ، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ شاءَك الله انهيار المستحيل، فلا تأتِه منكسر الصَّليل، شاءك أبعد من حدود الطِّين، فإن أضعتَ الطريق إليه فقد أضعتَ الطريق إلى اختيارك.

اترُك وراءك ما تُحيي به أثرك، تدهش الملائكة من عبد ظل حيًّا ما مات رغم الموت حتى تكاد تقول: قل لي بربك من ثبتك، قل لي بربك من كملك!

اسمع لقول الصالحين أيها العَبد، ما آمَن به من نازعه، ولا وَحَّدَه من دَبَّرَ معه، ولا رضي به مَن شَكا ما أنزل به إلى غيره، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾، وليس مع تقديره اختيار، تخيَّره ولا تتخير عَلَيهِ، ولربما اختار المرء هلاكه!

قال تلميذ: سُبحانك سُبحانك! أنت الخالِق، وأنا العبدُ الآبِق.

قال الشَّيخ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، هو الخالق خلقك له، فاستلِبْ زمانك، فهو مَسلوب، وغالب الهوى، ولا تكن مغلوب، وحاسب نفسك، فالعمر محسوب، وامحُ قبيحك، ولا تلقَه مكتوب!

والله ما في المقابر مِن دَفِين، إلا وهو يئِنُّ مِن (سَوفِ)! إذ يظلُّ الشيطان يُدافعك عن الآخرة، ويمنِّيك بالغَد.

يا بنيَّ، إِنَّ مِنْ إِعْرَاضِ اللهِ عَنِ الْعَبْدِ، أَنْ يَشْغَلَهُ بِمَا لَا يَنْفَعُهُ.

قال التلميذ: اللهُمَّ عُمرًا مليئًا بسنابل مَلأى حَصادها لا ينتهي، اللهُمَّ وأجورًا تفيضُ بحقولها حتى يُقال: هذا الفِردوس فاهنأ!

قال الشَّيخ: قَضى اللهُ بالرَّحْمَة، لِمَنِ اهْتَمَّ لِأَمْرِهِ، فاجعَل عُمرك أمْرَه، تضلع من زمزم الأجر، وأتمم له مكارم الحب.

القهار

سلم الشيخ ثم استفتح مجلسه بالحمد والتسبيح ثم قال: كل اللاءات في عمرك يغلبها القهار، (هوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) في أقداره، وما تظنُّه لا يُدرَك، فعند الله لا يُترَك، وإذا حانَ القَضاء، تلاشت الأسباب، والقليلُ مِن إشارته يكفي. سُبحانه! ما قَدَّرناه حقَّ قدره إنْ لم تُسلِّم لقهره، ولا راعيتَ حقَّ بِرِّه، إن لم تَمتثل لأمره، وتنتظر أقداره.

والغَفلة أنْ تؤمنَ بما تراه لا بما لا يُرى، ولو كَان هو بصرك لرأيتَ به!

قال تلميذ: يا سيدي، نحنُ مَن قبضَ جمرَ (لا)، وما نَرى في الثَّرى أثَرًا، نجوبُ فراغ الجواب، عسَى أن نَرى شيئًا مما لا يُرى.

قال الشَّيخ: هو القاهِر، وقَهره غَلبَة، إنْ قهرَ، أصابَ ظالمك بحسرةٍ لا تدري لها كيف، حتى تراه في هَمٍّ لا يقبلُ الصَّرف! أسبابه هَيِّنة، ولربَّما قهرَ بِلُقمة يأباهَا الجوف، سبحانه، إنْ قهَرَ، جعلَ كُل الأمنياتِ سوفَ وسَوف! أنت القهار، ازرعها في أدعيتك، وقل: يا قهار اقهر من مسنا من وجع وجعل قدرَ الأمة أخبار المقابر.

قال التلميذ: يا سيدي، جَعلوا الحُلم مُحالًا، والانتظار مَواقيت العَذاب، أنهَكَنا البُكاء، وأعيانَا السُّؤال، متَى ليلُ البَلاء يُطوَى؟

قال الشَّيخ: هو القاهِرُ، وقَهره إرادة، ربَّما حكَم عليهم بالذُّل، وهُم في العِزّ، وحكَم عليهم بالفَقد، وهُم في الوَجد، وضَربَهم بالحاجَة، وَهُم في الغِنى! فقل: أنت القاهِر فأرِنا قهَرك فيمَن سَلب الزيتَ من فانوسِ أحلامنا.

هُو الله لا إله إلا هو الواحد القهار، عالٍ في الأعالي، له القُدرةُ، ولنا محاولة إدراك الكَمال.

قال التلميذ: يا رب، هذا الوقتُ أوجاعٌ ثِقَال، أحلامنا تَخطو بِدَرب المستحيل، أوطَاننا بيداءَ يملؤها الأنين!

قال الشَّيخ: يا بُنيَّ، مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، أتراه يَغفل عمن خَان صلاةَ الصُّبح، ومَن نَسي فاتِحةَ الوَعد وسَار بالأُمّةِ مِن بُؤسها إلى بُؤسها؟! سبحانه! يَمُدُّ لَهُم اليوم، لتعبسَ لهم مَلامح الأبَد، فاصعَد باليقين تِلال الرُّؤية، هذا المخاضُ، سَيحلُّ عن خَصرِ الفسَاد إزاره، ولهذه الأوزارُ أقدار، وللأقدار أوقات.

يا بُنيَّ، ما أكثَر ما يُهزَم بالشَّكِّ السائِرون، فتنبه!

قال التلميذ: واللهِ لقد جفَّ الغيثُ، حتى كأنني سمعتُ ارتطام الدَّلوِ في بئرِ حاجتي، اللهُمَّ حِبال فَرجك لمن هُم في غياهِب الجُبِّ!

قال الشَّيخ: كلَّما كَان الحُزن أعمَق، كان اللهُ من عبده أقرب، هو القاهِر فوق عبادِه، وَقهره قُدرة، فافهم مني المعنى، سبعُ سنابلَ، أخرجنَ يوسُف مِن السِّجن،

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، المدُّ ها هُنا، كَلِميٌّ مُثقَّل، لا طاقَة لعبدٍ بِرَدِّه، فقل: أنت القاهِر، وقهرك قدرة، فبقُدرتك أشعِل ما انطفأ من آمالي المنهكة.

سبحانه! لعلَّه فَرشَ الطَّريق لحاجتكَ بَيدرًا، وأنت لا ترى، فَزمِّل خوفك، وَثِقْ أنَّ الله هَيَّأ لك ضِرعًا مُمطرًا.

يَا بُنيَّ، إذا أحبَّ الله عبدًا ابتلاه، فإنْ صبر اجتباه، وإنْ رضي اصطفاه، وإن سَخط نفَاه وأقصَاه، تلك مَشيئته، لا تَجتمعُ عبوديةٌ واختيار، فإمَّا هو لك، أو أنتَ لنفسك.

قال التلميذ: يا رب، حمَل القلب ما لا يحملُ البَدن، مُتعَب قلبي مِن أسفارٍ تُبقيه في أوَّل المضمار، فلا وصَلَ ولا بَلَغ، مُتعَبٌ أنا مِن هذا السَّراب.

قال الشَّيخ: هو القاهِرُ فوق عبادِه، وقهره حِكمة، أحوالٌ إنْ شابها التَّنغيص، فلا تحس أنَّ الثَّبات على الطريق رخيص، يُمهلُ فيُظهر الفَضل، فإذا أخَذَ رأيت العدلَ، فخَفْ سَطْوَةَ الْعَدْلِ، وَارْجُ كرامة الْفَضْلِ.

تبتَّل إليه وقل: أنت القاهر، عليكَ بمن أهدى أعيُني دمُوعَها. وإنْ كَان القلب في عَين العناية، فلا خوفٌ ولا نَصَب، قل: إنَّا إلى الله، تنهيدة يستريحُ بها مَن دانوا ومَن جَحدوا.

قال التلميذ: سبحانه ما أجلَّه! يا سيدي، ما عبودية الاسم؟

قال الشَّيخ: إنَّ الله لا يُطالِب خَلقه بما قضَى عليهم وقَدَّره، ولكنَّه يُطالبهم من حيثُ نَهى وأمَر، فطالِب نفسَك مِن حيث يطالبك ربُّك، تَنجُ، وإياك أن تكون

الأنين في بكاءِ عبد مَقهور، ثم افهم عني هذا المعنى: سبحانه هو القهار، ومَن دخل بأثوابِ الافتقار نالته عَطايا القهار، ومَن لم يكن الله تعالى في هِمَّته، كان مَنقوصًا مِن الله في حظِّه.

قال التلميذ: اللهم ثبتنا باليقين بأسمائك.

قال الشَّيخ: يا بُنيَّ، إنْ شاؤوا عُمرك عاقِرًا، راغمْ ولا تُغادِر، هو القَهَّار والقاهِر، والقادِر أنْ يبدأ النِّهاية، وعِند الله المزيد.

سبحانه! مَن ذهَب إليه امتَلأ، ومَن دنَا إليه عَلا.

هي الأحداثُ جَزرٌ ومَدٌّ، فكُن أنتَ أنتَ قبلُ وبَعد. هو القهارُ والقاهرُ، وما خُبئ في الضمائر ستكشِفه المصَائر.

يا بُنيَّ، هو القهارُ والقاهرُ، وقهره قدرة وغلبة وتدبير، ووالله «لو يعلمُ الخَلْقُ مَا للهِ مِن كَرمٍ لأفنَوا العُمرَ في أفضالِهِ طَلَبا».

تودد إليه، حتى إذا بَدا منه القَبول، فانتظِر منه النَّوال، وعند الله ما تراه ولا تَراه، فلا تُغلق على بُعدك بابه.

الوهاب

قال الشَّيخ: إذا قال ربُّ الكون: ﴿كُن﴾، قال المحال له: نعَم.

وَ(مَن يُمسك بابَ مفتاح الله، يَغنم)! هو الوَهَّاب، يهَبُ ما يشاءُ لمن يشاء، ولولا أسماء الله ما سَكنت الحَوائج في أنَّاتِها.

اسمٌ؛ هو عيد العُمر، فكيفَ إنْ اتَّفقت له أوقات السحر؟! فافتَح ليلتك بالوهَّاب، ثمَّ أغلِق أبوابَ الهُموم خَلفك، فما الأسماء الحسنى إلا رُبوع العافية. سَلْ واهِب الأفراح حتى يمنحك، وتعلَّم كيف تَغنم. اخلَع على رَجفة الظنِّ شُحَّ الأسباب، وابلُغ صِفة قلوب الأنبياء إذ قال: ﴿رب هَبْ لي مِن لَدُنك ذُرِيَّة﴾، وما كَان بين يديه في سؤله إلا نيَّة ﴿يَرثني ويَرثُ من آلِ يَعقوب﴾ العِلم والنُّبوة! فقال المولى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾، فتأمَّل؛ كيف سبَق الوَهْب السبب، وردَّ الوهَّاب له أمَلًا عن ساحل العين رَحَل! نَبيٌّ، رغمَ أفول العُمر، كان قلبه ينبضُ بمظنَّة الإجابة، فلا تَمنعكَ الأسباب، فإنَّ عطايا الله تعرف الطريق إليك، وعلى قَدر خَلع الحَول يكون التَّأييد.

الوهَّاب، يريكَ من طَرفٍ خَفيٍّ زوال المستحيلات، ودنوَّ المأمولات، فارفع قَدرَك بما تسأل، واسبق في الدُعاء سبقًا بعيدًا، وتعَلَّم، ﴿وهَبْ لي مُلكًا لا يَنبغي لأحَدٍ من بَعدي﴾، فإن من إجلال الله، استعلاء الدعاء عَن الأسباب.

نبي أراد الخيل لربه، فوُهب الملك! ومَن كان في الله تَلفه، فعلى الله خَلَفه، ومن انشغَل بمُراد الله، شَغل اللهُ الخَلق بمُراده، ﴿فسخَّرنا لَه﴾!

يَا ولَدي، إنما تَهابك الدنيا إذا تعلَّق قلبك بالآخرة.

قال تلميذ: نَبيٌّ بلغ بنيته!

قال الشَّيخ: ترى حتى متَى العُمر فارغٌ من نيَّات الأنبياء، ومن عَزمٍ تَسامَى عَن الحُطام؟ إنَّ الهِمة مَوضع الهِبة، وأبَى الله أنْ يجعلَ الذَّخائر لمن همَّته عاكفةٌ على سواه، ومَن صدقَ الله، صدقَ الله له تَحقيق الآمال.

يا ولدي، إنَّما ينفردُ خُصوص العَطاءِ لأهل اليَقين، وما أقرَب المواهب من قلبٍ تمكَّنت فيه غُربة المطالب!

قُل: يا وهَّاب، ارزُقنا إجابةً تتلوها إجابة، يَا وهَّاب، هبْنا فَرجًا يليه فَرج، يَا وهَّاب، أنتَ مِلءُ قلبي، فاطْوِ عنِّي كُل هَمي.

سُبحانه! يهَبُ ﴿مُلكًا﴾، و﴿رحمةً﴾، و﴿ذُرية﴾، و﴿قُرَّة أعين﴾! فقُل: يَا رب، ارزُقني الصَالحات الباقيات، ولا تَذرني يوَم القيامة فَردًا.

قال تلميذ: رُكْنُ الأسباب مُنهَدِم، والدُّجى في عَتمته يتَّسِع!

قال الشَّيخ: حسبُك إنْ ضاقَت بك قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾. استَكثروا، فالله أكثَر، (وفي الغَيب للعَبد لطائف ليس يَعلمها، بها جفَّت الأقلامُ وانطوَت الصُّحُف).

قال تلميذ: وعندك يا مولاي غيْمٌ مثقَلٌ، وإنِّي لأرضٌ للرَّواء تَسألُ!

قال الشَّيخ: سَلامٌ على مَن يرتقب الفَرج، سَلامٌ على مَن زرعوا الليل دموعًا وحنينًا، سَلامٌ على مَن التحفوا بالدعاءِ فقرَّت أعينهم بما أذاقَهم الله، سَلامٌ على مَن ألقَوا أحمالَهم على أبواب المحاريب؛ رضًا وَيقينًا.

الدعاءِ على الثِّقة لا يدخله الفُتور، فإلى الوهَّاب وجَّهنا الأَكُف، إلى الوهَّاب وجَّهنا السؤال، خَفِّف عنَّا يا رب حَرَّ الدُّروب ببرد اليَقين، ازدَحمنَا بالهمُوم، وعلى بابك يا وهَّاب يتَّسع الفَرج، اللهم واجعَل أنفاسنا وَقْفًا عليك.

يَا ولَدي، اشتَغِلْ به في الحَياة، يَكفِكَ ما بعدَ الممات، واعلَم أنَّك لن ترى الهِبات حتى تقطع كُل مَفاوز العَتمات.

تعلَّم المعنى من نَبيِّ الله سُليمان: (اغفر لي، وهب لي)، فقُل: يا وهَّاب، هَب لي عينًا ترَ الذَنب هَلاكًا.

واحذَر الوهاب العزيز، فإنَّ الله يغارُ على حُرماته، وإنَّ العبدَ ليخلو بمعصية الله تعالى، فيُلقي الله بُغضَه في قلوب المؤمنين من حيث لا يَشعُر، ويسلُبه مَا وهَب.

قال التلميذ: (وحَولَ اسمِك يا وهَّاب، سبْعًا خافقي طَاف)! يا سيدي، مَن الموهوب؟

فقال الشيخ: هو الذي إذا توقَّفت أنفاسه لم تتوقف حَسناته، وكَم في بعض الأعمار من مَواهب المنَّة!

يَا حَسرة السباق إذا بُعثِر ما في القبور، وركب الأبرارُ نجائب الأعمال، واستبقوا على الله الدخول، وليسَ بعد الآخرة دارٌ يُدرِك فيها الخُدَّام خدمةَ مولاهم، ولا يسبق مقصِّرٌ مجتهدًا أبَدًا!

قال التلميذ: اللهُمَّ افسح لنا مكانًا في الصافِّين قلوبهم على أعتابك، ليسَ لقلوبهم نبضٌ إلا أنت.

قال الشَّيخ: حسبك بأنَّ الله يسمعُ والإجابةُ دانية، وكلَّما زادَ الأدَب في الدُّعاء، أوشكت الإجابةُ أن تقَع، فقل: اللهم سلِّم قلوبنا من عثرات اليقين، حتى تَستقيم لنا الإجابة.

ادخُل صلاتك وقُل: اللهُمَّ دَربًا لا تضيقُ به الحياة، وقلبًا لا يزول منهُ الأمَل.

تهيؤوا للمجالسة، وليتذكَّر الداعي حلاوةَ التسليم، فإن المراد في خَزائن الله موجود، وهنيئًا لِمَن (وهَبه اللهُ مِن جميل غيبِه ما لا يَحلُمُ به أملُه). ويا حَسْرةَ من قصَّرت همَّته عن الدعاءِ!

قال التلميذ: اللهُمَّ لم شَمل دَعواتي، (جنِّبنا طُول التَمنِّي، وحرمان الوصُول)، أعوذ بك من انتظارٍ يأكُل إيماني على صَمت.

قال الشَّيخ: تفقَّد كَدمات الطَّريق في قلبك، وقُل: على الله مَسحُ الوجَع.

على قَدر حُسن الظن يتسع العَطاء، وقَدَرُ الصُّخور أنها بالدعاء تَزول، لكن لَن تنال المنى في مَرقَدِك، فقُل: أنتَ الوهاب لكُلِّ سُؤلنا، اللهُمَّ بَلِّغْنا بعدَ المخاوف مَأمنَا.

يَا وهَّاب، بَلِّغ سُؤلنا ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ﴾.

الرزاق

رفعَ الشيخُ أَكُفًّا حانيةً، قال: تستفيقُ المنى النَّائية إذا قال العَبد: يا رزَّاق يا كَريم! تتَدلَّى الأفضالُ قابَ قوسين أو أدنَى إذا نادى القَلبُ: يا الله يا كَريم! كُل العُمر لا يكفي ارتواء مِن الرزَّاق الكريم! كَم فقير بلَحظةٍ منك أضْحى عَن جميع الورى له استغناء!

أيُّها المنطفئون بالشَّك، قسمًا بالله، ما ظنَّ أحدٌ بالله ظنًّا إلا أعطاه الله على ظنه، فلا تَتلعثم في دعائك، وقُل: يا كريم لك أتيت، أحملُ في يَدي قافلةً من الأمنيات، وأنتَ أكرمُ الأكرمين.

قُل: يا رزاق لك أتيت، عكَّازي يقيني، وأحلامٌ كادتْ تبلُغ آخِر الرَّمَق، وأنت الرزَّاق الكَريم.

قُل: يا الله لك أتيت، والفَقر يجثو على جَيبي، وقَلبي كلُّه قَلقٌ، يا مَن قال ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾.

قُل: يا رب لك أتيت، بلا زواجٍ، ولا مالٍ، ولا عملٍ، ولا سَعةٍ، فهل ترد يدي! هبني عطاءً يَزيحُ الغَيم عَن أُفقي، أنت الرزاق ذو القوة المتين.

تنهَّد الشيخ، ثُم قال: الليل زمنُ قوةِ المحراب، وما أوسَع العطَاء لأهل المناجاة!

تَداعى التلاميذُ للمُناجاة، فقدْ لامَست حوائجهم، وقال تلميذ: اللهمَّ إنك تَعلم أنَ جِرار الأحلام مَسكوبة، مكسورة العُنق!

نظَرَ الشيخ بعين المربّي، وقَال: أنصتوا يا حبَّات القلب، إنَّ الإنفاقَ يسوقُ الأرزاق، تصدَّق ولو بالقليل لحوائجك، ثمَّ اسأل الله؛ يا رزَّاق يا كَريم. استَنزل رحمةَ الله؛ بالبَذل، والبَذلُ أوسَع من صدقة اليَد! أقْرض الله قَرضًا حسَنًا ولو كان قليلًا؛ يُطْلق لك أمانيك! ابسُطْ يبسَطْ لك، وإنْ مَنعتَ مُنِعتْ!

قال تلميذ: والله يا سيدي إنِّي لأتصدَّق!

ردَّ الشيخ: لقَد قَال مَيمون بن مهران: إنِّي أتصَدَّق وأجدُ مالي يَزداد! فتَصدَّق صاحبه مثله ثُم جاءَه قائلًا: تصدَّقتُ فوجدتُ مالي يَنقُص! فقال: أنا أُعامله بيقين، وأنتَ تُجَرِّبه.

يا بُني، ﴿فما ظَنُّكم بربِّ العَالمين﴾، إنَّ (أحَبَّ مَا يُطاع الله به الثِّقة به).

اسمع جيدًا، أيقظ يقينك، ثم قفْ على باب الرَّجَا، واقرَع تُجَب، إنَّ الدُّعاء عَطاء!

يا بُني، الليل ميلادُ مقام، والدعاء ميلادُ الحُلم، وميلاد المستحيل، نعوذُ بالله مِن الفُتور في وقت الغَنائم!

تَمْتَمَ تلميذ فانتبَه له الشيخ فقال: كأنَّ في فَمك كلامًا؟

قال: يا سيدي، لا عملَ، فلا زواج، ودَمي صارَ شلَّالَ فِتنة!

قال الشَّيخ: سَيُلقي الرزَّاق في عُمرك نَدى الإجابة؛ لو رابطْت!

قال التلميذ: إنِّي مُرابطٌ على ما تقول، فَدُلَّني.

قال الشَّيخ: صادِق الذِّكْر بعدَ الفَجر حتى الشُّروق، فهو البدايات، ذاكَ زمنُ توزيع الأرزاق، فلا تَغفل عنه،

والزَمْ دُعاءِ الأسحار بـ: يا رزَّاق يا كَريم.

قُل له: هَاكَ قلبي عابدًا يرجو وصالك، بي ظمأُ الدُّنى، فهبْني يا الله مِن فيض عَطائك!

يا بُني، مَن يملكُ أنْ يَصِف قَداسة الأسماء، استنْطِقْ خَيرها، فلا أنتَ أنت، ولا الميلادُ لَه حَد!

خُذ نفْسَك نحو الرزَّاق، فَهُناك ما فَوق الأسباب، هُناك ما فوقَ المنتهى، هُناك الفقر يُنفى!

فإنْ وَسْوسَ لكَ الشيطانُ بالفَقر فقُل له: ﴿لنْ تستطيعَ مَعي صبرًا﴾!

ثمَّ أسندْ دُعاءك بالتقوى، فإنَّ مَن عامَل الله في أمرِه بالطاعة عامَله الله في سُؤله بالإعانة!

أمَا سمعتَ ﴿مَن يتّقِ اللهَ يَجعل له مَخرجًا ويرزُقه من حيثُ لا يَحتسب﴾؟!

التَّقوى مفتاحُ خَزائن الرزْق، وما تَبني الشهوات إلا جُدران الحرمان للعَبدِ، فهو أسيرها.

يَا بُني، يُصبحُ العمر أنفاسًا ملأى بالذُّنوب، وينسى أنَّ الذُّنوب (صَريرُ ريحٍ بها الآمال تُقتَلع)! فلا تلتفتْ للذَنب، كَي يَستوي لك الرِّزق. تُبَحُّ الحناجر وربي ولا يصلُ الدُّعَاء؛ إذا كان الصوت بالمعاصي خَليطًا.

ثمَّ الزمْ الدُعاءِ بـ: يا رزَّاق يا كَريم، صُب عَليَّ الخَير صبًّا صبًّا، ولا تجعلْ عَيشي كَدًّا كَدًّا!

ذاكَ دُعاءٌ تُمطِرَ الخَزائن به كأنها سُحُب، ذاكَ دعاءٌ مَا تَبتلَ به مُسلمٌ تَبَتلًا فتَرَكه الله مَخذولًا!

قل: يا رزَّاق يا كَريم. ردد الأسماء، وثق أن كُل اسمٍ يشعلُ لك مليون أُمنيةٍ وأُمنيةٍ، وترى الدُّروب تَركُض لك وأسبابها لو أعذْتَ الحنايا من الشَّك، ورابَطْت على اليَقين بالرزَّاق. يا ولَدي، إنَّ الله لا يرتضي صوتًا به وهَن!

قال تلميذ: سُبحانه في تَدبيره! ما حِكمةُ الفَقر؟

قال الشَّيخ: لو شَاءِ الله لجَعلكم أغنياءَ لا فقيرَ فيكم، ولو شَاءِ الله لجَعلكم فُقراء لا غَنِيَّ فيكم، ولكن ابتَلى بَعضكم ببعضٍ لينظُر كيفَ تعملون.

كانَ الرجل لَيقتصد بِنفقَته حتى يأكل من برِّه المائة والمائتين، واليَوم يتَّسع لنفسه حتى لا يَكفيه ما يكفي المائة والمائتين. وكانَ أحدهم يقول: إنِّي لأستحي أنْ ألقى الله وفي ميزاني نِصف رغيف، وأنا أقدِرُ أن أتصَدَّق برغيف.

وها هو ذا «أُوَيس» يُسمَعُ في مُناجاته يقول: اللهُم إنِّي أعتذرُ لك من كُل كَبدٍ جَائعة! نحنُ نرتجفُ قَلقًا على أموالنا، ونَنسى أنَّ الصَدقَة ودائع الله، وَودائع الله لا تَضيع!

أنفق ثم اسندْ سُؤلك للرزَّاق الكَريم، وقُل: وعلى الله كُل الأحوال المبعثرة، اجعَلْ لنا يا كريم عندَك الزيادة، ارزُقنا الحُسنى وزيادة، اللهمَّ يا رزاق حوِّلنا مِن النقص إلى الزِّيادة.

الفتاح

قال الشَّيخ: هو الفتَّاح وليس الفاتح، فَبِربك، ماذا بقيَ من الأقفال إن قُلت يا فَتاح؟!

اتلُ على ما أغلق فواتح الفتح، عسى البابُ بعد البابِ يُفتح!

يا بني، سيفتحُ اللهُ بابًا كنتَ تحسبهُ، من شدَّة اليأسِ لم يُخلق بمفتاحٍ!

كَرِّر الاسم، تبلُغ، والزَم الباب ولا ترفع السُّؤال لسواه، فإنَّ الله يعلو ولا يُعلى عليه، (والدعوةُ المجابة وربي؛ فتحٌ بعد الفَتح)!

يا بني، والله إنَّ الفَتْحَ بالأسماء فَتْحٌ ثانٍ، فقل: اللهُمَّ يا فتَّاح، هبْنا الاكتفاء بك.

وتيقن، فإن كل متيقنٍ آتٍ. يا بني، هذه الأسماء الحسنى، تنهالُ عليك من قصور الغيب، تُلَيِّنُ لك الحديد، وتُرفع لك ألف أُمنيةٍ، فلا اليأس يغشاها!

سبحانه، غَرس الله لك الإجابة في تربة الأسحار، فيا مَن كَان الحزن موطنه والآه منزله، لا تنامنَّ وقت السَّحر، ووَالله، لو أدركَ العباد ما في السَّحر لقالوا: بالله بالله قف يا سحَر!

الزم السحر وادعُ الله وأنت ممتلئ بالفتَّاح، وقُل: يا فتاح يا عليم، افتَح لي خزائن رَحمتك بيدك الكَريمة.

ثمَّ انظر ماذا سكَن قلبك من الهِبات!

تصاعَد عَزف كلمات الشيخ في أرواح التلاميذ، فلا تَسمع في المجلسِ إلا: آمين.

قال تلميذ يعلوه القلق: ما حيلةُ العبد إن شفَّ القلب مُنكشفًا عن انهيارِ حُلُمٍ كان يَغزله؟

قال الشَّيخ: امْدُدْ كَفَّ الدُّعاء لله، وابسُطها، ما دام للفتاح خزائن، بالدُّعاء نبلغها، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾. يَا ولَدي، لا تَهْدرُ الأوجاعُ إلا عُمْر مَن فقَد الدعاء!

قال التلميذ: يكَاد التِّيه يقتلني، قَد شرَّدَتنا دروب الظلم يا رب!

قال الشَّيخ: تعلق بأسمائه؛ يَكفكَ مؤونَة نفسك، وكُل اسمٍ له لونٌ من الفرح! فاقطف ما شئت بالأسماء،

قُل: اللهُمَّ إنَّا نسألك خفايا لُطفك، وفواتح تَوفيقك، ذَلِّل السُّبُل لحوائجنا وهوِّنها، وقَرِّب الطُّرق إليها!

هو الفتاح و﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

يا بني، جَوِّد الاستعانة بالدعاء؛ بالأسماء الحسنى، قُل: يَا فتاح، افتح لي خَزائن الرزق، وصُبَّ عليَّ منها صبًّا صبًّا!

هو القائل ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾، فقل: يَا فتاح، افتَح لي خَزائن البَركة فتحًا لا تُدركه الأسباب.

إن الله وهبك الأسماء الحسنى، فأخرِج كُل الدعاء الذي في المخابئ!

يَا ولدي، ألفُ حاشَا أن يَرُدَّ الله في المحاريب دعواتها، قل له: ثقيلة أمنياتنا وأنتَ لا يُعجزك شَيء.

توهَّجت الأعين بالدموع لكلمات الشيخ، فتلا الشيخ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾.

كان للدُّعاء الليلة معنى آخر، وكان في القَلب ترتيلٌ بعُمق الشَّغَف! فنظَر الشيخ إلينا ثُمَّ قال: فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ.

يا أبنائي، مَن فُتح عليه في الإحسان فيما مضَى، فُتح عليه في الإحسان فيما بقيَ، ومن مَات قبل الوصول فنَيَّته تسلك به! فقُل: يَا فتاح، افتَح لي بابَ العِصمة!

يَا ولدي، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، فقُل: اللهُمَّ يا فتاح، افتح لنا في التقوى؛ وقايةً وكفايَة.

قال تلميذ: الله الله ما أعمَق المعنى!

يَا أبنائي، مَن لَهج بسؤالِ الثبَات، عُصِمَ مهما كَان الامتحان، وبين الخَزائن والدعاء بالفتاح؛ سرٌّ لا يدري به مَن كان غارقًا في ذنبه، فاحذَروا الذَّنب، (فَرُبَّ جراحة قتَلَت، ورُبَّ عثرةٍ أهلكَت، وُربَّ فارطٍ لا يستَدرك)!

قُل لله: اللهُمَّ يا فتَّاح، افتح علينا (بيقظةٍ؛ تُرينا العَواقب، وتكشف لنا الفَضائل والمعايب)، قبل أن ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾.

فتيقظ ولا تغترَ، إذْ رُبما (توالت ألطَاف، ونَسيَ العبد الاستدراج الذي في الأعطاف)!

يَا ولدي، أعظَم العقوبة ألا يدري العبدُ بالعقوبَة! فاعقِل عَنِّي: إنَّ للفواتح عوائق، تمنعُ إقبالها، فإيَّاك أنْ تكون ذُنوبك للفَتح مِغلاقًا! وأبعَدُ البُعَداء مَن كان بعيدًا في زمَن القُرب! فاسأله وقل: يَا فتَّاح، هبْنا مقام ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾. افتَح لنا في حُبِّك، حتى إذا سَأل الملكان في القبر، أجابَ القلبُ بالذي فيه يَنبض.

يَا بُنَي، اركُض بقلبك؛ هذا الباب ريان!

ليالِي الدعاء بالخير، مَعقُودٌ في نواصيها السر، ليالٍ، لا ضِفاف لأجرها، فَيا شكوى القلوب على بساط لياليها!

يا بني، ليالي الدعاء، تكتُب عُمرك حتى تغدو الشاهقات زواحف بجانبك، إنْ فَتحَ اللهُ لك فَتحًا مُبينًا!

قُل: يَا فتاح، افتَح لي بيدك ما أُغلِق علَيَّ.

أَلحوا دُعاءً، لتُمْطروا فَتْحًا.

قال تلميذ: اللهُمَّ افتح لي بابَ الصَّلاح.

قال الشَّيخ: أصلِح ما بينك وبينه في السرّ، يُصلِح لك أحوال العَلانية

تعلَّم من ابن الجَوزيِّ الدعاء: (نعوذُ به من خُذلان لا ينفع معَه اجتهاد)، إنَّك إذا أقبلتَ سَلِمْت، وإذا أعْرَضتَ أُسلِمت. نعُوذ بَك أن تسلِّمنا لسواك، سَلِّمنا ولا تُسَلِّمنا!

إنَّ لهذا الخير خَزائن، ولتلك الخزائن مفاتيح، فطُوبى لعبدٍ جعله الله -عزَّ وجلَّ- مفتاحًا للخير، مغلاقًا للشر!

قُل: يَا فتاح، ويَغدو الأمانُ أنفاس السَّير، والثقةُ بالعطاء انتظارُ الوقت.

(كَم من كائدٍ نصبَ لك المكايد فَوقاك، كَم من عدوٍّ حَطَّ منك بالذَّم فَرَقاك، كَم أعطشَ من شراب الأماني خَلقًا فَسقاك)!

اسمَعوا عني: اسْقِ قَلبك بغيثِ المدامع، وقُل: يَا فتاح. فإن للإقبال عليه فتحًا يليق بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، حتى يَهبك النِّعمة فتراها في طَيِّ المكروه سابغة، والله وحده أعلَم كيفَ يُزجي مِنحةً في طَيِّ مِحنة، ولرُبما أجلى لك المكروه عما يُحمَد!

قل: يَا فتَّاح، يأتِكَ الخيرُ مَعقُودًا بنواصي الدُّعاء، وقَد أفلحَ من ألَحَّ في الفتح!

العَليم

اسمٌ توهب به مراتب القدر، والعُمر به مِنَح، هو دَهشة الأجور، ومنه كُتِب للعلماءِ مُتون القَبول.

قَد قالها ابن حنبل: إنَّما يُعطي العَليم من خَزائن العِلم؛ مَن أحبه.

سبحانه عَليمٌ؛ يُحب العُلماء، فكَان دُعاءِ السَّلف في قُنوت الصُّبح: اللهُمَّ لا تُعقنا عَن العلم بعائق، ولا تمنعنا عنه بمانِع.

ويا عليم، لُمَّ شتَات قُلوبنا على علمٍ نافع ننجو به.

قال تلميذ: سُبحان مَن وصَف نفسه بكلِّ مَراتب العِلم.

قال الشَّيخ: بلَغ ابنُ الجَوزيُّ السِّتِّين فقال: (ما بلغتُ ما أملت، فَسألت الله تَطويل عُمري في العِلم، فإنَّما أطلُب من القادر على تجاوز العادات). فبلَغ تسعةً وثمانين عامًا، كانت خلوته فيها علمًا، وتَسبيحه تأليفًا!

يَطوف ابنُ المقرئ المشرق والمغرب أربَع مرَّات طلبًا للعلم، تنتعلُ البشرية خَطوته معرفةً، ومِن شُقوق قدَميه يَنبُت لنا علمًا. وهو يقول: (ما أوثر على ثوابِ طَلب العلم شيئًا، ومَن بانَ له عِظَم المطلوب؛ بَذل له كُل مَرغوب).

يَا ولدي، العلمُ لا يعدُله عند الله شيء، لمن صحَّت له النِيَّة.

يأخُذ ابنُ إسحاق عِلمه عن ألفٍ وسبعمائةِ شيخٍ فما يكِل، أولئك هم العلماء، أولئك هم الصَّاعدون إلى الفردوس؛ ما مَلُّوا ولا تَعِبوا، يبلُغ أحدهم

الثَّمانين وما زالت يَده مَغموسة في حِبر الكتابة، ويَحمل الواحد كُتبه فتَبلُغ حِمل أربعين جمَلًا. كان ذلك علمهم وكان ذاك معنى (الراسخون في العلم)، أولئك قَومٌ لا تغتالُ الشُّبهات إيمانهم، وليس ثمَّة شَكٌّ على الإيمان المسقي بالعلم يجترأ!

سَار الخطيبُ بمجلداته على ظهره من إيران إلى حَلب، حتى امتلأتْ بالعَرَق، وكُتُبه في مخطوطات بغداد ما زال أثَر العَرق فيها، لا شِبر في جسده إلا فوقه أثر، ذاك العَرق؛ قطَراتٌ يُحبها الله.

ويُقيم البزَّاز في الحَبس والأغْلال في يده، فيتعلَّم لغة الروم، يَلُفُّ وجَعه على كَدرٍ ويأبى الاستسلام، فقَد آمَن أنَّ القُرب لله العليم بالعِلم.

كَان أحدهم يحرص على التكلُّم في العلم في احتضاره، فتلك في يقينه هي شهادة الحُب! تلك أعمارٌ ما نالها الصَّدأ، سقطتْ أصابعهم في بَردِ الكتابة، فاحتسبوها شهادة الأعضاء.

ويوم القيامة، يوزن مداد العلماء بدماء الشُّهداء، وينادى عليهم ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ من نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

يحصِّل الواحد منهم عُلوم الشريعة وما بلغَ سبعةَ عشر عامًا! شَبابٌ لا يعتزلون العَزيمة بسبب مشقَّة الطَّريق!

سبحانه عليم يجزي العلماء ومَن أدَّى له حَقَّ العلم؛ فُتح له من أبواب الفَهم ما لا يُفتح لغيره.

قال التلميذ: وَما حَقُّ العلم؟

قال الشَّيخ: الزُّهد في موائد الحُكَّام، فإنَّ اللقمة من موائدهم قَد تكون بدينِ الرَّجُل، ولو صدق لنال الوعد ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

يا أبنائي، أتَدرون مَن العالم؟ العالم مَن كَان لسانه من وراء قلبه، يخشى الفَتوى، لأنَّها توقيعٌ عَن الله! وعلى ضِفاف القيامة، يتصَدَّع الذين تألَّوا على الله ووقعوا كذبًا! و﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

قال تلميذ: يَا سيدي، نحنُ اليَوم بيَن عُلماءِ الحُكام، أو جَهل العَوام!

قال الشَّيخ: صدقت و(لا يُروّج الباطل إلا في الأزمان والأمكنة الخالية من العِلم)، لذا احذروا العابد الجاهل، والعالم الفاسق، فإنَّ فيهما فتنةً لكُلِّ مَفتون.

يا بني، العلماء ورثةُ الأنبياء، وَالعَالم عِندَ العَوامِ اليوم مَنْ صَعِدَ المنْبَر، أو اعتلى قناةً فضائية!

قال التلميذ: يَا غُربة الدين اليوم!

قال الشَّيخ: الدُّنو من الجاهلين فتنة. الجاهل يتوهَّم العلم، وما هو إلا ضَرير لا يَرى! ولا يُسمَّى العالم عالمِا حتى يعلمَ ما تكون به النَّجاة، وبعض عُلماءِ اليوم صاروا للأُمة مَهلكة!

قال التلميذ: كيف يُنال العلم؟

قال الشَّيخ: لا يُنال العلمُ إلا بالصّدق في النيَّات، وإذا عَمِل العالم بالعلم؛ استوتْ له قُلوب الخَلق.

يا بني، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾.

يَكتُب العالم منهم مائة وثلاثين مُصنَّفًا، تظلُّ الأمَّة تقتاتُ عليها، وليس في بيته إلا ثوبٌ خَلقٌ من تعففه.

وجَاع الجيلاني حتى صافَح الموت فما جزع، فقد كان يَرى نفسه يُزاحِم على ميراثِ النُّبوة.

عُلماء أوقَدوا البَصيرة للأُمَّة، فما فُتِنوا ولا زَاغوا.

يَا أبنائي، تأتي فتَنٌ على الأُمةِ لا يُنجيهم منها إلا العِلم، فِتَنٌ في أمواجها تُمحى بها ملاَمح الحَلال والحَرام، وتُبَدَّل الأفكار تَبديلًا. و﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

يا أبنائي، مَا اشتَدَّ العبَثُ فينا إلا حينَ غَابت فَريضةُ العِلم، وعَبدنا اللهَ بحياةٍ لا عِلمَ فيها، وغاب عنا أن الله عَليمٌ يُحب العُلماء.

القابض الباسط

مِن هَاهُنا ابتدأَ المقام، هُنا البداية وهُنا الختام!

اسمٌ، مَن عكف به في أسحارِ القُرب، تعرَّض لسَعة الوَهب!

القابضُ الباسِط، يَعبر بك مِن الضِّيق فتتَّسِع، ومِن الجَفاف فتُزهر!

سبحانه، يقبضُ بالعدل، وَيبسُط بالفضل، يقبضُ حتى لا طاقة، ويبسُط حتى لا فاقَة، وإذا بسطَ كان أقل ما أعطى كثيرًا، ويخفُّ ما كان محمله ثقيلًا، وترى العطايا بُكرة وأصيلًا، يُضنيك الدَّمع وما طَواه، فإذا بسَط رتَّلَت الأسباب: آمِينا! يغشى الخُطى ارتباكها، فإذا بسَط استوت المراكب على الجوديِّ! تضيق، فإذا استعنت بالله فاض لك البسط!

لا تسأله بصوتٍ يائس، قُل له: يا من قال ﴿وَيَقْدِرُ﴾، أخرِجني مِن لاء العَدم إلى دَيمومة النِّعم، وما كان بعيدًا هناك، اجعله هنا.

إذا بسطَ كفَّه، رأيت الفضل مُلقى على الفضل، وصارت النِّقم أنعُمًا، حينها ما ضَر الحوائج لو نأت عنها الأسباب!

سُبحانه، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ، إذا بسطَ أعطاك مُبتدرًا قبل السؤال نوالَ ما لم يخطُر في البال!

ابسُط لله كفَّك، فيَداه مبسوطتان، وقُل: يا باسِط اليدين بالعطايا، ابسُط لنا طريق الفرج.

سبحانه، إن بسَط طوّع لك الأحلام لينًا وتمكينًا، فقُل: يا مَن لك مقاليدُ السَّماوات والأرض تبسُط الرِّزق لمن تشاء وَتقْدِر، ابسُط لنا من الرِّزق ما توصلنا به إلى رحمتك.

سبحانه، إنْ قبض نعمةً، كان أقربها منك أبعَدها، ولربَّما تمشي أطولَ الطريق ولا تلقى العناوينَ، ولربَّما جادَ السَّحاب، ثمَّ رأيت أرضَك لا تورِق، ولربَّما يمَّمتَ، فإذا المدائن منفى من منافينا، وإذا قبَض رأيت زورقك حائِرًا بلا مِينا، حينها لك من الريح مجراها ولله مراسيها!

يا بُني، نارُ القبض حَرُّها حَرٌّ يسرُج الوجعا!

قال تلميذ: يا سيدي، ما حكمة القَبض؟

قال الشَّيخ: يا بُني، في قبضهِ حكمة، وفي بَسطه رحمة، تنبسط المواهب لك فَتطغى، فيطويها عنك بالقَبض حتى ترقى! ربما أقبلتْ نعمة، وبِدينك أدبرتْ، فلا تسأله ما ليس لك به عِلم! فهو القابض الباسِط، وما يُعرَف البَسط إلا بِقَبض، وقد يسبقُ القبض ظُلْمٌ مِن العبد، إذ مَن أنكر ما يجد، حُرِمَ بركة ما وجَد، فاشكُر ما بسط لك من نِعَم عسَاك لا تفقدها، وإذا انزاحَت الحُجب، انصبَّت عليك القُرب.

يا بُني، إنَّ الله يبسُط يده بالليل ليتوب مُسيءِ النَّهار، ويبسُط يده بالنهار ليتوب مسيءِ الليل، وإذَا بَسَطَ الْجَلِيلُ في القيامة بِسَاطَ الْفضل، دَخلَت ذُنُوبُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي حَاشِيَةٍ مِنْ حَوَاشِيهِ، فاستغفِر يُبسَط لك.

قال التلميذ: اللهمَّ عَفوك، اللهمَّ اجعلنا في كرامة ﴿سبَقت لهم مِنَّا الحُسنى﴾، ولا تجعلنا في خُذلان ﴿غلبتْ علينا شَقوتنا﴾.

قال الشَّيخ: إذا أردته أرادك، وإذا اتَّسعت النيَّة انبسط المدد، ومن في الطريق سلك، فبالتأييد مَلك، ومن ثبتَ اتَّسع. هو الباسطُ لمن لم يَطفوا مع الزّبَد، لمن رَفعوا سبَّابة الثَّبات للأبد، لمن في أعالي النُّور ما مسَّ بصيرتهم رمَد! يا بُني، لا يكن سَعيك في اللواحق، وقد كنت قادرًا أن تكون في السوابق.

قال التلميذ: سَبقْنا القوم على خيلٍ دُهْم!

فقال الشيخ: إن كنتَ على طريقهم، فما أسرع اللحاق بهم، وكم مِن عَرجاء سبقت! ضعْ دَلوك بين الدِّلاء، وقُل: يا واهب الفضل لولا العَون لم نَصِل، لا تحرمني فَيض عطائك، ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردنَاه أن نقولَ له كُن فيكون﴾!

قال التلميذ: آمين آمين، لا أرضَى بواحدةٍ بَل ألف آمين في ألفَي آمين!

يا رب، أمْري في قبضة التدبير تقبضه وتبسطه، لك التَّصرف في الفعل وفاعله، أصلِحني يا شافي مِن العِلل.

قال الشَّيخ: قُل: اللهمَّ عافية إلى الأبد مَع دَوام المدد.

يا بُنيّ، اسأله ما عنده بأسمائه، عنده لا كيفَ ولا أنَّى، قُل لَه: لو لمْ تشَأ العطَاء، ما أطلقتَ في لساني المقال، لو لم تُرِد لي القَبول، ما علَّمتني السؤال! يا بُنَي، أيامٌ تبدو مِثل القَبض، فإن استعنت بالله فاض لك البَسط، يقبض ويبسط

في الأرزاق، فقل: يا باسط اليدين بالعطايا، حبَسَتنا الهُموم، فأطلِق أنت سَراحنا، ولا تجعلْ لها عَلينا سَبيلًا.

قال التلميذ: ألوذ بك إنْ طالت عَتمة الانتظار، وارتهن القلب للحُلم، وظَنَّ أنَّه صارَ نسيًا منسيًّا في زحمة اليأس. ألوذ بِك إذا استندَ الدَّمع على الدَّمع، واتّقد الدُّعاء بأوجاعِ التَّعب، وصارَ آخِر الحُزن أوَّله. ألوذ بِك وأرتجِيك، فهل لهذا الليل مِن صُبح؟!

قال الشَّيخ: لا تشيخُ دعواتنا، لا تَبلى ولا تندثرُ، وسُقياها الإلحَاح. سُبحانَه، باسِطٌ يَده لك بالعَطايا، فإن قبض عنكَ جَزعت.

قال التلميذ: بَابُ الوصْل عنّي قَصِيًّا، وتأوُّه الصَّبر المقيَّد فِيَّ!

قال الشَّيخ: ردِّد ورائي: يا رب جِئناك حُفاة القُلوب، جِياع الفَرَج، حنانيكَ يكفينا ما مَرَّ بنا، جئتكُ طالبًا، فاجعلني واجِدًا. هو الباسِط، فإنْ أوجعَتك قُيود أُمنيةٍ قُل: يا باسِط أنتَ لها ولكلِّ قَيْدٍ أنَّ مِن القَبضِ.

الخافض الرافع

قال الشَّيخ: ﴿خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ﴾، مِفتاحُها السُّؤال، ومن اعتصمَ بالدعاء، حاشَا لله أن يَقع، ومَن لازَم الدعاء، استنارتْ له الأرجَاء!

قال تلميذٌ يُرفرف الوجَع على مُحيَّاه: يَا بدئي وخَاتمتي، لكَ سَرائر قَلبي، ما زالتْ مواعيدي تَنتظر، ودَمعي يائسٌ، وكفي مُفلِسة.

قال الشَّيخ: يَا بُني، في الكَفِّ المرفوعة فيضُ الدعاء، قُل: يَا رب، أدرِك همومنا بالفَرَج. قُل لَه: يَا رب، عبدٌ عاجزٌ، والقَهْر يتلظى في خَوافيه!

يَا بُني، مَا أعلى الآهَ دون الله، يا بني، كُلُّ آمالنا معلَّقةٌ، حتى يأتِي بها الله، ولا يَرفعُ الهَمَّ إلا الرافع الخافض، فقل: يَا رب، مَن كَان في خَفض النعيم فَارفَعه، ومَن سَعى، فلا تَجعل سُدًى أتعابه.

قال التلميذ: وحقك يَا رب، سُفني بذنوبي مَثقوبة، ويَهبطُ بي مَوجُ الهَوى، ويُغرقني.

قال الشَّيخ: يا بني، لا تزالُ بنا أمواجُ المجاهدة ترفَعنا وَتُخفضنا، حتى نرسو على شاطئ الوُصول، لكن مَن خضعَ لله ارتَفع، ومَن لازَم السير عَلا، والله يرفع من يشاء، يرفع من صوب الخطى.

يا بُني، هل رأيتَ مِنْ أعرج في دَرجِ المعالي عرَجَ؟! ومَن لازمَه القَيدُ كبَا!

قُل لنفْسك: يَا مُقيَّدًا عَن السَّير بقيود الشواغل، أيطمعُ فِي لَحَاقِ الطَّير مَقصوص القوادم!

وَقُل: يا رب، دُلَّني على مَواطن الأجر، واجعلني فيها سبَّاقًا. يَا بُني، إِنْ صَدقتَ فِي طِلابهم، فانهضْ وبادِر، وَلَا تَستصعب طريقهم، فالله الرافع قَادر، ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾، فتعرَّض لمن أَعْطَاهُم وسَلْ، فمَولاك مَوْلَاهُم. فإذا رأيتَ الصَّالحين فَقُل: اللهُمَّ اجعلْ لي فيهم نَصيبًا، ولا تجعلني فيهم غَريبًا، وارزقني مقام ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾.

اقتَربَ تلميذٌ، وقال: بالله عليك، أخبِرنا كيفَ يرتفعُ مِن هذه الدنيا شُهداؤها، ويهْوي فجأةً مَن كان في جَوْزائها؟!

قال الشَّيخ: تلك البواطنُ، وهذه نَكباتها، فاسألهُ أنْ يُعافيكَ مِن خَلوة الخَطيئة، ونُقصان الخَبيئة. اللهم أنت الرافع، خُذنا من شأنٍ به الذنبُ طفى إلى شأنٍ رفيع.

يا بني، إذا أردتَ أن ترقى، فَعليكَ بالتَّقوى. يَا بُني، تَرى عبادًا عَلَوا في نُعوشِهم، وآخرينَ سقَطوا مِن عروشهم، أولئكَ حمَلوا للهِ ما لا يُطاق، فرَفعهم طباقًا فوق طباق، وبَعضهم يكَادُ يذرفُ عَجزًا خَطوه الواني. ومَن قَايضَ لفْح النار بالصَّبر يَصل، هو الرافع الخافض، يرفعُ عبادًا بعلمه، ويخفضُ عبادًا بِعلمه.

قال تلميذ: يا سيدي، كيفَ ينخلعُ فُلانٌ وقَد كَانَ وتَدًا، وَيُطوى فُلانٌ كأنَّه بَدَد؟!

قال الشَّيخ: يَا بُني، كَانوا زبَدًا، ما كَان لهم مِن الله مَدد، كانوا مثل الدُّنيا، أمد، وللأمَدِ انقِضاء.

فبَكى الجَمع كُلُّه!

قال تلميذ: اللهُمَّ ارفَعنا ولا تضَعنا.

قال الشَّيخ: هو الرافِعُ الخافض، وكُل مَنِ التمَس بمعصيةِ اللَهِ حَمدًا، عاد ذلك على ملْتمسِه ذَمًّا، ومَن طَلب بخلافِ الحَقِّ له مَوقعًا، عَاد مَا أدركَ مِن ذلك له مَوبقًا، حتى يهوي به الله في مكانٍ سحيق.

يَا بُنَي، هو الرافع الخافض، مَن خانَه في سرّه، هتكَ ستره في العَلانية، ووالله إنَّ الخلوات خافضةٌ رافعة، تُعلي وتُدني، فاحْذَر خَلوتك، فإنَّها سرُّ المحَن وسر المنح!

يَا أبنائي، سترْ الله مَسبولٌ علينا، وعينُ الله ناظرةٌ إلينا، وعليه لا تخفَى خافياتُ الدوافع. أفمَا تخشَى هَتك سترْك في عُقباك، وكَشفَ ما سلفَ مِن خَطاياك؟! يا بني، اللهُ مِن كمال إحسانه سَتَر المنهمكين، وعَفا على المتهتِّكين، فاحْذَر عقوبة الرَدِّ، فإنها أشَدُّ من عقوبة الأخذ.

قال تلميذ: سُبحانه لا يُخادَع!

قال الشَّيخ: إذا رفعكَ غَدَوْتَ مِلءِ العِزِّ مُنتصبًا، وإن خَفضَكَ، ضجَّت بكَ الدنيا وَما رَحمَت!

إذا رفعَك لَن تَشكو فَقرًا ولا سَغبًا، وإن خفَضك طوَاك وهتكَ عنكَ الحُجبا!

قال تلميذ: قَلبي يَرتَجف، يَا رب سَتْرك.

قال الشَّيخ: يَا بُني، حَيثما وقفَ قَلبك، كَان مَنزلك، فانظُر أينَ بلغَ سَيرك. إياكَ أنْ يمضي عُمرك بينَ (عسَى ولَما)، وغَيرُك أسبقُ منك سَهمًا! هو الرافع لمن شدَّ لله عَزْمه.

يَا بُنَي، قُل لنفسك: سَهِر العابدون فِي إِحْرَاز رغَائب الْعِبَادَة وأنت رَاقِد، ونهضَ العارفون إلى تشييد معاقِل السَّعَادَة وأنت قَاعد، فَلَا إلى مَا وصلوا إليه أنت وَاصل، وَلَا على مَا وَفدوا عَلَيْهِ أنت وَافد.

قال تلميذ: سبحانه هو الرافعُ الخَافض، كيفَ ارتفعوا عنا؟!

قال الشَّيخ: يَا بُنَي، أبعَدُ الناس مَرقًا في الجَبل، أشَدُّهم حذَرًا، فارفعْ قلبك عَن مجلسٍ رَفعْتَ عنه قدمَك. ومَن لازمَ السَّير تَمَّ بُنيان، وارتفَع غراسُه!

هو الخَافِض، لمن صَحِبته شَهوته، فنَكصتْ به، وهَوت به في ﴿جُرُفٍ هارٍ﴾.

وَقُل لِقلبك: إنْ أبيتَ فارتَع ما شئتَ في المحرَّمات، فإنَّ بها تُفنى أشجارُ التَّوفيق!

قال تلميذ: يا رب، أنتَ الرافعُ الخافض، آتٍ إليكَ، وريحُ الذنْب تَعصفُ بي. يَا رب، أنتَ الرافعُ الخافض، آتٍ إليكَ، وألفُ انكسارٍ يَهوي بي!

قال الشَّيخ: إذا أردتَ رِفعَته، فاجلِس على بِساط الذل تَبلُغه، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ، ووالله، مَن وقفَ دُون ما يَستحقه، رُفِع فَوق ما يَستحقه، ومَن تواضَع لله، رَفعه.

قال تلميذ: تعالَيت في عَليائك، كيفَ نَصلُ إليك؟

قال الشَّيخ: رُبَّ كَنزٍ وَقع بِهِ فَقير، وَرب فضلٍ فَازَ بِهِ صَغِير. عَلِم الخضر ما خَفِي على مُوسَى، وكشفَ لِسُلَيْمَان مَا غطى عَن دَاوُد! اللهُمَّ هَذي الدُّمُوع أنتَ رَائيها، نَعوذُ بِك مِن هَوى في القلب رسَى، حتى أثْقل خَطْوَنا. أنتَ الرَّافع، أيقِظ هِمَمَنا، وارفع مَراتبنا، أنتَ الرَّافع، فارفَعْ عنَّا مَا أصابَنا مِن واقعةٍ، ﴿ليسَ لها مِن دُون الله كاشِفة﴾. أنتَ الرَّافع، فارفَعْ الحُجُبَ عَن بَصائرنا، وارفَعنا عَن الشَّكِ إلى اليَقين، وارفَعنا إلى مَلكوتِ، (مَا لا عَينٌ رأتْ). أنتَ الخافض، فنَعُوذُ بك أنْ نَكونَ للشَيطانِ مَوطئًا. يَا رب، خُذ بِقلبي فقد عثر، وارفعني إلى حَيثُ (لا يَخطُرُ على قلبِ بشر).

المعز المذل

سبحانه يعطي بلا طلبٍ، يرزق بلا سببٍ، يبدي العجائبَ منْ تقريبِ ما بعُدا، فإن زادت الأيام تصرمًا زاد لك ترحمًا، ولكل محنة منتهى وانقضاء وإن بَعُدَ المدى، وإني لأرجو أن أيام المكاره قد انقضت والسود منها قد ابيضت.

يا بني، سنته في الشدائد أن يريك كمال قدرته في الرزق من حيث لا تحتسب، فقل: مَولاي، يدفعني لبابِكَ حسْنُ ظنِّي، يا مَن تُعطي بِلا مَنِّ.

اضْبط مواعيدك وَوقت مواقيتك مع الليل، فالليل مَتجَر القُرب، وكلَّما دَنوتَ استعجَلت إليك البشائِر، ولا يعرف السَّعي مَن أبطأ به الحَال! فاهجُر فِراشَك، فالفِراش أمامَك، وثَمن السِّيادة تَركُ الوِسادة، فاستَدرِك، وبغير التَّقوى لَن تَقوى!

هو المعِزُّ المذِلُّ، ونَفسٌ لم تَلقَ في البداية في سبيله الإذلال، لن تَلقَى في النهاية مِنه الإدلال، وكلَّما طالَ بين يدي الله ذُلُّ المثول، كان ذلك مِن حُسن القَبول.

هو المعِزُّ المذِلُّ، مَن عامله بأسمائه أعطاه مِن علياته. يَا رب أنت المعِزُّ، وهذي كافيةٌ كي نؤمنَ أنَّ المواهب دون وهبك فانية، تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ، فإذا المكارم بُكرةً وأصيلًا، وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ، فيجدُ أكثر ما يجد قليلًا، تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ، فإذا النعماء ما تريد رحيلًا، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، فإذا محمل الظَّهر ثقيلًا!

يُعِزُّ، فَيجرُّ لك الفرج من سَمٍّ ضَيِّق، ويذلُّ، فينقبض جناحك ولا تَسبِق..

تُعِزُّ، فإذا بالأرضِ خارطة الحُلم، و﴿الرِّيح عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾..

تُذلُّ، فَتبعثُ عِبادًا جاسوا خِلال الدِّيار، وسال الحزن بعدهم..

تُعِزُّ، فإذا الجِنُّ والإنْسُ ﴿يعمَلون له ما يشاء﴾! سُبحانَه، ثبَّت أطراف مُلكه بلا عونٍ ولا سند، فلمَّا زعزعَ، ما بقي منهم أحَد، فَقُل: أنتَ المعِزُّ وأنتَ المذِلُّ، فامدد يَا خير مَن مَدَّ لنا المدَد، دلَّت أسماؤه عليه!

سُبحانَه، منه السَّهم، وعليه الرَّمي، ومنه الإصابة، أمْرٌ بحرفين، وكَونٌ بحرفين، وشَيَّد سماء بِ ﴿كُن فيكون﴾! فَقُل: أنتَ المعِزُّ وأنتَ المذِلُّ، ترفع وتخفضُ ما تشاء ومَن تشاء بِ ﴿كُنْ﴾، الكبرياء رداؤك، والعِزُّ إزارك، فألبِسنا رداءَ العِزِّ منك.

قال التلميذ: اللهُمَّ هبْني عِزًّا مختومًا لا يُمحى من الخَتم.

قال الشَّيخ: مَن سار إليه بأسمائه، وصَل، فادخُل بالذل عليه.

يا بُني، تظَلُّ الصِّفة بصاحبها حتى تبلُغه، وكلَّما أخَذ العبد الاسم بالحُب، دنَا مِن مقام القُرب الأقرب، فَقُل:

يا شِفَاءِ الحَوائج مِن العَدم، رُدَّ أمَلًا مِن ميِّت الآمال، يا أمْنَ مَن كُنتَ أنت مَأواه!

قال التلميذ: سُبحانَه، يُذِلُّ من يشاء، فَتئِنُّ الحَوائج مِن اليُتم!

قال الشَّيخ: (ألم يجدك عائِلًا فأغنَى)؟ هُنا أسئلة الفَقر، ولَدى الله جَوابُ ما نَقص، فاسأَل نفْسك؛ كيفَ أخرَج هذا مِن هذا!

يا بُني، ما قبلَ الاقتدار افتِقَار، والله يوقِفك على ما كُنت، إذ كُل (كُنتَ)، تُريك ما لمْ (تَكنْهُ)، لولا ما (كَان) منه، تَرى الدَّرب مَسدودًا والسَّعي مَردودًا، وبعض العُقم ما له انفراج، فإذا أعَزَّ، هيَّأَ لك المعراج، فقالَ: ﴿سُبحان الذي أسْرى﴾!

يا بُني، أوَّل الفَهم أن تَقطع نَظرك عما سِواهُ وتقول: ما أنَا لولا ما أوْلاه!

قال التلميذ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيرٍ فَقِيرٌ﴾.

قال الشَّيخ: أتمِم انقطاع قلبك إليه، يُفاجئك بالنعم.

يا بُني، يَدُ الله تَملأ الغَيم فيضًا، لو كَان قلبك لها أرضًا.

قال التلميذ: فَهِّمنِي.

قال الشَّيخ: فتنة الذَّات، إيَّاكم وإيَّاها، ونَفسُ الكِبر سيماهَا، فاخْشَ عُقباها.

يا بُني، إنَّ قومًا يريدون أن يرتفعوا، فيأبَى الله إلا أنْ يَضعهم، ومَن طَمع في الشُّهرة قبلَ أن يُتمَّ أمره، يهلك في المهالك قبل أن يَصل هنالك! هو المعِزُّ وهو المذِلُّ، ومَن رأى نفسه كَثيرًا، لم يكن عند الله كبيرًا، تلك خاتمةٌ، أُخراها مِن أُولاها.

قال التلميذ: يا رب، بي ما تعلَم مِن السَّقم، فإن عفوتَ غدوتُ بريئًا مِن الإثم، أطمَع في نَيل ما لا أناله منك بالكَرم.

قال الشَّيخ: سبقَت نِعَمه قبل السُّؤال.

قال التلميذ: مَن يُرشِد القلب إذا مَا تَاها؟!

قال الشَّيخ: هو المعِزُّ وهو المذِلُّ، إذلاله تأديب، لكنَّه يُغيِّر ولا يُعيِّر، يَقبل ويُقبل، ويُقيل العَثرة، حاشَاهُ، يُغلِق وُرود الإنعامِ لوجود العِصيان!

قال التلميذ: نحن غرقَى، ودونك ليسَ لنا أن نبقَى.

قال الشَّيخ: سُبحانَه، وَهْبُه ابتداءٌ مِن غَير استحقاق، لكنَّه يُنقصك لِيُقبِلَ بِكَ عليه، فاسعَ بذلك إليه، يُعزُّك بين يديه، ومَن دخَل بالفَقر، خَرجَ بالغِنى.

قال التلميذ: (أدعُوكَ يا رب كَمْ أدعُوكَ، ودُنيايَ تُوغِلُ فِي التَّدنِّي، عَبدٌ أنَا، كَلُّ أنَا، مَاذا أنَا إنْ لمْ تُعِنِّي)! يا رب، فاشدُد هَواك بقلبي، يا رب، خالي الوفاض، خائِر القُوى، وعلى مِقدار كَفِّي أطلُب.

قال الشَّيخ: سُبحانَه، على سَعةِ يديه يُنفِق، يعوِّضك الكريمُ بألفِ ألفٍ، فوقَ الألفِ ألف، هو المعطي لكلِّ آتٍ، كمَا أعطَى كُلَّما فَات. ضَعْ جَبهتَك على عَتبة قُدرته، وقُل له: «كُل الذي يرجونَ فضلك أُمطِروا، حاشاكَ أن يَبقى هَشيمًا مَربعي». مَولايَ، اسْقِ (زيتَ عاشِقٍ مُتودِّدِ)، كلُّ عَبدٍ يُريد ما أراده مَولاه، فإنَّ الله سَيُعطيه ويُرضيه بما أَوْلاه.

النافع الضار

تدفق الشيخ في مجلسه كأنه بحر من حكمة السلف، فقال فيما قال: اقترِب، تتَّسِع، مَن تقرَّب إليه شِبرًا، تقرَّب إليه ذراعًا، وما بينَ ما مِنكَ وما منه، ما لا يُدركه الخَيال! والله بقولِه أصدق والقلبُ بوعده أوثق، فتودَّد إليه، يَفتح لك خزائن العَجائب، تَودَّد وقُل: يَا الله، أتيناك بالحُبِّ، فاطوِ عنَّا البُعد. هو الله النَّافِع الضَّار، طوبَى لِمن تعرَّفَ عليه بأسمائه، وتعرَّف عليه باختياراتِه. هو النافع الضار، شَاء تَدبيره ﴿فاقذِفيه في اليَمِّ﴾، ولُطفه في ﴿فَنجَّيناك مِن الغَمِّ﴾، وحِكمته في ﴿وكَان وراءَهم مَلِك﴾، وفي بواطِن الضِّيق يختبئ الفَرَج، فلا تقل ليت، ولا لو أني، بل قل يا مولاي، أعطني ما فات مني، بيدك النفع كله، سُبحانه، جعلَ المحن حبَائل المنح، ولربَّما أتت الفَوائد من وجوه الشَّدائِد، والمسار مِن وُجوه المضار، لأنه النافع الضار، ولربَّما كَمنت المنَن في المحن، والمحَن في المنَن، وربَّ خَيرٍ مِن شَرٍّ، ونَفعٍ مِن ضَررٍ، ولعلَّه جعل حظَّك في مَنعِك، وربَّما قيَّدك لِينقِذَك، ولربَّما جعل في طَيِّ حُزنك لحظةَ الجَذل، فَقُل: اللهُمَّ أنتَ النافِع الضَّار، إنَّا قِد عَجزنا عن دفعِ الضُّر عن أنفسنا من حيثُ نعلمُ بما نَعلم، فكيفَ لا نَعجز عن ذلك مِن حيثُ لا نعلمُ بما لا نَعلم؟! هو النافع الضار، وكم مَغبوطٍ في نعمة، هي شقاؤه، ومرحومٍ في داءٍ، هو شِفاؤُه!

يا بُني، تَرى الهُموم مقبلةً، كأنَّها أقسمَت ما فيها مُدبِرة، وحكمةُ الله تنكشف شيئًا بعد شَيء، ما كان منه كَان، وما لم يكُن لنْ يكون، فإن عرفتَ فاتبَع، وإن جَهِلتَ فَسلِّمْ، فإنَّ الاعتراض على تدبيره جناية.

قال تلميذ: أستَغفرُ اللهَ نِصفي يقينٌ ونِصفي شُكوك، واللهِ، إنَّ دَمعتي حَيرى، وَوجعي سابِغ، وكُلِّي قُصاصات حُزنٍ مُبعثَرة.

قال الشَّيخ: أتَحمَد في النَّفع، وَتقنطُ في الضُّر؟! هو النَّافِع الضَّار، فإيَّاك أن تَعثر في بعضِ المعنى.

يَا بُني، أوَّل الاسمِ مثل الآخِر، هو النَّافعُ إن قَلَّ المناصِر، وهو الضَّارُ لو شَاء لكَ كُلَّ الخَسائِر، سُبحانَه، شَاء مِن أقدام إسماعيل قصَّةَ هاجَر، وما ساغ ماءٌ على ظَمأ إن شَاءه اللهُ مِلحًا أُجاجًا، فَقُل: يَا رب، عَبِّء قلبي بالثَّبات، سُد ثَغرة يقيني إذا قسَت الدَّياجِر.

سبحانه، يقطعُ عنك الأسباب، فيرفع صوتك إلى مقامِ المضطر. هو النَّافِع الضَّار، خضعَ له الدَّاء والدَّواء، وذلَّت له الأسباب، إذا قال اللهُ للأسباب غِيضي، فمن يملكُ أنْ يقول لها فيضي؟ فإذا شاء النفع انبلجَ فجر الفَرج، وغيض الهَمِّ، وانقضَى الأمر، ﴿فمن يملكُ لكم مِن اللهِ شيئًا إنْ أرادَ بكم ضرًّا أو أرادَ بكم نَفعًا﴾.

قُل: يَا رب، إنَّ الطَّريق للمُنى إنْ لم تُسهِّله، كَؤُود، والدَّربُ وَعِرٌ، إلا إذا يَسَّرتَه، والسُّبل بَعيدة، إلا إذا قرَّبتها، سُبحانَه، ﴿إن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾.

يا بُني، إذا يسَّر الله الأمر، أثمرت الأسباب.

قال التلميذ: يا غيثَ عُمري، ارحَم شوقَ المآقِي لمشهدِ الفَرَج.

ينامُ الحُزنُ في قلبي، وصَوتي فارغٌ مِن يَقينه، والله كأنِّي أسألُ مُحالًا، والمحال بعيد، وأراني مِن امتناعٍ لامتناع، وما أرى الآفاقَ إلا فراغًا، كأنَّما خُلِق المنعُ لي!

قال الشَّيخ: تقولُ لليل ما أطولَك، وتنسَى الذي بالنِّعم دثَّرك!

يا بُني، الله في عتمة الجُبِّ وسَّع مُدخلَك، والله في السِّنين عِجاف، أنبتَ لك سُنبُلَك، أتؤمنُ به نافعًا وتأباه إنْ ضيَّق المرحلة؟! هو الله، في كُل المواسِم أثقلَ الغَيم كيْ يَغسِلك، أو كلَّما شَدَّ عليكَ أجفَلك، ثبَّتْ على سُلَّم الوصُول خُطاك، فهو مَن هَيَّأ أقدارَك.

قال التلميذ: إيِه يا قلبُ ما أعجَلك!

قال الشَّيخ: يا بني، ما ينفكُّ الشَّيطان يتلمَّس رُوحك، عساه يَجد مَنفذًا. يا بُني، بلاء يُنطقك بالدُّعاء، ما هو إلا عطَاء، إنْ مَدَّ الليل دُجَاهُ فَقُل: وعندَ الله المتَّسَع، أنتَ النافِع الضَّار، فَخلِّصنا مِن مضايق الدنيا وشدائد الآخرة.

والله، إنْ أضيقَ الأمر، إن فكَّرتَ، أوسَعه، فقُل: يا رب، اجعَل لي عَن كُلِّ هَمٍّ تحويلًا. سبُحانَك أنتَ النَّافِع الضَّار، تضيقُ الأسبابُ عنَّا، ولا تضيقُ رحمتك عنَّا.

قال التلميذ: سبُحانَك، يَنهشني الحُزن لو غابتْ عنِّي أسماؤُك، يا غايَة السُّؤل والأمَل، مِن اليأس يا مولاي فُكَّ أسْري.

قال الشَّيخ: لا تَقُل عن كُربة، لعلَّها، بل قُل يَحلُّها مَن كان يملكُ عُقدها، واحفَظ عَنِّي: « كانوا يَستفتحون حَوائجَهم: اللهمَّ بك أستنجحُ، وباسمك أستفتحُ، اللهمَّ ذَلِّل لي صعوبته، وسهِّل لي حُزونته، وارزقني مِن الخَير أكثر ممَّا أرجو، واصرِف عنِّي مِن الشَّر أكثر ممَّا أخاف، سُبحانك لاسهلَ إلا ما جعلته سَهلًا، وأنتَ تجعل الحزن إذا شئتَ سَهلًا»، فالزم هذا الدعاء.

يَا بُني، اجْتَهِدْ أَلَّا تُفَارِقَ بَابَ سَيِّدِكَ بِحَالٍ، فَإِنَّهُ مَلْجَأُ الْكُلِّ، فَإِنَّ مَنْ فَارَقَ تِلْكَ السُّدَّةَ لَا يَرَى بَعْدَهَا لِقَدَمَيْهِ قَرَارًا وَلَا مَقَامًا، إنَّه متى خَلَّاك مِن توفيقه، عثرتَ عثارًا بعد عثار، وأسرتَ إسارًا بعد إسار.

قال التلميذ: اللهمَّ أنتَ النَّافِع الضَّار، ونحنُ المتعَبون، اللهمَّ أنتَ النَّافِع الضَّار، جلَّ البلاءِ فاجعل له أوسع الجلاء. اللهمَّ أنتَ النَّافِع الضَّار، قد مسني الضرُّ، والقلبُ منكوب، أرجو حِماك، ولم أرجُ يومًا واهبًا إلاكَ.

السميع البصير

بدأ الشيخ مجلسه بتسبيح جليل، سُبحان مَن يُبصر خبيئاتِ النفوس، ويسمَع الصوت وهو مخنوق!

سُبحانه، يسمع حَرَّ الآهِ من قلبٍ يخشى بُعد المسافة بين الكافِ والنُّونِ.

قال تلميذ: يا رب، شَاخ الحَنينُ ولا أمَل يُواسيني.

قال الشَّيخ: اللهُم أنتَ السَّميع البَصير، أذِقْنا معنى: ﴿ولقَد منَّنا عليكَ مَرةً أُخرى﴾، بقولك الحَق: ﴿وإنْ من شَيءٍ إلا عندنا خَزائنه﴾، أنزِل حوائجنا من خَزائنك مَقضية.

يا بني، اللهُ هو السميع، لمن شَدَّ الدُّعاء بالأسماء الحُسنى، فَشِد صَوتك بحبالِ اليقين، فإنَّ الشكَّ يجعل حِبالك أشلاء.

هُو البَصير، بكلِّ هَمٍّ فوق هُمومك يُضاف، هُو البَصير، بكلِّ ألم بلغَ بك حَدَ الجَفاف. قُل: يا مُحسنًا إليَّ قبلَ أن أطلُب، لا تُخيب أمَلي فيكَ وأنا أطلُب.

قال تلميذ: ندعو وشَوك الواقع في أفواهنا، يا عافيةَ العليل يا الله.

قال الشَّيخ: ناداه أيُّوب، فقال السميع البصير: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾، وناداه يونُس، فقال السميع البصير: ﴿فاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾، وناداه زكريا، فقال السميع البصير: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيي﴾،

اللهُم فاستجِب لنا، واكشِف ضُرَّنا، ونَجِّنا من غمومنا، وهَب لنا ما تُحيي به أُمنياتنا.

إنِّي مُخبركم بأَمر؛ حينَ تَدعو، اذكُر لله سَعيك، اذكُر كَم مَرة غَبقت الحَليب لوالديك وأطفالك ينتظرون، ارفَع همسَك بحديث العِفَّة يوم تَجافَيتَ عن الشهوة؛ وقد كانت قابَ جسدك أو أدنى. قُل له كيفَ الخطيئة غَلَّقت أبوابها، فما مدَدَتَ لها يدًا، ولا أصابَت منك قَلبًا. قُل لَه: أنا لكَ، فلا تَخذلني في حاجتي. اسأله بما أبصَر منك وسمع من نبضك، وقُل: يا الله، اجعَل لدعائي مشهدَ الفَلَقِ.

يَا ولَدي، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، تظَلُّ الأمنيات في ظَمئها حتى تشفعَ لها حَسناتها، ومَن أرادَ الله لَه سَميعًا، اتبعَ مَراضيه.

هُو السَّميع البَصير، والله لَو كان العبد يعيش في سيئاته أو حسناته في غَيبٍ مكنون، لبلَغه السميع البصير.

قال التلميذ: اللهُم عَلِّمنا أدَبَ الدعاء.

قال الشَّيخ: إنَّما تُوجَد روائح الإجابة حيث توجَد روائح اليَقين، (مَن عامَل الله باليقين، عامله الله بتحقيقٍ وتَمكين). يهتَزُّ العُمر جِنانًا لو فاضتْ عليه الأسماء الحسنى، تلك أسماءٌ هُزَّ بها جذع الأماني، ثمَّ اقطُف ما ذُلِّل مِن قطُوفها تَذليلًا!

سبحانه، بِيَده روح الإجابة يُرسلها متَى يَشاء.

قال تلميذ: (اللهمَّ آمين، لكلِّ مَا في قلبي من خَفيِّ الأمَاني)، ثُم صمَتْ!

فقال الشيخ: ما أفصَح الصمت في لحظَة الاتصال!

يَا ولَدي، إنَّ خيارنَا الدعاءِ، حتى وإنْ بدَت السماءُ بلا غَيم.

قال تلميذ: والله يا سيدي لا شيء أثقَل على المنتظرين من الصباحَات الفارغة.

قال الشَّيخ: تُؤخر الإجابة حتى تَستبين مقادير الإيمان. أَرِهُ الصبر الجَميل؛ تَرَ عَن قُربٍ مَا يَسُرُّ. ومتَى نظَّفت طُرُق الإجابة من أدرانها؛ جَرى لك العطاء بأهونِ أسبابها.

يَا ولَدي، قُل يَا سميع؛ بإيمانٍ مُكتملٍ لا بِنصف إيمان. يَا ولَدي، بالله، لا بالناس، تُقضَى المطالب.

قال التلميذ: لكن الحَال ما زالَ يشتَدُّ على أُمَّتنا ظُلمًا.

قال الشَّيخ: هُو السَّميع البَصير، بمن ألْقَى السَّمع للأعداء، وثقَب لنا السُّفن. هو السَّميع البصير، بالمطارق المرفوعة على مَن كتبوا المجد في غَزَّة! بصيرٌ، بِوعَّاظ السَّلاطين، الذين حوَّلوا للأُمَة القِبلَة.

يَا ولَدي، إنَّ الذي فوق السماءِ قريبُ، فارفع يديكَ إلى الإلهِ مُناجيًا، إنَّ الجُروح مَع الدعاءِ تطيبُ!

وكلَّما رأيتَ المؤامرات تُحاك، قُل: ﴿قَد سَمع اللهُ﴾، غَدًا القُدور عَليهم تنكفئ.

إنْ هاجمَك اليأسُ فاسجُد، ولا تَبرح حتَى تُعطى، والله إنَّ لليأسِ سكرات؛ تبلُغ باليقين حافَة الشكِّ، وما ابتَلاكَ بالتأخير إلا لِيَبلوَ أسرارَك، فإياكَ أنْ تنسى أنه السَّميع البَصير. رابِط عليها، عساك تبلُغ طُمأنينة ﴿فإنكَ بأعْيننَا﴾.

يَا ولَدي، تمامُ الغِنى أن يَبقى لكَ الله، فاجعَل الأسحار صوتك، ودَع للناس لَغْو الثَرثَرة. في السحَر تُقتنص الفرَص. ادْعُ للأُمَّة ولكربك وَقُل: اللهُمَّ هبنا أعوامًا فيها يُغاثُ الناس وفيها يُعصَرون. وَائذَنْ لكَلام دُموعك أنْ يَبلُغه، إنَّ الدمُوع لُغة المناجاة.

يا بني، هَل تُزهر الأرضُ إلا إنْ بكَى المطَر؟!

اختلطَ حَلق تلميذٍ بالدمْع حتى انتحَب، فقال الشيخ: رُويَ القَلب وارتوى، طَهورٌ يَا ولَدي طَهور، نحنُ بالبكاء نقول ما تَعجَز الكلمات عنه، فاسمَع بكاءَنا يَا سَميع، اللهم إنَّ الصبر عِبادتنا التي نَنزِف فيها وجَعًا.

قال أحَد السلَف: «سألتُ ربّي حاجةً عشرين سنة، فما انقضَت لي ولا يَئستُ منها». إنَ الله يؤخّرها حتى يُباركها.

رَوى الإمام مالك عَن شَيخه يحيى: «كُنتُ بأرض المغرب، فطلبتُ حاجةً من حوائج الدنيا فأهمَّتني، وأكثرتُ الدعاء فيها، ثم ندمتُ وقلتُ لو كان دُعائي هذا في حاجةٍ من حَوائج آخرتي، فذكرتُ ذلك لشيخ كُنت أُجالسه، فقال: لا تَكره ذلك، فإنَّ الله قد باركَ لعبدٍ في حاجةٍ أَذِنَ له فيها بالدعاء».

يَا ولَدي، ذاك الحُلم الذي استوطَن رُوحك؛ اسقه بالدعاء حتَّى يرتَوي، حتَّى يَكون، ولا تسأل اللهَ فُضول العَيش حتى لو كنت على شَفا جُرُفٍ هَار، اسأله صَلاح آخِرتك تستقمْ لكَ دُنياك.

الحَكَم

صلى بنا الشيخ ودعا طويلًا، ثم قال: مَن هُدي للأسماء الحُسنى فقد أخطأه الحُزن، وأغلَق صفحةً مُلِئت جِراحًا.

قال التلميذ: إلهي، دون فَضلك ناقصٌ يزداد نقصانًا، ولِمَا لديك مُثقَلٌ بالشوق ظمآن، بي وجعٌ وبي جُوع، وأخشَى أن يضيعَ مِن دربي الرجُوع.

قال الشَّيخ: يا بني، لا تُعطِ القلوب مُناها، حتى تَصدُق مع مولاها، فقُل: أنتَ يا رب كُل ما أحتاجه، فأذِقْنا لذَّة نيلِ المراد.

يا بُني، متى جَاءت الإجابة إليك، مَدَّت السعادة جناحها عليك، وصافحت يَد اليُمن كفَّيك.

تملَّى التلميذ وجه الشيخ، ثمَّ قال: لا دربَ يحملني إليه، أوَّاهُ، مَن ينقذ المخطئ مِن ذنبه إنْ عَزَّ عنه الوصل أو أبطَأ؟!

قال الشَّيخ: يا بُني، إنْ أطفأ الذنب مِن القلبِ سِراجه، فقُل لَه: عُد بي إليكَ، فأنت للقلبِ دواؤه وعلاجه، ﴿سبحانه وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قال التلميذ: واللهِ لقد خُضت في عَذبها وأُجاجها.

قال الشَّيخ: دنيا مآلها خَراب، ومجيؤها ما له ذهَاب، فإذا انتهَى الأحيَاء إلى السُّكون، وكُل كائنٍ كأنَّه لا يكون، ثمَّ رُفع الحِجاب وعُرض الحساب، وانهلَّ من الصحائف أسرارها، حتى ترى السَّيئة معاني الشَّوك وزقُّومها، وصار العمر جوابًا

لمن سأل، وعَضَّت الروح يديها على نورٍ ما اكتَمل، وجيء بالأموالِ، فإذا بين الجنَّة وبين فلان مسافة زكاةٍ وألف دينار، وبين فلان والنار سياجٌ كُل لَبِنَة فيه درهمٌ ودينار، وجيء بقلبٍ غاصَ في الذَّنب واستمَرأ، ونودي أن ﴿سبحانه وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قال التلميذ: عفوك يا رب، اجعل بَعد الموت عافية.

قال الشَّيخ: قل: نعوذُ بالله من حَال الإياس، وبضاعة الإفلاس.

يَا رب، اجعل أوفَر فضلك إذا انفضَّت الجُموع عَن قبورنا، وغيِّبت في التُّراب أجسادنا، ولم يكن بيننا وبين أحكم الحاكمين حجاب.

قال التلميذ: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أوصِنا يَا سيدي.

قال الشَّيخ: يا بُني، لئن أقرضوا الناس ربهم دنانير، فأقرضه نَفسك كلَّها، كُن مِن عبادٍ قبضوا على الصَّبر جمرًا، فعوضهم الله أجرًا، عوَّضهم أعلى المراتب وأجلَّ المواهب، ﴿وَهوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

قال التلميذ: يَا مَن أَحصيتَ آثاري، باعِدني عن النَّار، يَا رب في قلبي أودية مِن الجفافِ، يَبست منها عيناي.

قال الشَّيخ: إن استعصمتَ بالله، رأيت حريق الشَّهوة يزفر آخر أنفاسه، إن الشَّهْوَة مَوْصُولَةٌ بِالشُّبْهَةِ، وَالشُّبْهَة مَوْصُولَةٌ بِالْحَرَامِ، وَالْحَرَام مَوْصُولٌ بِالنَّارِ، ثم ترى الشَّهوة تَجُرُّ مصائبها على القلب، فاحذَر رعشةَ الشَّهوة في دَمِك. اهدم

مَعصيتك بيدك، قبل أن يُرسل الله عليها مِعوَل العقاب، ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾، وحينها يمتلئُ العمر بمناحة الأسى، فإذا هو موتٌ قبل الموت.

قال التلميذ: اللهُمَّ عُد بقلبي عليَّ، واحملني إليك.

قال الشَّيخ: يا بني، إنْ هَزَّ ريح الذَّنب أستارك، فالله الله في الخَلوات، كَمْ دارى العبدُ وكَمْ خبَّأ، هل يملك نظَر الله أن يَدرأ، ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

قال التلميذ: اللهُمَّ اجعلنا في عِنايتك.

قال الشَّيخ: يا بُني، الواصِلونَ آثارُهم على قَدر نياتهم، ومَراتبهم على قَدر أنوارهم، وإنفاقُهم على قدر ذخَائرهم، وما أخفَى اللهُ لهم: فَوقَ الخَيالِ وبعدَ مُنتهى المنتهى! ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. كانوا لله، فكَان الله لهم، فقُل: اللهُمَّ قُربًا ليسَ له حَدٌّ يقفُ عنده، ولا أمَد ينقطعُ الخَيال بعده. سبحانه، حكمه في الصالحين وافر.

يا بُني، إن سألتني كيف يكون الحذر فاسمع مني: أنتَ مَا أنت؟! أنتَ ظِلال روحك، فإيَّاكَ أنْ يفنى عمرك مُتهدِّمًا في سجنِ خَطيئة، الزم الدعاء: اللهُمَّ اجعلني في عافيةٍ مِن كُل لاغيةٍ ومِن كُل فاحشة.

قال التلميذ: يا رب، استبدَّ بي الذنب، ولك حقوق بطيءٌ قضاؤها، وديونٌ لم تُنجز، وفي القلبِ عَناؤها، وفي صَحيفتي حسناتٌ، قليلٌ غَناؤها، يا رب، إنّي سقيمٌ، فلا تَمنع عَن الرُّوحِ شِفاءها. أخشاك يا من ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قال الشَّيخ: طُوبى لِمن سبَقوا، وطوبى لِمَن لَحِقوا، ارفعْ كفَّ الاستغاثة، وادفَع بها قَدر السُّقوط، ونادِ الغيَّاث بملء مَخارج القَلب.

قال التلميذ: يا رب، إنِّي ارتكبتُ خطيئةَ الكلماتِ والخَطوات، فلستُ أملكُ ما أمُرُّ به إليك.

قال الشَّيخ: يا بُني، لا تحكم على نفسك ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، إنما انبُذ إثمَك، وانتبِذ منه مكانًا قَصِيًّا، ونَاجِ ربَّك وقُل له: يا رب، بعضي غَريقٌ وبعضي حَريق!

ضَع الأوزارَ عن كاهلي، يا مَن تقيلُ مِن عثَر، وقَيِّد اللهُمَّ جَوارحي عن مَحارِمك.

يا بني، طَهارة المنيب، دمُوع النَّحيب!

فقال التلميذ: اللهُمَّ آمين، اللهُمَّ حل بيننا وبين فتنة الدنيا والنِّساء، والغَفلة والشَّهوة، اللهُمَّ طالَ صَبري، فاخلفْ على روحي بما هو عَزاؤها، وظنِّي على بُعدي أنَّك تملكُ للأمنياتِ عطاءها، إحسانُك لا يُطاق شُكره، ونعيمك لا يُساق مَهره.

قال الشَّيخ: يا بني، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. اصبر حتى يأذن الله بحكمه، واعلم أن المحسِن مُعَان، والعاصي مُهان.

يا بُني، ما بين العِتق والغَرق، أنْ تبلُغ الله، وكلَّما اقترَبْتَ منه، استَعجلتْ إليك البشائِر. لا تَقُل كَيف، إِنَّ المقَادِيرَ إِذَا سَاعَدَتْ، أَلْحَقَتِ الْعَاجِزَ بِالْحَازِمِ! الحكم إليه والأمر إليه، فإن حكم بالقرب طوى لك البعد فلا تتأخر.

اللطيف

قال الشَّيخ: هو لُطف الله، إذْ ردَّ الرُّوح على أُمنيةٍ في كَفي كادَت تَموت، وأول البشائر في بَرْد اليَقين.

اليَقين؛ نعيمٌ مُعَجّل، والموفَّق مَن أطال الدعاء وقت البلاء، ومن خَفِيِّ لُطْفِ الله أنه يُداوي الجُرحَ قبل الشَّكوى، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾، فما هو اللُّطف؟ اللُّطفُ انكشافُ فَيض الرعاية في كُل منعطفٍ؛ كادَ يكون مُفترَقًا، فإذا بكوامِن الفَرح تنبعثُ عليك دون عَدد. اللُّطف، ألا تمزِّقك المتاهة، فترى ما يُنطِق القلب: (لعلَّ ما فاتَ من آمالنا خِيرة)! اللُّطف، أنْ يتَّسع لك العَون وأنت تسير فوقَ حبل مَشدود تكاد تسقُط، فترى اللطائف كلَّما داهمَتك المصائب تقول: هأنذا! اللُّطف، أنْ تقع قدمك على قدم السَّداد، فترى لُطف الله في خِضَم البَلاء! اللُّطف، ألا ترى اللوح المحفوظ، ولكن قلبك يكادُ يُبصر التدبير، وأنَّ فوق القَدَر أقدارًا. اللُّطف، أنْ يظلَّ الابتداء في الرعاية؛ مثل المنتهى، تكاد تسقط في الجُبِّ فإذا بألطَافه تَحتويك.اللُّطف، أنْ تخشى الانقطاع، فَيتبدَّى لك ما يجعلك تَستلذُّ بالبلاء كمَا تستلذُّ بالعافية. اللُّطف، أن يرتجفَ الصدر من الخوف، فيأتيكَ لُطف الله جابرًا إذا كادتْ أن تنكسر جَرَّة العُمر. اللُّطف، أنْ يُؤنسك بالتَّدبير، فلرُبما في المنع كُل العطاءِ، فتدركَ أنَّ عِلم الله سابق، ولكل خير سائق، فانزَع عقلك من عواقب التَّفكير. اللُّطف، ألا يَكِلك إلى عِلمك، إذْ كم

مَرةٍ حفَّت بك المكاره، خَار لك اللهُ وأنت كاره! فإذا واجهتكَ الأقدار فثقْ بمن عوَّدك حُسن الاختيار، وقل للأماني: سِيري، وأستخر الله في مسيركِ.

ضَلَّ قَومٌ ليس يَدْرون أنَّ المحَن في طَيها ألطاف.

اللُّطف، أنْ ترى الأمنيات هاربة، ويكاد الموت أن يتخيَّر فيك وينَتقي، فترى ألطاف الله تلاحق العُمر حتى بالفَرج تُدركه. فتَفهَّم معنى: ﴿اللهُ لَطيفٌ بعبادِه﴾.

قال تلميذ: يَنتابني قلَقُ المصير، وكلَّما لامَستُ لُطف الله عاد هُدوئي!

قال الشَّيخ: يا عالم السر وأخفى، الطُف بما تعلَم، واصرف بسِرِّ اللطف عنَّا البلوى.

لا تَثبُت قَدم الإسلام إلا على أرض التَّسليم، فسَلِّم تَسْلم، وقُل: يَا خَفيَّ الألطاف، نَجِّنا مما نخَاف.

قال التلميذ: يَا لطيف، أفرغ على جَدبي إلهي زَمْزمًا، والطُف بي فيما جَرتْ به المقادير.

قال الشَّيخ: مَا من نَفَسٍ تُبديه، إلا وله قَدرٌ فيك يُمضيه.

ليس الرِّضا ألا تحس بالبلاء، بل الرِّضا ألا تعترضَ على القضَاء.

مَن عرف ما عند الله، سكَنت اعتراضاته، وفَهِم أنَّ المنع مِن الله إحسان، والعطَاء مِن الخلق حرمان. إن الإيمان الهَش هُو ما يُخْتَرَق.

قال التلميذ: كيفَ يبلُغ العبد الرِّضا عن الله؟

قال الشَّيخ: المقامات مَكاسب، وحُسن الأحوال نتائج حُسن الأعمَال، وفي ذاكرة القلب رصيدٌ من منَن الله عليكَ؛ مَرةً بعد مَرة، فتعاهَد ذكريات اللُّطف بعبادةِ الشكر. كَم من كربٍ أحدَق وانكشَف! وكَم من حسرةٍ اشتَعلت ثم انطفأت! وكم من فضل أسبغه ولم يكشفه! وكم من نعمةٍ تفضَّل بها إثر حاجة! وعَبدُ الشك متى انخرَم له غَرضٌ اعترض، ويَنسى أنَّ كُل شيء ينتهي إلى مَدى، والشيء يُرجى كشفه إذا انتهى.

اللُّطف هو الحُبُّ، وللحُبِّ شواهد، بعضها بَرْدُ الإجابَة ولذَّة الوصال. ورسائل المعيَّة كأنَّها الوحي منه إليك، ومَا كمال العافية في الإيمان إلا سُكون القلب عَن الاضطراب!

قال التلميذ: اللهمَّ ارزُقنا إجابةً تنبضُ بلُطفك.

قال الشَّيخ: اقرأ على حوائجك: ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، لازِمها في أوقاتك تَجِد لها فَرجًا عَجيبًا، وقُل: يَا مَن بيدكَ التعويض عَن كُل ما تَلف، عَوِّض انتظارنا فَرَجًا كَريمًا. إن أصوات الدعاء سابقةٌ للأقدار مُوفقة ومَرحومة.

قال التلميذ: ما أوقَد الناس في قلبي نارَ اليأس إلا رأيتُ الله باللطف يطفئها، لو طالني الخوفُ، إنَّ اليأسَ مَا طَالَ.

قال الشَّيخ: دمعةٌ على انكسارٍ مِن حرمان، تَرفَع حالك إلى الزيادة بَدل النقصان!

الدموع شواهدُ مُخبرات، إنْ جَرت على الخَدِّ استنْزلَت الإجابة، وَإذا جاءَك كَرمُ اللهِ بلُطفه، غَدتْ العَوائق أحَاديث.

يَا بُنيَّ، قُل: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾، ابقَ مرابطًا على الأمَل حتى يُحدِث اللهُ لك بعدَ اليأس أمْرًا. والأصل في المؤمن حَمل المحنة، حتى تنقضي أوقات الاختبار، ومَا الابتلاء إلا وسَام الأنبياء.

يَا بُني، ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾، اجتهادك فيما ضُمِّن لك، وتقصيرك فيما طُلب منك، دليل على انطماس البَصيرة منك، والطامع في الوُصول يطوي المسافات وهي مُزدحمة، كأنما خَلا له وحده الطريق، يَرى مَشارف الخِتام دون رهَق! لا يعرف الأعذار، فإنَّها إن أكثَرتَ منها مَا مَضيَت، وإنْ استَلمت لها مَا سعَيت!

يا بُنَي، اتَّخذْ السَّحَرَ ميقاتًا لكل سُؤال، ثُم حدِّثني كيفَ كَان العَطاء. احمل فاقَتك لزمنِ السجود، واستَرسل في مُناجاتك، وقُل: الطُف بنا لُطفك بيُوسف الصِّدِّيق، ما لنا إلا لُطفك يَنتشلنا من غَيابة الجُبِّ، ما لنا إلا لُطفك يخرجنا من الأَسْر؛ إنْ حكَمَ العَزيز بالقَهر. اللهُمَّ بِلُطْفك أخرجِ الأسرى المظلومين من سُجون العَدوِّ، الطُف بهم، وَدبِّر لهم أسبابَ الحُرية، فَ ﴿إِنَّ رَبي لطيفٌ لما يشاء﴾.

الحليم

يا شَيخي، نَدعو فلا نَرى إلا المراثي والنواح، وأيَّامًا مُفَخَّخة بالموت! ألا ترى دم المآذن قَد جَرى، وأعمارنا، فجيعة تتلوها فجيعة؟!

قال الشَّيخ: إذا أبطأتْ عنك الإجابة وأعسَرت، شكَكتَ في الله؟! الله يَا بُني حَليم، وإن ضاقَ حبلُ الرزايا، وابيضَّت من المآسي الأحداق، وكَاد الفجر يحتضر، فاللهُ يُمهِل ولا يُهمِل. يَا بُني، خلفَ ما لا تَرى غيبٌ لله آتٍ، ولو عاجَلهم ﴿ما ترك على ظَهرها من دابة﴾. ومَا بين زمنِ الابتلاء وزمنِ الحِساب إلا ﴿عَشِيَّةً أو ضُحاها﴾، وعُمر كُلِّ هَذه الحيرة، ﴿إنْ لَبِثتُم إلا قَليلًا﴾، فاثبُت على طمأنينة الموجوع وَقُل: مَا ثَمَّ إلا الله. هَذه محنةُ الإيمان، والدنيا بالآخرة تَكتمل.

قال التلميذ: يَا شيَخي، فمَاذا عَن دُعاء الحوائج؟ غِيضَ دَمعُ القلب، نبُثُّ الآهَ، فمَا لها لا تُسمَع؟!

قال الشَّيخ: سُبحانه، يزرعُ مَا يشَاء بِحلمه، ويهَب مَا يشاء بعلمه، ويَدفعُ مَا يشاء بحكمته، الحليم فلا يعجل بالعقوبة، ولا يعجل لعجلتنا، لكنه يقدر الأقدار حلمًا وحكمة.

يا بُني، افهم عني ما سأقول لك، تفهم حلمه في تدبير أقداره، لما خلَق اللهُ القلمَ قال له: اكتُب كُلَّ ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة. ثمَّ جفَّ القَلمُ ورُفعت

الصحف! ثم بَلَغَنا أنَّ عُمَرَ كان يَدعو: «اللهمَّ إنْ كُنتَ كتَبتَني عندكَ شقيًّا، فامْحُني بقدرتك، وأثبتني عندك سَعيدًا».

قال التلميذ: فهل تتغيرُ الأقدار يَا شَيخي؟

فأجاب العالم الربَّاني: أوَما بَلغَك أنَّ الدُّعاءِ يُصارِع الأقدار؟! وأنَّ ثَمَّة دعاءِ من قوته وكَثرة إلحاحِ صاحِبه وشدة تَوسله، يغلب أقدارًا تنزَّلت، وشارَفت على الوُقوع؟!

يَا بُني، ثمة من يُتقنون الدعاءِ بكثافة، حتى تَتنادى لدموعِهم ملائكةُ العَرش.

يا بُني، إنَّ الدعاء بعضٌ مِن إرادة الله، فتعلَّم كيف تَفِر مِن قَدرٍ يُرهقك، إلى قَدرٍ يَرحمك، تعلَّمْ كيفَ تَفِرُّ مِن رَمادية الأيَّام إلى ألوانِ الفرح ومواسم الشِّتاءِ، ولنْ يكونَ ذلك إلا إذا علَّمتَ رُكبتيك كيفَ تجثو في الأَسْحار.

يا بُني، في لحظةٍ ما، ربما تُبعثر الرِّيح من حولك كلَّ شيءٍ، حتَّى سَقف بيتك، لكنَّها في الحَقيقة مأمورةٌ بذلك، فهي تُعيدُ ترتيبَ كلِّ شيءٍ لك. إنَّ كلماتك في السُّجود تشتدُّ كل ليلة كَسِياج، حتَى يتطاول لك البُنيان، وفي لحظةِ اكتمال، سيَبدو لك جليًّا أينَ كانت تذهبُ تلك الأنَّات وتلك الدعوات.

يا بُني، الله حَليم، ولايعجَل لِعَجلتنا، إنْ رأيتَ أحلامَك مُعتقلةً، فتيَقَّنْ أنَّ الدعاءِ يُمهِّد دروب الفَرج.

يَا وَلدي، ثِقْ أنَّ الدُّعاءِ يُعيدُ تَرتيب المشهد، فاغتَنِم مَا وهبك من زمن السحر.

الجواد

هو الجواد، وإذا جاد عليك أغناك، وإذا أغناك نِلت مُناك! لم يُر مثل الجواد إذا حلَّ به مُطيع، فقل: اللهم انقُل العمر إلى ضَفَّة لُطفك، وواسِع جُودك.

يَا رب، أنتَ العليُّ، ودونك يَصغر الألم، أنت الجوادُ، فاجعَل العُمر بَيدر سنابل مُثقَلة، أجُورُه مضاعفَة، وجَمْرَ حَسناتنا مُشتَعلاً، وكُل مَا أهمَّنا مُرتَحلاً. اللهم لا تترُك السؤال للإجابة ظَمآنَ، اللهمَّ أودَعْنا جُودَك أحلامَنا، يَا رب فاجعلنا خيراً يتَّسع، وسعيًا لا عجزَ فيه ولا جزع، وسَلاما لأُمَّة انتابها الحزَنُ والهلَع! يَا رب آمينَ، حتى يُزهِرَ الأمَل، اللهم وهَبْنا إجابةً ﴿قابَ قوسَين أو أدنَى﴾.

قال التلميذ: يَا قَاب قوسَين، مَا للقلبِ لا يَصمد؟!

قال الشَّيخ: يَا الله، قُلها حتَى يَنبثق الصَوتُ من وجَعك، وإذا اتَّقدَ الدعاءُ على لسانك، فقَد شَاءِ الله حُدوثه!

يَا بُنَي، الصَوتُ الواهي، لا يُغني عَن صاحبه، احْشُد الليلة الملائكةَ على مَنْكبَيك!

قال التلميذ: يَا سيدي، بأيِّ دُعاءٍ سَنُوقفُ هذا الخراب؟ مُصابُونَ يَا مَولاَيَ بأنفسنا، مُصابُونَ بذنوبنا، مُصابُونَ بما أنتَ به عليم، وَمُترعَةٌ رُوحي بالألم.

قال الشَّيخ: يَا بُني، كيفَ يَجفُّ مَن مَسه الجوَّاد بفضل؟! يَا بُنَي، هَل شَاخَ قلبُك بِيَأسِه؟! استَغفر اللهَ من خَطيئةِ القنُوط.

قال التلميذ: (معَاذَ الله إنِّي مَا يئِستُ، لكنَّها واللهِ أيامٌ ثِقالُ).

قال الشَّيخ: (ولقَد تَظُنُّ الأمرَ غيرَ مُحَقق أبدًا، ويقضي الجوَّادُ أنْ يَتحقَّقَ). صَلِّ الليلةَ صَلاةً تَلُمُّ العَطايا كأنها مُزْنا، وَقُل: يَا رب، إنْ شِئْتَ قُلتَ للهَمِّ تلاشَ. اللهم أنَا وَدُعائي ﴿ثانيَ اثنين﴾، فَكن بـ ﴿كُن﴾، بِجُودك لنا ثالِثًا! اللهم إنْ كان السبيل لأحلامنا مُستحيلًا، فاجعله بجودك هَيِّنًا ويَسيرًا! يَا رب، قواربي مَلأى بالدعاء، أسألُكَ أنْ أَعبُرَ إليكَ مثل مَن عبَروا.

قال التلميذ: آمين. (قالَها وكَان الأنينُ يلهَثُ في جَوفه، يكَادُ يَشتَعل)!

فقال الشيخ: ذاكَ الأنينُ عند الله كَلمات، وخيرُ سِلاح القلب دَمعٌ يُفيضه.

يَا بُنَي، أتَدري مَا الإجابة؟ الإجابةُ هي الرِّباطُ على الدعاء.

طَأطأ التلميذُ وجهًا كان مَغموسًا في الدموع، ثُم قال: يَا رب، مُعتَمرٌ جِراحي، فإنْ شبَّت حرائقي واتَّقدتْ، فاجعَل أفضَالك لها، مَطَرًا.

قال الشَّيخ: يَا بُنَي، (مَا عَلم الله خيرًا في قلب عبدٍ، إلا بسطَ له الخير)، وإنَّ الأسماء الحُسنى مَفاتيح التَّوفيق، وقَدْ يُدرِكُ المأْمولُ بها وَهْو صَرِيمُ!

يَا بُنَي، في الليل تتسع طُرُق الإجابة، فيَا حسرةَ من لمْ يُزاحم! قُل للبَصير: يا رب، جرُوحي هَا هي ذي.

يَا أبنائي، سَلُوا اللهَ كُل شيءٍ حتى الشِّسْع، فَإنَّ الله إنْ لَمْ يُيَسره، لا يتيسَّر.

ثُمَ لَمْلَم الشيخُ دَمْعَه وقال: أظِلُّوني بِفيءِ دُعائكم، عَساني أنْ آنسَ الليلةَ لِسُؤلي جَوابا.

العظيم

الأسماء الحسنى مَعاقِد الفَرح، وأوانُ انبلاج الإجابة، ومَن فُتح له بَاب الدعاء، فتلك إشارةُ الحُبِّ، وما لهج قلبٌ بالدعاءِ إلا رأى في عاقبة أَمره ما يَسُرُّ النَّفسَ، ويَجُرُّ لعمره الأُنس.

يَا أبنائي، (إنَّ النِّعَم لا تغيب عمَّن في كفِّه فيضُ الدعاء)، سبحانه، قَد يؤخِّر الله عن عبده الإجابة لتدوم منه أصواتُ الضَّراعة، وليستخرجَ منه العبرة والاستكانة، فقولوا: اللهمَّ إنَّا نَفِرُّ من اليأس إلى حُسن الظَّنِّ، فكن لنا أكثَرَ مما دعونا لأنفسنا.

قال تلميذ: والله أَدْعوه وأنا في جَمرة الانتظار، اللهم هبْنا بُراقًا مِن فَضلك نعلو به إلى النِّهايات.

قال الشَّيخ: اعْزِمِ المسألة، وأعظِمِ الرَّغبة، هو العظيمُ؛ لا يُعجزه شَيء، وطُوبى لمن عَرف ربه، ووالله، لو عَبدوه، لعرفوه، ولو أدركوا منه ما فاتهم، لأحبوه، (ومَن لا يُدرِك ثواب الأعمال، ثَقُلت عليه جَميع الأحوال)، فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ. تنبه كيف كانت خاتمة الحديث عن مراتب الآخرة، سبحانه هو العَظيم في إنعامه، فلو أبصرتَ ما ادَّخر لك هناك، وما أدراك ما هناك، ثم ما أدراك ما هناك! هناكَ غيثُ رذاذه وابل، وقليله كثير، وبعضه كُل! فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ. سُبحانه، هو العظيم في أحكامه، (يمنعُ، وفي منعه مُعطٍ، ويحرِّم، وهو في

حِرمانه واهب! يضعُ، وهو في وضعه رافع، ويُبعد، وهو في إبعاده مُقَرِّب، وعطَاؤه يجري فيما مَنع، كما يجري فيما منَح)! فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ.

وهو العظيمُ في إحسانه، له لطائفُ لا تَهتدي لها المساعي، ونِعَمٌ لا تلحقها الأماني، فإن اصطفاك عَلَّاك ومنحكَ وآواك، فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ.

يَا بُنَي، السَّلامةُ من البُعد عنه غَنيمة، فكيف لو كنت ممَّن نالَ الوصْل، فنالَ ما بعد الغَنيمة؟! هو العَظيم في أقداره، يأخُذك بالمحنة، فيريكَ المنَّة، ومَن أوكله إلى نفْسه، أغربَ في إدباره وإقباله، وتاه في أقواله وأفعاله! فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ. هو العَظيم في عَطائه، فادْفَع به الهُموم، وما جَاء من هَولها، وإن وطِئ الإعصار خَطوك، فادفَعه بالله. وما أوصَد عنك حقبًا، فافتحه بالله، وإن هَبَّ عاصفٌ على جَذوتك، فأوقفه بالله.

تظنُّها القاصِمة، فإذا بالله يدفعها فمَا لها أثر، سُبحانه، أنت في حَرَمه الذي لا يُضام، فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ.

قال تلميذ: اللهُمَّ أدْرِجنا في عظيم عنايتك وعظيم رعايتك، يَا رب، قلبي يجوبُ في رِحابك، ويتعلَّق بأستارك، جئناكَ هُمومًا مُثقَلة، وفيكَ يَعظُم الأمَل، جئناكَ آثامًا مُوجعة، فاغفر لنا ما نأتي وما نَدَع، أنتَ العَظيم، فافتَح لِدعوتي الآفاق كلها.

تنهَّد الشَّيخُ ثُم أكمَل: سُبحانه، وهو العظيم في عقابه، يؤدِّب الله بالهِجران، ولا يُعجِّل على العَبد بالحرمان، فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ. يَا بُنَي، إنَ الذُّنوبَ

ضَرائر النِّعم، فلا تتجاوز حدودًا عظَّمها العظيم، فَقُل: نعوذُ بك من نعمةٍ تغيِّرها نقمة، ومِن هِبَةٍ يَسلُبها الوَاهب، نعوذ بك من زوالِ الحجُب بعد فوات الوَقت.

ثُم تَلا الشَّيخ: ﴿فَكشَفْنا عنكَ غِطَاءك﴾. ثم قال: عَفوك يَا مولاي، عبْدٌ إنْ مَقتَّه استَدرجْته وكشَفته، وما ستَرتَه! هو العَظيم سبحانه، فعامِله بما يليقُ بِعَظمته، ولا تتعد حدوده.

قال التلميذ: يا الله! كيفَ يكون ذلك؟

قال الشَّيخ: يا بُنَي، التَّهاون باليَسير أسَاسٌ للوقُوع في الكثير، وخلوتك غيبك، هو العَظيم، فلا تَستصغِر أمْرَه، هو العَظيم، فعامِله بما يليقُ بِعَظمته! قارِن مَا أنتَ له، وما أنت عليَه، اخْلُ مِن مَشاغلك، واخلُ بنفسك، وَقلِّب قلبَك، وتصفَّح نفسك، فإن أبصَرتَها فَقُل: عَرفتُ آفتي.

قال التلميذ: (اللهُمَّ كما ملَكتنا، فارفُق بنا، وإذا رَفقتَ بنا، فأعتِقنا، وإذا أعتَقتَنا، فاقبَلنا، وإذا قَبِلتنا، فَكُن لنا، وإذا كُنت لنا، فَكُن مَعنا).

قال الشَّيخ: إذا كانت النيَّة طاهِرة، فالمعونة حاضِرة، وإذا قصَّرْتَ، فَخُذ مِن أواخرك لأوائلك، عسَاك تُدرِك، (والجاني على نفْسه، مَن جَرى يومه على حُكم أمْسه)، وأولُ ما يُدنيك مِن الإجابة، تَرك الذنوب.

هو العظيم فلا تحقرن ذنبًا في جنبه! فأدرِك، وكُن من العَجَّاجين إلى الله في غياهب الليل، مَن ضجَّت السماوات بأصواتهم!

يَا بُنَي، لقد نجَى مِن الغَمرات مَن نَادى «يا الله» في الظلمات، ولقد نجى من الغَمِّ مَن أخذ اللهُ بيده مِن مزلَّة القدم. هو العظيم فالجأ لرَب العَرش العظيم، ﴿واسجُد واقْترِب﴾، واسأل من لا يعجزه شيء!

يَا بُنَي، هنيئًا لمن أقبَلوا، فوجَدوا.

قال التلميذ: يَا رب، تهتَّكت الأرواح، فَداوِ جراحها، أنت السميع لكلِّ آهٍ في غيب الخَلوات، ومَا كَان من الحَوائج في طَيِّ الكِتمان، فاقضه بالستر يَا رحمَن. يا رب، مَدامع أسفَرت عَن شوقها، وهذه أكُفُّ حوائجنا، تَدُقُّ أبوابَ كرَمك فارغةً مما تَستحق! يا رب، لا يملأ جَيب فقرها، غير نَدى مَا لَديك، الأَكُفُّ مُشرعةٌ لك بالحاجات، طامعة بالهِبات، قَرعت أبوابَ إحسانك في خلوَات الانكسار، لا يعجزك شيء يا عظيم السماوات.

قال الشَّيخ: إنْ بعْثرت الهُموم صَوتك، وأغلقَتْ عليكَ الكلمات، فلا تعجَز أن تقول: يا من ﴿هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، علوت بعظمتك، وقدرت بعظمتك، وأمرت بعظمتك ما ترى فيما ترى، يا مَن يَرى ولا يُرى.

سُبحانه، يسمعُ دبيبَ همك فوقَ عَرشه، وهوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ!

يَا بُنَي، مَوعدنا مَع الله أكنافَ الليلِ وبواكير الفَجر، لا تبرَح حتَى تُعطَى، إنَّ العَظيمَ إذا أعطى، أجْزَل، فقل: علَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ.

الشكور

قال الشَّيخ: سَمِع اللهَ لمن حَمده، تلك العتبة وبعدها فَاسأل! الحَمد أسبَاب الإجابة، الحَمد لله، تَطوي للدُعاء مَفازات العُروج! اللهُمَّ بحَمدك؛ إنَّنا نَشتهي (كُن) من تَوقيت الإجابة، ونَشتهي (فيَكون) من فَيض العَطايا. هَبنا بالحَمد (تَوفيقًا بينَ كُن فيكون).

تَبسَّمَ التلميذ، فقَد التقطَ القَلبُ المعنى.

فقال الشَّيخ: كَان السَّلف يتواصون: (من يُرِد النَّجاة مِن وَرَطات الشدائد والغُموم، فلا يغْفَلن لِسانَه عَن التوجُّهِ إلى الله بالحمْد والثَناء على النِّعَم). واللهُ يسمَع صَمت الجوارح في حَمدها، ومَن مَدَّ كفيه بالحَمد، هطَلت له الإجابةُ غَيثًا مُغيثًا.

يا أبنائي، لما مسح سُليمان الخَيل لربِّه، أعاضَه الله الرِّيح بِساطًا لِدربه، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾، واحتَمل يوسُف ضِيق السجن سِنين، فمكَّن اللهُ له في الأرض تَمْكينًا، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

شَكور، لِمن شمَّروا للسَير في سَواء السَّبيل، وما قعدوا فَراغًا.

شَكور، لِمن كَان دائمَ الثَّأر من الشَّيطان، ومَا عَرف القُيود والقُضبان.

شَكور، لمن عَلتْ هِمتهم إلى مُعاملته، ثُم تناهتْ إلى مَحبَّته.

شَكور، لمن هَمَّ فبَادَر، وعَزَم فثابَر، ولما دُعيَ ما تَوانى.

قال التلميذ: كيفَ نطيقُ ذلك؟

قال الشَّيخ: والقلب يَحملُ مَا لا يحمل البَدن. (ثُم قَرأ الشيخ): ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾. نَزِد له فيها حُسنًا، إنَّ الجنَّة مُؤتَمَنة يا ولدي على ردِّ الحبَّة سُنبلةَ نَعيم، ويُنبت اللهُ بعد الحَمد نعمة. ما مِن رجُلٍ يرى نعمةَ الله عليه، فيقول: الحَمدُ لله الذي بِنعمتِهِ تَتِمُّ الصالحات؛ إلا أغناه اللهُ تعالى وزادَه.

النِّعَم تنقادُ لأربابها، وتعرِف مَن يُحسِن إليها؛ فَتُقيمُ عندهم، وإنَّ أفقَر الفُقراء مَن تُوهَب له النِّعَم، ثُم لا تُكتَب لَهم أُجُورها، فَلتنظر إلى ما تَنتهي إليه نعمتك، إذ للنعَم اختبارها، فإمَّا التَّمكين، وإمَّا الرَّحيل.

يَا ولَدي، إنَّ قُدرتك عَلى الشكر هي سُقيا النِّعَم، والاعتياد هَزيمة النعَم! الأُلفَة تَطعَنُ خُطى النِّعَم، فَلا تُكمل مَعك الطريق! وبعضُ النِّعَم قُبورها الأُلفة، لكن مَن كَان قَلبه في الإيمان أُميًّا؛ كَيف يَقرأ النِّعَم؟! وما البَصيرة إلا نَوافذ الرُّوح؟!

يا ولدي، مَا أقسَى أنْ تَسكُنك النِّعَم ولا تراها! فَقُل: نَعوذ بكَ أنْ نعيشَ النِّعَم بعدَ فراقها.

قال التلميذ: كَيف يكون ذلك؟ تَظلُّ في الذاكرةِ حسرةً حيَّة!

قال الشَّيخ: يَا ولَدي، مَا أقسَى أنْ تنطفئ الزِّينة بعدَ تَوهُّجها! أنْ تَبرُد حَرارةَ المذاق، أنْ تَستيقظَ فَتجد الأمْس مما مضى! تلك سُنة الله، أنَّ عاقبة النِّسيان

الفَناء، فاكفِنا اللَّهُمَّ شَرَّ فَراغ البُيوت مِن امتلائها، فقل: اللهم بلغنا حال ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

قال التلميذ: هَل يَكفي الحَمد لله؟

قال الشَّيخ: الحَمد لُغة الرُّوح، ويكفيك أن تستَغفِر مِن النِّسيان، فَإنَّ كُل مَا يَحجُب عنكَ النِّعَم خَطيئة، وقَد أفلحَ مَن رُزِق حَمدًا.

قال التلميذ: كيفَ يرتق النِّسيان؟

قال الشَّيخ: ﴿وأمَّا بِنعمَةِ ربِّكَ فحدِّث﴾. يَا ولدي، إنَّ تعداد النِّعَم مِن الشكر، الشكر يُورِث المزيد، والمزيد يُورِث الجنة، وأوَّل واجبَات النِّعَم الإنصات لدَبيبها. قُل الحَمد لله، إذا لَم تَسقطْ من ذاكَرة الإيمان، وظلَّت القَدم على ثَباتها. الحَمد لله، للباطن الذي بَقي في أعيُن النَّاس مَستُورًا. الحَمد لله، على الأحلام التي لَمْ تَعُد مُؤجَّلَة. الحَمد لله، على السُّفن التي لَمْ تغرَق، رغمَ أمواج الفِتن. الحَمد لله، أنْ هَيَّأ بوابَة الوصول لِمَن كانوا في المنافي البَعيدة. اللَّهُمَّ إنَّ أعيُننا من النِّعَم مَليئةٌ بالاعتراف، ولكن ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾، فاجعلنا يَا مَولاي قَليلًا من قَليل.

الشاكرون في كُل زمَنٍ يَقلُّ عَددهُم، وعند الله يَجِلُّ قَدرُهم، وجُلسَاء الرحمَن هُمُ الشاكرون. سِرْ بالحَمد؛ تَكُن الزِّيادة طَريقك، ولا تَمُت قَبل أنْ تَكون من أهل الخَزائن، واعبُر مِن الشكر إلى المزيد، ومَن عَرف قَدر مَطلوبه؛ سَهُل عَليه بذْلَ مَجهوده!

يَا ولَدي، مَنْعُه عَطاء، فالحَمد لله حتى على مَا صرف، فَلا يُلجِمَنَّك الشيطانُ عَن الشكر في كُل الأقدار، وإياك أن تلقَى الله برهَانِ إبليس، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

يَا قَوم، لا تَملُّوا النِّعَم، فتَعودُ عَليكُم نِقمًا، وَوراء كُل استهتارٍ بالنعمَةِ حَسرة!

وإياكُم من (النِّعَم المنافقة)، التي يُبتغى بها وَجه الناس، تلك نعَمٌ كانَت مَتاعًا، ثُمَّ أصبحت يَوم الحَشر التِياعًا، وكُل نعمةٍ لا تُقَرِّب إلى الله استدراج!

قَال سُفيان: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، نُسبغُ عليهم النِّعَم، ونَمنعهم الشكر.

اعتَدلَ الشيخ في مَجلسه ثُم قَال: يا ولَدي، لَنْ تَذبُل لَك نعمةٌ وأنت بالحَمد تَسقيها، قَد قَال الله: ﴿وَيَزِيدهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾، فَقُل: حَمْدك عافِيَتي، وعاقِبتي، وزِيادتي، يا ولدي، سَمِع اللهُ لمِن حَمِدَ، ثُمَّ دعَا، ثُمَّ شَكا، ثُمَّ بكى، سَمع الله لمن به أسَى. لا تسأل عما وراءَ الحَمد، إنْ كَان الدعاءِ به بَدَا، فقَطْ قُل: الحَمْدُ لله مغير الأقدار، ستَّار العيُوب، وغَفَّار الذنوب، مجيب الدَّعَوات، حَمدًا يُجبَر به الحَال، حَمدًا يُعطى به السؤال!

العلي الأعلى

وإذا العَليُّ اصطفَى، جعلَ الوُفودَ أخيرَها دانيها، والدِّلاء الآيسة في غَيثها وافرة، وإذا تفضَّل الوهَّاب، سقَطت الأسباب، ورأيتَ الآمال الملقاة على قارعةِ اليأس، ريَّانة بالغَيث، وما كنتَ حائرًا فيه، يكون أو لا يكون، وما كان في الغارِ موطنه، صار الأُفْق له مُتَّسعًا!

يا أبنائي، لِيُنفق كُل ما تيسَّرَ مِن دمعه، من أنينه، والقلب يشهد على مآقينا.

قال التلميذ: أتيتُ، يُدْنِيني الرَّجاءُ وأنتَ العليُّ تَفْعَلُ ما تَشَاءُ، إنْ عنكَ مضيتُ، ألَديَّ حياة إنْ أنا نأيْت؟!

قال الشَّيخ: مباركٌ للمُدلجين طلعةَ الفجر، وإذا بَرَق الأجرُ، قال الغافِل: ﴿يا ليتَني كنتُ مَعهم﴾. هو الله العليُّ الأعلى، ومَن علتْ همَّته، ارتفعتْ عزيمته. هو العليُّ، مَن سابَق إليه سبَق، ومَن لاحَق التحَق، ومَن رافَق ارتفَق، والكَسلُ مطيَّة الخَيبة، وعلى قَدر السَّبق إلى العليِّ، تؤتى المنح، ﴿أَنَّ اللَّهَ هوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

قال التلميذ: يا مَن يجزي بالودِّ ودًّا، والحبِّ حُبًّا، وبالحَمدِ مزيدًا، وبالإقبال قَبولًا.

قال الشَّيخ: تذوقُ، فتشتاقُ، فتلوذ به، فتورِق، ذاك قلبٌ متَّكئ على جدار الغَيب، تسأله عن الله، فتنصت لنحيب حنينه، أولئك يا بني من ارتفعوا حَتى وصَلوا.

قال التلميذ: اللهُمَّ ودًّا.

قال الشَّيخ: إذا قَبِلَ الله العبد، رأيته يسعى في الأجر، وأوَّل القَبول أن توهَب العَفو. يا بُني، إذا وضعَ عنك أوزار عمرك، رفعَ لك ذكرك، ويسَّر لك أمرك، فقُل: اللهُمَّ العَفو بَدل القَصاص، فذاك مقام الاختصاص. فإنْ وهبكَ العفو، فاسأله مقعد الرضا، وقُل له: أنت الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، امضِ بي على دَرج طاعتك، فأدرَجُ بك ولا أقِف حتى أبلُغَ ما لديك.

يا بُني، مِن (غُرَّة) الحَمد، حتى مِسك (النَّاس) (مفاتح الغَيب) في أسرار إكرامه، أتظنُّ يا بُنيَّ أنَّ قلبًا اصطفاه الله وعاءً للوحي والمناجاة، أيشقَى؟! حاشَا وكَلَّا! هو العليُّ، إذا تولَّى أعتقَ، حتى يُقال اتلُ ورتّل وارتَقِ نُنجيك مِن كُل ضيقٍ ضيِّق، يفيضُ لك النَّعيم على درج الجنة من ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ حتى ﴿النَّاسِ﴾، إذا رتَّلتَ آيَها، ومن خدم العالي نال المعالي.

قال التلميذ: أنت العليُّ سُبحانك، مُتدثِّرون بحبِّك يا لله، ولا زاد لنا إلا الدعاء، إن تقْصِني، فمِلْءِ عَيْنيَّ حَيائي.

قال الشَّيخ: العاصي يتولَّى، والطائع يترقَّى، وإن تولَّى القوم، فاغنَم السَّبق، ومن أهمَّه في العمل الإخفاء، نالَ مقام الاصطفاء، ومن اصطفاهُ الله في البدايات، سلَّمه في النِّهايات، وأكرمه بالزِّيادات، وإليه لا يعلو الزبَد.

تنهَّد التلميذُ وقال: اللهُمَّ أنت العليُّ، فارفعنا ولا تَضعنا!

قال الشَّيخ: أوَّل الطريق عناية، وخاتمته ولاية، وما بينهما علو نحو العلي، فاجعلْ عمرك معنى السُّوَر، رتِّله خطى وسلوكًا، إليه يصعد الكلم الطيب، فاصعد إليه بالكلمات، كن من قوم إذا صلَّوا، ظلَّت الأرض تشهد لهم.

يا بني، صلِّ بسورة الأحزاب، هذي صلاةُ المرحلة. يا بُني، تحجُّ الأجور لمن صلَّوا صلاة الثَّبات، والمرجفون يهزُّون أسوارنا، لمن صلَّوا على الرَّمضاءِ أئِمَّة، وسقوا الظامئين يقينًا، لمن شاؤوا العُمر مِعراجًا، علَوا، فأقدامهم على الآرائك مَجراها، وفي أعلى عليين مَرساها.

بكى تلميذٌ وقال: أنتَ العليُّ، فبَلِّغنا.

قال الشَّيخ: يا بُنيَّ، الأمر في البداية، العَمل على السلامة، ثمَّ يرتقي، فيكون سعيه في الغنيمة، ثُمَّ تَراه مِن أهل القَرض، ﴿وأقرَضوا الله قرضًا حسَنًا﴾، وذلك مُنتهى الرِّبح! ثمَّ مَاذا؟ ثمَّ تكون الكَرامة، (ولهم عندي إذا قَدموا على أنْ أُجِلَّ مَنصبهم، وأُعْلِي مَحلهم، وأنشُر ألوية المجد عليهم).

تأوَّهَ التلميذ وقال: ما أبينَ الحُب في مدامِع القَلب! يا رب، أقعَدني الذَّنب عن رِفقة حَثوا لِرضوانك المطايا!

قال الشَّيخ: إقبالُ العِباد، بِحَسب القَبول والاستعداد، وإذا أرادَ أن يرفعك مِن مقامٍ إلى مقام، وَهبكَ هِمَّة أعلى. هو العليّ، إذا رفَعَ، ألحقَ العاجز بالقَادر، وقُل: يا الله، يَا عليُّ، يا وهَّاب، هَبْنا العُلا، واجعل عَدانا الدُّونا.

قال التلميذ: يا رب، أُناجيك في سرَّائها وضَرائها. يا بُنيَّ، إذا أحَبَّ اللهُ عبدًا ابتلاه، فإن صبرَ اجتباه، وإن رَضِي علَّاه واصطَفاه. إنْ سلَّمتَ إليه قرَّبك، وإنْ نازعتَه، أبعَدَك، ربَّما كنتَ مِن أهل السَّبق، فجاءك الشيطان وثنَّاك، وهمُّه أنْ يَقطعكَ عمَّا أخرجَ منه أبَاك! ليس لِرَحْلٍ حطَّه اللهُ مِن حامِل، فاشدُد على جَمر دينك، إنَّه زمن الفتن.

يا بني، ليكُن همُّك مِن سفَرك إليه، معرفتك كيف ترتفع إليه، والنِّهايات كلُّها لله.

قال التلميذ: اللهُمَّ لا تَسلبنا بَعد العَطاء، واجعل سترك لمساوئِنا غِطاء. اللهُمَّ يا عليُّ يا كريم، مكِّن لنا في الأرض تَمكينًا.

قال الشَّيخ: وظنِّي بهِ حين يدنو البلاء كَريمٌ، يُرى جودُه في المحنِ، حاشَا لدعاء السَّحر أنْ يَخيبَ، ومَن رمَى بالدُّعاء سُدِّد، فَقومُوا إلى سِهامِكم يرحَمكم الله.

الحفيظ

سُبحان مَن جعلَ خُطى الفَرج واسعة، وجعَل للمَضائق أبوابًا من الفَرج! اللهُمَّ يُسرًا لرواحِل الدعاءِ حتى تَصِل، ومسرَّةً بالإجابة لمن وصَل.

قال تلميذ: إلى الله أشكو مُضغةً، ليس بكفِّي حَلُّها وعِقالها!

قال الشَّيخ: احفَظ الله يَحفظك. قُل: اللهُمَّ لِجام القلبِ بين يديك، فاشدُد هَواي إليك شدًّا وأصلح شاني يا عظيمَ الشانِ.

يَا بُني، اجعل الدعاءِ بالأسماء زمن الانتقال، وواصِل الكِلال بالكِلال.

قال التلميذ: كَيْف؟!

قال الشَّيخ: يَا بُنَي، الموفَّق مَن اشتغل في السَّوابق، وما كَلَّ لله في الارتحال. إن لله عبادًا، كُل فَردٍ منهم كأنَّه في الرُّشد طَود، لا مُذبذَبين بينَ الجَزْر والمدِّ. أعلَنوها، هو الطريقُ مِن قبلُ ومِن بعد، ما ضمَّتهم شَهوةٌ، ولا قَدِر عليهم قَيْد، ثبَتوا، ومَوجُ الخيانةِ مدٌّ ومَدٌّ!

يَا بُنَي، قد قيل مَن أتاني مُنقطعًا إليَّ، جعلتُ له حياةً لا مَوت فيها، ومَن أتاني مُنقطعًا إليَّ، جعلتُ له مُلكًا لا يَزول، ومَن أتاني مُنقطعًا إليَّ، جعلتُ إرادتي في إرادته! هذا حِفظُ الله لمن حفِظ الله.

قال التلميذ: مَن يقدر على ذلك يَا سيدي؟

قال الشَّيخ: لولا الشَّهوات والحُظوظ، لتصرَّفت الهِمَم بأسرع من اللحُوظ! ومن سار إليه باسمه حُفِظ.

يَا بُني، ﴿اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾، هو الحفيظُ لمن لمْ يَعرَقوا في قمصان الفِتنة، هو الحَفيظ لمن مَا خاضوا في مجالِس الشَّهوة، هو الحَفيظ، لمن قيلَ له ﴿اخْرُجْ علَيهنَّ﴾، فخرجَ ثُم بثباته إلى الله عَرج. هو الحَفيظ لمن تناوشَتْه الفتن ﴿لما رأيْنَه﴾، فربطَ أطرافَ قلبه بالله، وَما مَال ولا انتكَس. هو الحَفيظ، لمن شَهِدت له الفِتنة ﴿ما هَذا بشَرَ﴾، فكتبه الله بعد المحنة، ﴿إِنْ هَذا إلا مَلكٌ كَريم﴾. هو الحفيظ لمن جعل ما في نبضه نبضًا على سِواهُ مُحَرَّمًا، قَلبٌ، شهِدت شواهِد حالِه، على صِدقِ مقَاله.

قال التلميذ: يَا الله، امْدُدْ ثباتي قُوةً، إن زارَني يومًا الوَهن.

قال الشَّيخ: إنَّ لله عبادًا، وَضوؤهم الجَمْر، لا إغفاء في الطريق، والقيدُ من أرواحهم مُنكسرٌ، أعمارهم حقول أجْرٍ، حاشا لله أن تَرْتدَّ حَطبًا، محفوظُون عَن الكبائر والصغائر بالرعاية، ومَحفوظون عَن الغفَلات بالرعاية.

قال تلميذ: يَا الله، قد أوقدت الفتنُ جمرَها حتى كادت تذيبُ يد القابضين.

قال الشَّيخ: يَا بُنَي، مَن ﴿استَوى على سُوقه﴾، له روعَة المنتهى، شبَابٌ ﴿تَراهم رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، بَصمَتهم ﴿أثَر السُّجود﴾، فما يَبلغها نفادٌ ولا فَنى، ومَا سواهم حُطامٌ تراكَم فوقَ الحُطام.

يَا بُنَي، إنْ أردت الله بطاعة، أرادكَ الله برحمة، وإن سلَكتَ سَبيل المعرِضين، فلا تَلُم إلا نفْسك إذا صرتَ غَدًا في زُمرة الخَاسرين.

قال التلميذ: يَا الله، لُم ما تناثر مِن حُطام ضَياعنا.

قال الشَّيخ: إذا قُلتَ يا الله، بلغَتْ الياء مَداها، حاشا له أنْ تظلَّ الآهُ مَلأى بالأنين، حاشا لله أنْ يُطيل الهَمَّ في قلبٍ قَد ذابَ على ما أفضَى ندمًا. مَن أنهكه صبر الطريق ألِما، حاشَا لله أن يُضني له حُلُمًا.

يا بُنَي، لا يزرع الله الدمع في عينٍ غضَّت لله الهُدبا، ولا يخذل الله مَن تشظَّت قدمه في الدُّروب نُدبا، الآتُون مِن جوع الشَّهوات، ما كان صومهم عند ﴿ربك نَسِيًّا﴾.

قال التلميذ: كيفَ نَحفظ إيماننا؟

ردَّ الشيخ: إن رأيتَ منك إقبالًا عليه، فتلك عنايةٌ منه أبداها، وودائع فيك أخفاها، فاحفظْ إقبالك عليه يحفظك، وإذا بارَزَتْك الفتنة، فَفِر من أمامها حتى تنقضي أيامها.

يا بني، لا تضرُّكَ فتنةٌ ما دُمتَ تُغلق أبوابها وتتجَاهلُ أسبابها، وما تبلغ الفتن إلا ممن أشرع لها الأبواب، فلا يكن لسانك جسر فتنة، أو عينك منفذ الشيطان للمحنة، احفظْ جوَارحك، وعينك، وفَرجكَ بصيامٍ مَوعده الجنَّة.

يَا بُنَي، إن لله عبادًا ارتوتْ صَحائفهم مِن ظمأ العطش عَن الشَّهوة، ف ﴿سقَاهم رَبُّهم شَرابًا طَهُورًا﴾، صَاغُوا مِن آلام الثبات ﴿نَعيمًا ومُلكًا كبيرًا﴾،

كان الهَوى فيهم مَغلولًا، فأطلقَ خَطوهم في ﴿جنة وحُريرًا﴾، جعَل لهم مُفردة الخِتام، ﴿وأَصلَح بالَهُم﴾، ويوم القيامة تناديهم الجنَّة ﴿عرَّفها لَهُم﴾. عِبادٌ حمَلوا ثِقَال المعالي، وفي القلب مَنجم صَبر!

قال التلميذ: يَا سيدي، إنِّي لأعرفُ مَن ابتدؤوا في الطريق، ومِن الله ما حُفِظُوا!

قال الشَّيخ: لله مَع عباده عوائد، حاشَاهُ أنْ يجعلها بوائد. يَا بُني، والله ما حُرِموا الوصُول، إلا لتَركهم الاقتداء بالدَّليل. إياك إياك والتهَاون في الاتِّباع، ضَع الخَطو على الخَطو يعصمك، ومَن لم يلتبس في الخَطو إثمًا، فليسَ يَخطو حيث يُخطِي.

هو الحَفيظ، حاشَاهُ أنْ يجعلَ عاقبةَ سَعيْك مَأثمًا. هو الحَفيظ، يحفظُ آخِر الأنفاس أن تَنهدما.

يا بُنَي، إنْ أطلَقَت الشَّهواتُ عليك كِلابها، وهاجَ بك إغراؤها، فتبتَّل وقُل: مَوعدنا الصبح، أليسَ الصبْح بقريب!

قال التلميذ: اللهُمَّ اسْند وُقوفي بين يديك، ورسِّخ الأقدام فيما تُحبُّ، إنْ لم تَحفظني قائمًا، وَحقُّك سقَطتُ. اللهُمَّ إذا سَال دمع الحزن على القسَمات، يا الله احفظني مِن الهَمِّ، وإذا تحَدَّر الألم مثل اللهَب، فاحفَظني مِن الوجَع. سرِّي لك مَكشوف، وأنا إليك ملهوف، لي حاجةٌ جَعلت سَمعك سترها.

قال الشَّيخ: يَا بُنَي، لا يَنقطعُ الطالبُ عَن الباب، وحاشَا أنْ يَشقى مَن لازَمَ الدُّعاء.

المقيت

يا أبنائي، في الليل نَمُدُّ الأيدي الفارغة، ونرمِّم الأحزان الهشَّة، ونحكي لله أنَّ أحلامَنا على وشك الانهيار، وأنَّنا عالِقون في المتاهة. الوصلُ به غنيمة، فطوبى لِروحٍ غشَّاها مِن يقينِ الحُبِّ ما غشَّى. سبحانه هو المقيت فرتل اسمه، وقل: أنت المقيت، وأنا خالي الوِفاض، أنت مَن جَلَّ، وأنا مَن قلَّ. سُبحانه هو المقيت للأرض ومن فيها، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾. سبحانه هو المقيت، قدَّر أقواتها، فادخُلوها آمنينَ مِن نَقصِها! هو المقيت، قدَّرَ أقواتها لكلِّ البرايا، سَواءً سَواءً! هو المقيت، قدَّر أقواتها، فَدعْ المشيئةَ تجري بما حمَلت وما حملَت. هو المقيت، لِيَدِ الإملاق بالرِّزق، ورزقك إنْ لم تأتِه أتاك، ونحنُ بِغيب الرِّزق محنَتُنا. سُبحانَه، إنْ أعطى وإنْ مَنع، فأنتَ بذاك مُمتَحَن!

قال تلميذ: يا رب، هذي القلوب تئِنُّ، وما يَحمينا إلا حُسن الظنِّ.

قال الشَّيخ: يا بني، إنْ أعياكَ رَغيفك، وأخطأ السَّعي مَرماه، ووردتَ النَّهر ظمآنَ، فوجدتَ الخَيبة مجراه، وكاد القلبُ يقولُ: أين الله؟ وأحسَست ما بين النَّبضة والنَّبضة فزَعَ الخُذلان، فَقُل: أبرأُ إلى الله مِن فتنةِ الرزق.

يا بُني، أوَ ترضاه ربًّا في غَيثِك، وتأبى أقداره إذ السُّنون عِجاف؟! أوَ تنسَى أنَّ ما بينَ لاءٍ ونعم، امتحانًا مؤقَّتًا؟! سُبحانه، تسكُن لما في يَدِك، ولا تسكُن لِما في يَدِه؟!

يا بُني، الدُّعاء يَقي وآلاء الله تُغني، عَطاؤه يَفيض وفَضله يُغيث، فإنْ مَسَّكَ شَظف، فاجعَل الاسمَ ذِكرًا في شفَتيْك وافتح به خزائِن الرِّزق. الزم الذكر؛ به ترى الفرج، وعَلِّم قلبكَ وِرد ﴿ما بِكُم مِن نعمةٍ فَمِنَ اللهِ﴾، وأدِّب لِسَانك بِذِكر ﴿ولَئِنْ شَكرتُم لأزيدنَّكم﴾، ثمَّ قُل: لكَ الحمدُ في ذا وذاكَ.

يا بُني، مَنْ أَرَادَ تَعْجِيلَ النِّعمَة، فَلْيُكْثِرْ مِنْ دُعاءِ الْخَلْوَةِ.

قال التلميذ: مُنهَكون يا رب مِن فَراغ جِرَارنا، أعِنّا أنْ نَخرُج منَّا إليك.

قال الشَّيخ: كمائِن القُلوب تَظهَر عِند المحَن. اللهُ المقيت، فلماذا يَقتاتك القلَق؟! الله المقيت، فلماذا سِربُ عُمْرك حولَ اليأسِ يحتَشِد؟! قُل لَه: أنتَ المقيتُ فأعطِني القُوت، اللهمَّ هذه يَدي تنتظرُ ما في يَمينك، ويَمينك كلُّها يُمن، اللهمَّ يَدك فوقَ أيدينا، كَيْ نعبُر الطَّريق.

قال تلميذ: يا رب، كلماتي مُتآكلة، لكنَّ نبضي بها كامل.

قال الشَّيخ: إنَّ الله إذا تفضَّلَ امتلأَ الفَضَا، لو كانت الأرضُ تنصدعُ تَحتَك، فلا تُنزِل كَفَّك، كفُّك تشقُّ حُجب السَّماوات، وما بعدَ كفِّك إلا ﴿إنَّا مُنجوكَ﴾. كُلُّك مِن بعضِ الدعاء، وبعضُ الدعاء كُل الفرَج، إذا استجابَ لك رأيتَ الكافَ في عُمرك والنُّون.

يا بُني، مَا بين كانَ وكُن، ألِفٌ مَفقودة إذا شَاء الرَّب، وكُل غَيمةٍ دون الله ما لها مَطَر!

هو الله المقيت، إنْ كنتَ قائمًا بأمره، خَضعت لك الأسباب، وإنْ كُنتَ قائمًا لنفسك، نازعَتْكَ الأسباب، فلماذا بؤسُ القلب يتَّسِع؟!

قال التلميذ: اللهمَّ إنِّي ذو هِمَّة، فلا تَمتحني برزقٍ ضَيِّق، ووسِّع لي في دُروب الفَرَج.

قال الشَّيخ: مَنع النَّاس نَيْل حَوائِجهم ضَعف نِيَّاتهم، فأصلِح باطنك، وَكُل الحَلال، وطَهِّر الخِلال، فكَم مَنَعَ مَن فتحَ الْبَابِ أَوْزَار، ولو استَقمْنا لكانت الأحوالُ مُستقيمة.

قال التلميذ: أبوء بسِرِّي إليك، وقلبي غيرَ قُربِك لا يُريد، فقرِّبني إليك.

قال الشَّيخ: سبحانه هو المقيت، وربك لا تدفعه الجِناية إلى تَرك العناية وقطعِ الرِّعاية، يرزقك وأنتَ بعيد، فكيف لو كنتَ قريبًا؟!

قال التلميذ: أتيتكَ مِن قاعٍ يُهشِّمني، فداوِ جِراحًا تُنادي: يَا ربِّي إنعامًا.

قال الشَّيخ: كَمْ زَارَكَ الْخَيْرُ وَالأَبْوَابُ مُوْصَدَةٌ، فافتح أبواب الرزق.

قال التلميذ: دُلَّني!

قال الشَّيخ: الصَّدقة بداية الزِّيادة، فاجعلها أوَّل الميثاق، واذكُر أنَّ مَن حَرسَ النعمة بِجُهده، وشكَر عليها بِوسعه، زاده الله مِن جُوده، فتفقَّد رعايتك للنِّعم، ثمَّ إنِّي ناصِحُك بأمرٍ يُوسِّع لك في الرِّزق: الزَم الشُّكر، فإنَّه الحافِظ الجالِب، يَحفظ النِّعم الموجودة، ويجلبُ النِّعم المفقودة، وزكِّ دَربك بالحَلال، فإنَّ الحَرام يَمحَقُ الأرزَاق، فلا تَخلِط الخَطو، فهذا اليَمين وذاكَ السَّراب. إياك أن تَجمع

الأوزار لِنفسك، ولأهلِك الأموال، وما بعد مَوتِك، إلا القيلَ في الميراث والقَال! فَزكِّ دربك ثم قُل: اللهمَّ أنتَ المقيت، فَهبْنا رِزقًا ما فيه شوائب الشُّبهات، ولا تَجعل نَصيبنا ما عجَّلته لنا مِن مَواهب الدنيا، بلْ واجعلها مما ادَّخرتَه لنا في العُقبى.

قال التلميذ: يَا رب، أنت المقيت، نسألك مِن مَكنون غَيبِك وخزائِن فَيضك.

قال الشَّيخ: يا بُني، ما أبعدَ الشَّوط بين الأنَا والمنى! ما أبعد الشَّوط، إنْ لَم يُعن هُو! فإنْ وهَبَك، رأيتَ الفضلَ في عُمرِك قافلة، وانتهت المتربة.

الطَّيب

قال تلميذ: يا رب، هَل بلغَ الدَّمع ما كُنت أرتجي؟

قال الشَّيخ: يا بني، مَا بعدَ الدعاء إلا النَّماء، وإنَّ البقَاء في رِحاب الله، بقاء، وبه وحده تَرحَل من مَتاهة الحيرة، إلى سَعة الخيرة، وحَسبُك الله حرزًا، إذا خيفت سِهام النوائب، يا بني، الذين اكتملتْ مُناجاتهم في الصلاة، انبثقَ لهم مَا كان مُنْدَثرًا.

قال التلميذ: يَا سيدي، علمنا مما علمك الله.

قال الشَّيخ: يَا بُني، كُلُّ المهالِك في سجودك تنقضي، والبؤس يُنسَى، والمواجع تنتهي! إياكَ أن تلقي سلاح الدُّعاء، واعلم أنَّ الخَلاص الوحيد أنْ ترفَع قلبَك للسَّماء، ولَئِنْ تَرُد همَّك إلى الله -عز وجَلَّ- ساعَة، خَيرٌ لكَ ممّا طَلَعت عليه الشمس. اسمَع السَّلف وهم يقولون: إني لَأسألُ اللّه ما أُريدهُ في صلاتي حتى أسألُه الملح. فأكثرْ من قَول: اللهمَّ اكفني هَمَّ الرِّزق، واكفني كُلَّ هَمٍّ وغَمٍّ دون الجنة، واكفني شرَّ ما علمتَ مما كَان ومما يكون.

قال التلميذ: إلهي، تعلَمُ ما نقولُ قبلَ أن نقول، يا أوَّل المطلوب ويا آخر الرَّجا.

قال الشَّيخ: يا بُنَي، أدِم رفعَ يديك طويلًا، فإذا أرخيتَ ساعديك، اشدُد على الغَنيمة، (وقَد تُفتحُ الأبواب، بعد تمنُّعٍ للصابرين وتُكسَرُ الأقفَال)!

قال التلميذ: زِدْنا زِدْنا مما علَّمك الله.

قال الشَّيخ: اذكر أنه هو الطيِّبُ، لا يقبَلُ إلَّا طيِّبًا، وإليه يصعد الكلم الطيب، ومَا سوى ذلك مَردودٌ.

يَا بُني، (الحجَر المغصوب في الدار، رهنُ خرابها)، ففتِّشْ في نيَّتِك وسعْيك وأحوالِك، عما لا يقبله الله، وتخلص منه حتّى لو كَان صَغيرًا، وقد قيل لسفيان: لو دعوت، قال: ترك الذنوب هو الدعاء.

يا بني، إنْ سَلِم المركَبُ، حمل مَن فيه وبلغ. يا بُنَي، هَذا الاسمُ خارطةُ الوصُول.

قال التلميذ: كَيْف؟

قال الشَّيخ: هو الطيِّبُ، لا يقبَل إلَّا طَيِّبًا، فَخُذْ بِحُطام نفْسك، وطَهِّر سِرَّك، وأصلِحْ فاسِدَك، وجَرِّد نيَّتَك، وكَثِّرْ عتادَك، تَثبُتْ في الطريق قَدمُك، وَتُرفَعْ لكَ صُحُفُك. تصدَّقْ بنفسِك على نفسِك، ولا يَكُن هلاكُك مِنك!

قال التلميذ: مَا فَهِمتُ!

قال الشَّيخ: تصدَّقْ بِتَرك ما يُبعدك، عساهُ يُقرِّبك، استشرفْ بباطنك مَا عند الله، يُعِنْك على ظاهِرك، وسائلْ نَفْسك: أينَ أنتَ؟ وما لَه فيك؟ ومَا عليكَ مِنك؟

يَا بُني، لا تَفُوزُ بقربه، حتى تُبعِدَ القواطِع عَنك. يا بُني، يؤتى بالصَّحيفة يوم القيامة، فإذا بسائِرِ العُمر يَدلُّ على غابره، وآخره يَدُلُّ على أوَّله، كأنه سَبيكةُ إيمانٍ لم تَخْدِشها أعوادُ الفِتن!

عِبادٌ، دَفنوا غَوايات الصِّبا، واصطَبروا، ومَا يَكونُ اكتمالك غَدًا إلّا أنْ تحيا في اتِّباع الهدى، ومَن أكَل الحَرام، عصَتْ جوارحه، شَاء أمْ أبى، فَطيب كُلَّ أحوالك.

قال تلميذ: يَا رب، إنْ غلبَ النُّفوسَ هَواهَا، فآتِها أنت هُداها.

قال الشَّيخ: طَيِّب لسانَك، وطَيِّب الكلمات والنِّيات والخطوات، وَقُل: اللهمَّ اجعَلنا ممَّن قلت فيهم ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

يَا بُنَي، طَهِّر لسانك من نجاسةِ الغيبة، وشين القَول، ومَن جَرَّد النَّفس عن شائنات الخَلق، زيَّنه اللهُ بزينةِ الحقِّ، وأكرمَه بمقام ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، فإن فعلتَ ذلك، وُهبْتَ ﴿لَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾.

قال التلميذ: يا رب، إذا غَفلنا فأيقِظنا، وإذا فَسدْنا فأصلِحنا، وإذا بَعدنا فقَرِّبنا، أنتَ القادرُ ونَحن الضُّعفاء.

قال الشَّيخ: يا ولَدي، اعْقِد مَع الله ميثاقًا مِن الشغَف، ولا تخرم نيَّتك، واثبُت على العَقد، وكفاكَ تقَلُّبًا، وطَيِّب الأصل والفروع، عساكَ تبلُغ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. قُل لَه: يا رب، هَأنذا تركتُ مَا أهوى، لِمَا أخشى، فابقَ لنا، فأنتَ الأبقى.

قال التلميذ: يا سيِّدي، إنْ طَيبنا الأحوال، فما أمَارةُ القَبول؟

قال الشَّيخ: أمَارةُ قَبولنا بين يديه، دَوامُ النُّزول بِفَنائه ونوالِ عطَائه، وأنْ يهبَكَ عِشقَ الطريق، أنْ يجعلَ عُمرك ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾. فَقُل: اللهم أجْلِسنا على بِسَاط القُرب مِنكَ، ولا تَحجُبنا عنك، لا تُخرِجنا من مقاماتٍ وهَبتَنا إيَّاها على فقرنا، قَرِّبنا إليكَ في ﴿مَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾، وامسَح بيدِ العافية عِلَّتنا، ولا تقطَع عنا مَزيدَك، ولا تنقص لنا مسَرَّة.

يَا بُنَي، لا تُمهر الدنيا دينَك، وارفَع عن جيفتها طَرفَك، وَقُل: أعوذُ بك أنْ نلقاكَ بخلوِّ الصاع، وَقصرِ الباع، وشَهادةِ البِقاع.

قال التلميذ: يا رب، العَفوُ بِساطٌ، يطوي ما عَليه، عسَاك عفَوتَ عما مضَى.

قال الشَّيخ: اللهمَّ آمين، اللهم اسْلُكْ بِنا سُبُلَ الْوُصُولِ إلَيْكَ، وَسَيِّرْنا في أقْرَبِ الطُّرُقِ لِلْوُفُودِ عَلَيْكَ،

قَرِّبْ منَّا الْبَعيدَ، وَسَهِّلْ عَلَيْنَا الْعَسيرَ الشَّديدَ، وَأَلْحِقْنا بِعِبادِكَ الَّذينَ هُمْ بِالْبِدارِ إلَيْكَ يُسارِعُونَ.

الحسيب

﴿إنَّ معَ العُسْرِ يُسْرًا﴾، قالها مَن له في الكَون تَصريف القَدر، وإذا أُنيحَتْ عنده الحوائج، حمَلَتْها رواحل الأقدار، فعبَروا بها ما لا يُعبَر! ازدحمتْ على بابه الحوائج، ولديه من قَبل السؤال، سؤالها، سُبحانه، مَن اتَّصل به، هَل يُضام؟! ومَن دعَاه، هَوَّن له الكُرَب العِظام. هو الله، ﴿الذي يرَاك حينَ تَقوم﴾، فما ظَنُّ السائلين بدمعةٍ وكفَّين الله يراهما؟!

هو الحَسيب، فما تَسقُط من ورقةٍ ولا دمعةٍ، إلا واللهُ يَعلَمها! فأتقن خلوات الإجابات، زمن تطوى فيه رزايا المحن، وهو الحسيب للآه والكلم، وما ضج بالحرمان فضعه بين يدي الله.

يا أبنائي، رُؤيَ عمران بنْ مُسلم في المنام بعد الموت، فَسُئل كيف حَالك؟ فقال: يُراح ويُغدى علينا بِرزقنا في الجنَّة، فقيل له: بماذا؟ قال: بالضَّمير الصالح.

يا الله! كلَّما العبد تخلَّى، من الله تحلَّى. سُبحانه، رَبٌّ تطيعه في السِّر، فَيُدخِل إلى غَيبك لطَائف البِرِّ! ومن فرَّط وجد غِب ذلك!

هو الحَسيب للذَّرَّة، ويُحصي اللَّفْظَة والنَّظرة، وهو الحَسيب للكلمات إذا انتابها اللغط، وللخطوَات إذا انتابها الشَّطط.

هو الحَسيب لمن خَلطوا الشُّبُهات فِي الشَّهوَات، ونسوا أنَّ في انتظارهم ساقي الممَات!

قال تلميذ: يَا سيدي، سأفضي لك بأمر، إني بُليت بِنَفسٍ لَا يَزَال هَواهَا يَقُود إِلَى نَارٍ تَدور رحَاها!

قال الشَّيخ: يَا بُني، (إِن أردْت النَّجاح والفَوز بالمنى، فَخَالف من النَّفس الكَنود هَواهَا، وَلَا تتَّبعها فِي السلوك فَإِنَّهَا، تُضلل عَن نهج الهُدى بعماها)، والتوفيقُ رِزق.

قال التلميذ: بمَاذا يُحرَم العبدُ التوفيق؟

قال الشَّيخ: مَن وقَف على الرُّخص، سُلِب التَّوفيق، ومن رتَع في المكروهات، حُرِم التَّوفيق والسَّداد. وعلامة الخُذلان حرمان الخير مَع وجود أسبابه، وما يَمنعك من العمل إلا كثرة الزَّلل، فتفقَّد شأنك، فإن رأيتَ المنع، فَصحِّح المسَار.

قال التلميذ: يَا سيدي، ما لنَا كُلَّما ارتفعنا هَوينا؟!

قال الشَّيخ: لأنَّ إتمام الخَير أشَد من بدئه، ومَن عَزم على أَمر، هَيَّأ آلاته.

قال التلميذ: كأننا بلا عزائم، ولا هَمَّ لنا إلا الغنَائم، يَا رب، مَن يُنهي ليْلنا العاتي؟

قال الشَّيخ: اسمَع يَا بُني، إنَّما يولد الإثم في بداية الزلل، ﴿إِذا مَسَّهم طَائفٌ﴾، وَيكبر فِي وَسطه، ﴿كلا بلْ رانَ على قُلُوبهم﴾، ثم يجثم فِي آخره، ﴿أم على قُلُوب أقفالها﴾، وبعض الذُنوب ﴿ظُلماتٌ بعضُها فوقَ بَعض﴾.

يَا بُني، معصيةٌ من شهوة، يُرجى لها المغفرة، ومَعصيةٌ مِن كِبْر، فمآلها مآلُ مَن سَنَّها إبليس، واحذَر

(أنْ تقول في دينه بهواك، فيسلب تَقواك، ولا تتِّهم الله في باطنك، فيَدعَك لاجتهادِك ولا يكفيك).

حاسب نفْسَك قبلَ أن يُحاسبك، واسمَع أحوال السَّلف، يقول البُخاري: ما أعلَم في مالي درهمًا من حرامٍ أو شُبهة، وما اغْتبت أحدًا مُنذ علمتُ أن الغيبة حَرام.

هو الحسيبُ لما دقَّ، ترى العبد يقصِّر في طاعة الله -عَز وَجل- فيسلبَه الله مَن يؤنسه، ومن أساء استوحَش.

قال التلميذ: يا لِغَفلتنا! اللهم خذ بنواصينا إلى طاعتك.

قال الشَّيخ: يا بني، (مَزِّق بيد الجد أَثوَاب الفُترة، وتأهب، فَمَا تدْرِي السَّير عشَاء أَو بُكرَة)! أسفي لمنقطعٍ دون الرَّكب، مُتَأَخر عَن لَحاق الصَّحب، يَعُدُّ السَّاعَات فِي مَتى وَلَعلَّ، ويخلو فِي عَسى وَهل!

قُل لنفسك: يا كاسب الخْطَايَا، بئس مَا كسبت، جمعت جُمْلَةً من حَسَنَاتك، ثمَّ اغتبتَ، وَحُصن دينك، ثَلَمت لما ثَلبت، وَأَنت الَّذِي بددتَ مَا حَلبت!

قال التلميذ: يا الله! كيفَ نَثبُت على الطاعَة؟

قال الشَّيخ: مَن طلبَ اليقَظة، وصاحب أهْلَ الغَفلة، فَمحالٌ بلُوغه!

قال تلميذ: اللهمَّ إنَّ ذنوبي تخوِّفني منك، وجودك يُبشِّرني عنك، فأخرِجني بالخوف من الخطايا، وأوصِلني بجودك إلى العطايا، حتَّى أكونَ غدًا في القيامة عتيق كَرمك، كما أنا في الدُّنيا رَبيبُ نِعَمك.

قال الشَّيخ: سأدلُّك على شَلَّال المغفرة، فأنصتْ لي، لا تقطع الاعتذار، ولو رُدِدت، وإن فُتِح الباب للمقبولين دونك، فاركض إليه، وابسط كفَّ ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا﴾، وإذا أرهقتكَ معصيةٌ، فزاحمها بالطاعاتِ، فإنَّ الطاعات ما اجتمَعْنَ على معصيةٍ إلا غَلَبْنَها، ورَدِّد على نفْسك: هذا أوانُ نَقْل المتاع من (دار الجهاز إلى دار المقام)، عسَى القبر يكون نِعْمَ المسكن لمن أحسَن.

قال تلميذ: يا رب، أدبَر ما كَان مُقبِلًا، وأقبَل ما كَان مُدبرًا، واقترب حِسابنا، لَا تجْعَل نصيبنا مِنْك مَا عجَّلته لنا من مواهب الدُّنْيَا، بل ادَّخر لنا عنْدك مَا ادخرته لأهل سَلامَة العقبى، وَاجعَل الآخرة خيرًا لنا من الأولى. يَا رب، أنتَ الحَسيب لكلِّ ظُلمٍ يَجري.

قال الشَّيخ: يَا بُنَي، يُوزن العَدل حتى يُوزَن عدل المعلِّم بين الصبيان، فإن بَخس كُتِبَ من الظّلَمة، ويومها لا شيء سوى ﴿وكَفى بنا حَاسِبين﴾. يا ولدي، إن العبد إذا قَصر في العَدل، ابتَلاه الله بالهُموم.

يا بني، إنْ كَمنوا للإسلام وراءَ نباهم، فَقُل: ﴿وكفَى بالله حسَيبًا﴾، وإنْ شَدُّوا للدُعاة حِبال المقصلة، فقل: ﴿وكفى بالله حَسيبًا﴾، وإن رأيت المآسي صَارت سجلًّا، فَقُل: ﴿وكفى بالله حَسيبًا﴾، وإن نالَك من كَفِّ أخيك خِنجَر فَقُل: ﴿وكفى بالله حَسيبًا﴾. هو الحَسيب، وذلك يَكفِي!

الرقيب

قال الشَّيخ: الأسماءُ زادنا لغربةِ يوم القيامة، إذا مَا مَضت قوافل العُمر نَحوَ الآخرةِ مُوَدِّعة.

يا أبنائي، هَل تَمُرُّ الأسماء في العمر دون صَدى؟ أمْ تراها تُحيي في القلبِ ما غفَا؟

الرَّقيب، كيفَ تَحمِلك على السفر إلى الله؟ كيفَ تَغْسلك من رائحة الشهوة؟ كيفَ تَهُزُّ الفتن حتى تَساقط عنكَ، فلا يَبقى في المخابِئ منها شيء؟

هو الرقيب، إذا ألقتْ الطبيعة فينا الجَمرة في النار، وكِدنا أن نكون هَشيمًا حَطيمًا. وكُلما فَتحت الشهوة بابًا، رأيت إيمانك بالرقيب يُغلقه عَنك، فأنت حينها كبرياء الإيمان، إذ قال للمَعصية: لا. وإذا تحقَّقت المراقبة؛ حَصل الأُنسُ بصحبة الله. هذه الأسماء الحُسنى، تُرشد صاحبها للمَخرج، فاهدِ لله عمرك، وانذِر له السَّرائِر.

قال تلميذ: اللهُمَّ صَفِّ بَواطِننا.

قال الشَّيخ: السرائِر تَنضَح بما فيها، والخلائق إنما تَستنشقُ مَا يَفُوح. فيَا للمعاصي كيفَ (أثَّرتْ ثُمَّ عثَّرتْ)! وسُبحانَ مَن أظهر دليلَ الخَلوات في قُلوب العباد؛ محبةً أو بُغضًا!

يا ولَدي، يَستيقظُ السِّر الخَفي في المحشَر، ويُسمعُ لدبيبه صَوتٌ في الموازين ﴿وَكانَ اللَّهُ عَلَى كلِّ شيْءٍ رَقِيبًا﴾. يُسمعُ نَشيج الغَرائز العَميقة التي انتصرَتْ عَلينا، ﴿وَكانَ اللَّهُ عَلَى كلِّ شيْءٍ رَقِيبًا﴾!

يوم القيامة يسَأل الرقيب العَبد عَن الذُّبول الذي لاح به قلبٌ ما، وفي القيامَة، للنية وَزن، وزَغل العَين محسوب، ﴿وَكانَ اللَّهُ عَلَى كلِّ شيْءٍ رَقِيبًا﴾. تَصعد الشهوة بصاحبها قليلًا؛ ثُمَّ تَهبط به أبَدًا، يا الله! (أيُساوي ما تَناله من الهوَى لَفظ عِتاب؟! فكيفَ إن أعقَب العِتاب عِقاب)؟

قال التلميذ: يَا الله! مَا أشَدَّ صَوت الإثم في حَياتنا!

قال الشَّيخ: (متَى سَلَّمْتَ القلبَ للشَهواتِ، نَهَشْتَ عَزائمه للنهوض)، فلا تراهُ إلا مُكبَّلًا محرُومًا! (فاجعَل للقيامة مَوقِفًا، فَلو قيل لكَ: متى آثَرْتَ الله على هَواك؟ قُلتَ يَوم كَذا ويوم كَذا). رَتل على قلبك، هو الرقيب، واسأل الله ألا يَخْذُلك!

قال التلميذ: مَا الخُذلان؟

قال الشَّيخ: للخُذلان بداية، هي النِّسيان، وخَاتمة الخُذلان أن تألَفَ مَا كُنت تَستَنكِر، انظُر أينَ عَلِق قلبك، وتأمَّل مَاذا جَذَبه، واخْشَ أنْ تكونَ (ممن خُتم له بفتنة، وقُضيَت عليه آخر العُمر مِحنة، وكان أوَّل عمره خيرًا من آخره)، راقِب ميزانك يَا ولدي، امسك ميزان الحِساب، (فَأدِّ ما عليك، واجتَنِب ما نُهيت، والزيادةُ بعد ذلك نفْل)!

إنْ ضَعُفْتَ عن حَمل بَلائه فاستَغِث به، وإن أملك كَرب اختياره فَقِفْ بين يديه.

قال التلميذ: يا شِدَّة الوجَل عند حُضور الأجَل، يَا حَسرة الفَوْت؛ عند حُضور الموت، ويَا خَجْلةَ العاصِين، يا أسَفَ المقصِّرين، اقبضنا اللهُمَّ على مَا تراه خَيرًا لَنا.

قال الشَّيخ: الرقيب الحَسيب؛ أسماءٌ تبني لك سِياج التقوى، ترَى المتَّقي في حَربٍ مع الشيطان، يُجرح ولكنه لا يُقتَل، فلا تَفُك اللجام بأيِّ وجهٍ، حينها تَلقى الله. والله كُل متَاعب العَبد في التقوى، أجور ليس يَعْلمها، وَوالله (مَن كانت التَقوى رأس ماله، كلَّت الألسُن عن تفسير رِبحه).

قال تلميذ: يا الله، (ما أنا في جُموعِ الأتْقياء إلا هَمزَتُهم المتطرِّفة من كلمة أتقياء)، هَبْني اللهُمَّ لحَاقًا بهم.

قال الشَّيخ: كلما التفَتَ القلبُ إلى الرَّبِّ ثبت، (ثُم اركبْ الحقَّ، وخُضْ إليه الغَمَرات، وكُنْ واعظًا لنفسك)، فالزم مجانبة المعصية، واحْمل النَّفس مكانًا قَصِيًّا عنها، فهذا الفيْصلُ الفاصل. استَغفر الرقيب، فإنَّ الذنوب خَطايا مُطوِّقة لأعناقِ العباد، و(القلبُ إذا قلَّتْ خَطاياه أسرعَت دُموعه)، واحذَر عُقوبة الحِرمان.

يَا ولَدي، هل تعلم أنَّ حرمان التقوى عُقوبة؟! وقد سُئِلَ السَّلف عن الغِيبةِ: مَا هي؟ فقالوا: هي والله عُقوبة الله -عَز وجل- يُحلُّها بالعباد إذا عَصَوه وتأخَّروا عن طاعته. إنَّ العبد إذا ألِفَ الإعراض عن الله؛ صَحبته الوَقيعة في عِباد الله! لِذا ترى

المتَّقي مُلجَّمًا، لأنَّه يُوقِن أنَّ هَمْسهُ صَوتٌ عَالٍ عند ربه، وأنَّ خافيةَ الفُؤاد مَرئية عند الله، وأنَّ طُول المهلة لا يُنسي بَغتَة العِقاب!

قال تلميذ: ودَدْتُ لو صَحِبتُ الرقيب يستقيمُ لي ديني.

قال الشَّيخ: لا يَصحَب ربه مَن صُحبَته شَهوته، والالتفات حرمان، فاحذَر ثُم احْذَر، وقُل كما قال عُمَر: إلهي، أنا عُمَر الذي تَعْلَمه، وليسَ الذي تَعرفه النَّاس.

أنتَ السميع لمن اعترف بما اقترف، نَعوذ بك من نية في خاتمة الدرب، تَزلُّ بها القَدَم.

يَا ولَدي، ينهمرُ النور من الأسماء الحسنى، فاستَمسِك بحَبائل الأمَل، واسأل الله فواتِح التوفيق وخفايا اللطْف. مَن لازَم الأسماء، توالتْ عليه الأنوار، وانزاحَت عنه الأستار، وإذا همَّتْ بك مكائد الشَّيطان، فاستَعصم بالرقيب، وقُل: ﴿مَعَاذَ اللَّه إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، وقُل: نعوذ بكَ من فَقدِكَ بعدَ مَعرفتك، ومن غَيِّ النهايات، نعوذ بك من خَطوٍ يَنفَد، وعَمَلٍ لا يُحمَد؛ إذا حاسبْتَنا حِسابَك، سترْكَ غَاية مَا نَسأل، أنتَ الرقيب، فَعلِّمنا كيفَ لا نَغْفل.

القادر

هذي مفاتيحك فاقنتْ، واجعَل دُعاء الاستفتاح يقين ﴿فقَدرنا فَنِعمَ القَادِرون﴾، حينها سَتنهضُ لك المفاتيح، إن مَلكْتَها، جزتَ بها ﴿سبْعًا شدادًا﴾، ووهبَك قميصَ الجَواب! ومتَى أَعطى العَبدَ هذا المفتاح، فقَد أراد أن يَفتَح له، ومتى أضلَّه عن المفتاح، بقيَ بابُ الخير مُرتجًا دونه، فَقُل: يَا رب، بَدلنا ﴿متَى﴾ بـ ﴿أتَى﴾!

قال تلميذ: يَا قَادر يا قَدير يا مُقتَدر، بَدِّلنا ﴿متَى﴾ بـ ﴿أتَى﴾!

قال الشَّيخ: حاشَا لِسُؤلٍ بالأسماءِ ارتوى أنْ يَعطش. يَا بُنَي، في محراب الدعاء تُسطَّر أقدارٌ وتُمحى أسمَاء، والعبدُ بين قدرٍ مكتوب، وغَيبٍ مَحْجوب، فاستَنزل المطلوب بدعاءٍ موفور، وَقُل: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ اسْمِي فِي السُّعَدَاء، فَأَثْبِتْهُ فِيهِمْ، وَإِنْ كَانَ فِي الْأَشْقِيَاء، فَامْحُهُ مِنْهُمْ وَاجْعَلْهُ في السُّعدَاءِ. وفي الأسحار تُكتَب الأقدار، يُكتَب اسمٌ في مأتَم، وَيُكْتَب قلبٌ فيمَن نجَا، وكُل قَدرٍ يمضَى لتصريفه، ومن اعتكف، صانَه الدُّعاء، وتُطوى دُروب الحُزن عنه!

يَا بُني، لا تذهب للحُزن وحيدًا، خُذ معكَ الدعاء، لا تذهَب للطريق فارغًا، خُذ معكَ ما تيَسَّر من كثير الدعاء، قُل لَه: يَا رب، هذا القلبُ لا يَحتمِل جُرحًا آخَر، فاكتُب لي مُتَّسعًا مِن الفَرج.

قال التلميذ: يَا قَادر يا قَدير يَا مُقتَدِر، ما زلتُ في انتظار الأجوبة. يَا الله، مُتعَبٌ كأني مِن الرَّاسخين في الحُزن، فاجعل أنَّاتي آخِر مَا بقي من الحُزن.

قال الشَّيخ: هو المقتَدر الذي يَقدِر ويَدفَع، قُل استَعنَّا بالله على كُل حزنٍ لا يَنضَب، اللهم ارحَم فاقَتنا إلى كفايتك. هو المقتَدِر، اسمٌ لا تُعجزه باسقاتُ الأماني، فاصطَفِ لنفْسك مَا شئتَ من الدعاء، فإنَّ المجيب قَادر قديرٌ مُقتَدِر. هو المقتَدِر، اسمٌ ينفخُ في طين المنى رُوحًا، فأبصِر به، ثُم أبصِر، فإنَّما هَلاكُ القلوب مِن شَكِّها.

يَا بُني، تَرتَبِكُ الوقائِع أمامَ قُوةِ الدعاء، وهَذا العاصِف المنهَمِر، يدفعه الدُّعاء. يَا بُني، لله جُنودٌ يَهُزُّون جذع المستحيل، حتى تُساقط عليكَ العَطايا، ورُبما طَوى لك الفَرح، في الترح، ورُبما جعَل القُرب فيما نأى عَنْك، فَخلِّص قلبكَ من عتابِ كَان يكون، وأوقِفْه على يَقين ﴿كُن فَيكون﴾، ترَ ضُروع الإجابَةِ كأنَّها معنَى، ﴿يَعصرون﴾.

قال تلميذ: إياك عَبَدْنا فأوصِلنا!

قال الشَّيخ: يَا بُنَي، يَسمعُ أهلُ الجنَّة صَوتًا يقول: السلامُ عليكم يا أهلَ الجنَّة، فإذا هو صوتُ الله، فأيِّ حُزنٍ يبقَى؟! امْدُدْ قَلبك، ولو كانت الخُطى تتعثَّر، وَقُل: نَعَمْ يا إلهي، اللهم إني أشتاقُ القيامة كَي أرى وجهَك، فحقِّق يا إلهي حُسن ظنِّي، ثبِّتني فلا أنتَكِس، أعوذُ بك أن يخطفني الموت، وذنبُ العُمر مَا غَرب.

ثُم بكى التلميذ، كان وجهه وجهًا شاحبًا، يَستغرقُ في نشيجِ الخَوف.

قال الشَّيخ: قُل: يا الله، مدَّها مَدًّا، تَشُدُّ الياء صاحبها، وَيبلُغ النِّهايات، نحن بالدعاء نَتهجى ما نُريد، قُلْ: أنتَ المقتَدر القَدير، تعسَّرنا فيَسِّرنا، وَخُذِلْنا فانصُرنا، وجَهِلْنا فَعلِّمنا، وقَلِقْنا فَسكِّنَّا، واستَوحَشنا فآنِسْنا، وضَعُفْنا فقوِّنا، ورقَدْنا فأيقِظنا، وسألنَا فأعْطِنا.

يَا بُنَيَ، الذين يُطيلون السجود، يلتقطونَ المستحيل، تنسابُ التراتيل منهم، فتطفئُ ما بقي في الصَّحائف مِن جَمر!

ثُم نظرَ الشيخ إلى التلميذ، وقال: فَديتُ عينًا انهمَرتْ من خَشية الله، جَبهةً انحنتْ لله، وقلبًا مُضطربًا مِن حياءِ الله. اللهم اجعَلنا ممَّن ﴿تولَّوا وأعيُنهم تفيضُ من الدمع﴾. يا رب، في حنايَا الروح حنينٌ مُختنق بدمُوع الشوق، فاقضِ لنا حوائِجَ تَقدِرُ عليها ولا نَقْدر. يَا رب، حَوِّل أقدارنَا إلى أقدارِ السَّعادة واليُسر، وضَمِّد جراحنَا.

القريب

سلامٌ على الذاهبين إليه، سلامٌ على السائرين العطاشى استطابوا المقام بين يديه، يتسع الكون وتمور السماء بأشواق المقبلين عليه، تنثر الأسماء الحسنى غيم الإجابة ويسيل الشوق دمعًا إلى وصاله، يهتف محزونٌ، روَى اللهُ انتظاري فتشتهي الجنة دمع عينيه. اجمعنا اللهُمَّ عليك، يا مَن إليك القلوب مُفضية والآمال راجية.

تحمل الملائكة دمع الأسحار وتسقي بها الدروب فتينع آمالها، يرفع مشتاق كفيه، يا ربِّي قلبي يرفع راحتيه، ذابت الروح شوقًا إليك، أرِني أسماءَك فيما أخشى به البَوح، يا رب إليك نأتي، والتيسير يُجرينا، وعدٌ مِن الله، هذا الوعد يكفينا.

قال التلميذ: هأنذا مملوءٌ بشوقِ الأمنيات، وعلى رصيف الشَّوق، أسكُن هاهُنا، يَا رب، ما لا نعلمه مِن (الآتي)، تولّه أنتَ، واجعل العُمر طريقنا إليك.

قال الشَّيخ: قِف في ساحة الليل، ولا تخفْ دركًا ولا تخشَ الغَرقا.

يا بُني، متَى كان الضِّيق مَرتعًا للمعاناة، كانت الظلمة أجدر بالانبلاج، هو القائِل ﴿إني قريب﴾، فقم في الأسحار على قدم الاستغفار!

يا بُني، الذين يغيبون في نعيم المناجاة، يبلُغون فوقَ ما نَصِف، تخضَرُّ لهم المنى، وتحملهم ريح الأسحار إلى زمنٍ يفيض نُورًا، ينهمر تسبيحهم ثوابًا في الغُرف، يقتربون من القريب، وتكاد اللهفة تضيء لهم ما وراء الغيب، تَحار في أجورهم

الصُّحف، فيُكتب الحُب حبًّا، ويُكتب النَّحيب نحيبًا، ثمَّ يُختَم عليها إلى زمَنٍ تصبح فيه الحُروف حُقولًا! يؤتى بالدَّمعة، فتُبعث على هيئتها، تشهد لعبدٍ أنَّ متاعه في رَحله كان دمُوعًا، وترى في القيامة النَّبض بما نَبضَ مشهودًا، وبالحُبِّ شَهَدَ! وتَسمعُ ثواب الصَّلاة ينهمرُ في الموازين، فإذا النَّعيم فوقَ الحَمد ومَن حَمِدَ، وتُطوى الدنيا طيًّا، فَتتراءى الحسنات شفَّافة في عروجها، تهتزُّ نورًا لغائبها، تهمس لك، هذي الجنَّة فاسأل ما تشَاء، وعلى ﴿رفْرفٍ عبقريٍّ حِسان﴾، تراه هناك، يرتِّل بصوتِ القبول: طِبتمْ! فتستلُّ روحك وتهمي إليه، يضمُّك غيمٌ خفيف، تضيق حروفك من سعة الشوق، وتشتعل بكاء، وتناديه: هبْ لي يدك يا رسُول الله أروي بها ظمئي.

مَسح الشيخ وجهه بِطرَف كُمِّه، ثمَّ قال: يا رب تقبَّل منَّا الحُب، إنَّ الحُب قُربى لا تُتلى على ورَق، الحُب بَوح الرُّوح، فاملأ يا ولدي جِرارك به، عساها تبعث لك مبتلَّة بحنينِ الله يَسمعه، ربنا أحببناكَ فقرِّبنا إليك.

بكى تلميذٌ وقال: يا رب، وافيتُ بابكَ، فوجدتُ قلبي بالشوق يتَّقد، يا مَن استوى على عرشه، أسألك أن يستوي قلبي على قُربك.

قال الشَّيخ: أنت القريب إذا عَرِقَ جبيني، وساخت قدمي، ونضبَ وجهي، أنت القريب لآهاتي المبحوحة مِن جرحي، أنت القَريب مَن عبدٍ، كَاد أن يغرق في بحر البُعدِ، أنت القَريب، فيا مَن نجَّى موسى بِخَفِيِّ الألطاف، نجِّني مما أخاف، أنت القريب، فزمِّل روحي من هَجمة الغَسق، ومِن وسواس الجَزع.

قال التلميذ: أنت القريبُ إذا سالَ الشَّك في قلبي، وخنقني ارتباك البَوح يا ربِّي، أنت القريبُ إذا أضرَمت الآهُ بعد الآهِ بالحرمان في قلبي، أنت القريبُ السميع، والصَّمت يملكني ويهلكني، أنت القريبُ الرَّحيم، والحُزن في قلبي مُكدَّس، أنت القريب الرَّازق، إذا بلغتُ باليأس حافَة الصَّبر.

قال الشَّيخ: الإيمانُ أن تدعو رغم صَمت الأبواب المقفَلة.

قال التلميذ: أهتِفُ يَا الله، فيخنقني نَحيبي، وشوقي ليس ينقطعُ، أهتفُ يا ربِّي، أمُدُّها حتى تبلغَ العرش وأخفض جناحي.

قال الشَّيخ: يا بُني، إنَّ لك ربًّا يواسي حُزن الخائفين، هو القريب وأنتَ تواري دمعةً الله يَدريها، ومَن كان الله همَّه، بورك له في حظّه. لا تخف؛ الأماني بِقُربٍ رغم البعدِ.

قال التلميذ: أضعتُ نفسي، فأرجعني إليك.

قال الشَّيخ: تنسكبُ لك الخزائن فضلًا، إذا غادرتَ منفاكَ. يا بُني، الذين يتكبَّدون عناءِ الوصول لله، يبلُغون، والذلُّ ثمَن الوصْل، إنَّ الله يجزي مَن يحمل رَحله للآخرة، وما له إلا الدموع متاعه.

هو القريب الرَّحيم الكريم، فبادر أيامك، واحذَر آثامك، واجعل دُنياك رحلة الأجر.

قال التلميذ: كرَمك أعظم مِن ذنبي، وَعفوك أعظم من عُذري، أعوذُ بك من حسرةٍ لا تُقال، وتوبةٍ لا تُنال، اللهُم اجعل الجنَّة نصيبي، واجعل مع صَدقتك عليَّ ودًّا.

قال الشَّيخ: إنْ شئتَ ودَّ القُرب، فوالله ما دون القُرآن مِن قُرب، ولا بَعده بُعد.

قال التلميذ: ثُمَّ مَاذا؟

قال الشَّيخ: ومِن الفاتحة يبدأ كُل شَيء، كلَّما أكثرتَ (الحَمد)، قال الوعد لك: (سَمِع اللهُ لِمَن حَمِده)، والحمدُ مَدارج القُرب، وراعِ يا بني الأدَب، فإنْ كان القَدر لك، فلا تبطَر، وإن كان عليكَ، فلا تضجَر، إنَّ الضَّجر يقطعُ ما بينك وبينه.

قال التلميذ: عَفوكَ، أثْقلَتْنا الأسئلة، فهَبنا تأويل الإجابات.

قال الشَّيخ: يا بُني، إذا سجَدتَ فقُل: يا رب، قلبي مُترَعٌ بالآه، امنحني القُدرة عى الأمَل، واحفظْ قلبي مِن أنين الانتظار.

قال تلميذ: لستُ عَجولًا، ولكنِّي حافي وطَريقي الثَّرى، ألَسنا رهنَ أقدارنا؟ يا شيخي، فمِن أين تنبجسُ الآمال؟

قال الشَّيخ: يا بُني، إذا عُدِم السَّبب، عَظُم اليقين. يا بُني، بالدعاءِ القَدر يشيرُ إليك، فلماذا يتلو قلبك اليأسَ؟! إيَّاك أن تشيخَ العين دموعًا، ويشتعل القلبُ يأسًا. يا بُني، لا تحيا سُؤالًا تائهًا، هو الله القريب المجيب، فاعبُر إلى فضله مثل مَن عَبروا، عَبروا إليه حُفاةً مِن أسبابهم، فقل له: آن الأوانُ، وحانَ الوقتُ، هبنا كل سؤلنا واجمعنا إلى الأقصى لفيفًا.

المجيب

لا سرَّ إلا الأسماء الحسنى! أسماء في سِرِّها الكَاف والنُّون، فاخلَع بُعدك، وحاول مِعراج القُرب، يناديك أنتَ: ﴿فإني قَريب أجيب﴾، فلا تكُن أنتَ البعيد، ﴿إنّي قَرِيبٌ أجيب﴾، تلك واسطة العِقْد، كأنَّها تقول للعباد: ادعوهُ، ادعُوه! فسُبحان مَن جمَعَ الأوجاع بالفَرج، سُبحان مَن ألَّفَ بين الدعاء والقُرب، فائتَلَفا!

قال تلميذ: ما القُرب؟

قال الشَّيخ: القُرب (طَيُّ المسافة بصدقِ النِّداء). افهَم المعنى، ﴿وقربناه نَجيًّا﴾، ثُم كان الثَواب ﴿ورَفعناهُ مكانًا عَليًّا﴾. يَا ولدي، قليلون مَن يصعدون فوقَ بُراق الدعاء، فقل: يَا رب، هَبْنا قُربًا يبلِّغنا مقام ﴿فاجتبَاه ربه﴾، وهنيئًا لمن بلغَ باسقات الحُلم مُعتكفًا.

قال تلميذ: عَفوك يَا الله، لا دَرب يحملني إليك.

قال الشَّيخ: للدعاء الله، لأنين الأحزان الله، وللآمَال الصامتة الله، وللجراح التي يرَشُّ عليها الملح الله! هو لله المجيب لمن في أقداحه ظَمأ، فلا تُبعثر يَقينك مَهما نَكؤوا الجراح فيك.

قال تلميذ: اللهُمَّ انتَشِلني، ثمة هَاوية سَحيقة، لو أفلت يَدي.

قال الشَّيخ: اتلُ ﴿إني قَريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾، وقُل: يا رب، مَسَّت لَواعجنا، فكَم أُجهش مِن صوت الدعاء زَمزمًا! ﴿إني قَرِيبٌ أجيب﴾، لا احتمال والله ولا تأويل، فقَد رأيناها عينَ اليَقين!

يا ولدي، هُموم الجِراح لولا صَوت الدعاء ما انطفَأتْ، والأكفُّ إذا رفعت تعود حُبلى بخَير السُّؤل مُثقَلة.

يَا بُني، ظَفر مَن هتَفَ: يا مُجيب. والله لا مَأوى لنا إلا قَوله: ﴿فإني قَريب أجيب﴾.

قال التلميذ: يَا سيدي، مَا قَيد الإجابة؟

تَلا الشيخ: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾، ثُمَّ رَفع يديه وقال: اللهُمَّ هَبْنا استجابةً ترزقنا بها الإجابة. ما المسافة إلى الله إلا تَوبة، تلك بَسملة البَدء، ولو ابتليت بمعصيةٍ فلا تتفكَّه بمعصيتك، فإنَّ ربَّك أرخى سِترهُ عليك، ولا تدري لماذا أرخاه. انتبِذ في أقصى نبضك، وهُز النَّفْس مُعترفًا، اسمع كيف يعلمك، ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾، إنَّ كَفَّ التوبة الممدودة لله هي كَفُّ القَبول.

قال تلميذ: يَا رب، يشكو قلبي ولا ينطلق لساني!

قال الشَّيخ: ابسط حوائجك في سرِّ النَّجوى، فهو قَريب، يسمعُ مَن أَثقَل الكِتمان صوتَه، قَريب، (وبقربه كُلُّ المضائق تتَّسِع)، ادعُ الله بلهفةِ الفقراء إلى استمطار الرزق!

يَا بُني، (تشتَد تشتَد، حتى إنْ خوى أمل، أحيا الكَريم من التيسير آمالًا)، واعلَم أنَّ خير المناجاة ما كانت تُخفى وتُستَر، وبالدعَاء نَجمع من الآمال مَا انتَشر.

يا بُنَي، شتَات القلب لا يُلَملمه إلا بَسط اليدين بالدعاء، والقِتال يَكون بالدعاء، كما يكون باليَد، قُل: يَا كَنز المعدَمين، ويَا ذُخر السَّائلين، رد عليَّ دعائي غيثًا مطيرًا، وأنتَ مُنتهى التَّمني، واكتُب لنا مَددًا من التوفيق. لك الحُب يا الله، ما أبقيتَ لنا في القلب نبضًا، لكَ الدمعُ، (مَا قَرَّت قلوبٌ بما اقترَفَت).

قال التلميذ: يا سيدي، هَل يُنقذنا الدعاء من الطُّرق البائسة؟

قال الشَّيخ: قبلَ أن تسأل الله أن يُجنِّبك المضائق، اسأله أنْ يُجَنِّبك القنوط.

يَا بُنَي، لَمْ يترك لنا القُنوط جَمرةً في تنُّور الأمل إلا أطفأها، فقُل للمتَمسِّكين بالدعاء: لَن تَروا خُذلانًا.

قال التلميذ: يا سيدي، مَا ضمان الإجابة؟

قال الشَّيخ: غالب الضمان؛ في حُسْن الظنِّ. أيُّها السامعون رَجْعَ دُعَاهمُ، دون ردٍّ أو بالردود تخيبُ، فَلو أنَّ النُّفوس تَعلو قليلًا، بدُعاها أجابَهُنَّ المجيب.

يَا وَلدي، (الشِّدةُ بتراءُ لا دوام لها؛ وإنْ طَالت)، فقل: اللهُمَّ ارزُقنا زمَنَ (قَد استَجاب)؛ بعدَ أنْ كُنا نُمَنِّي النَّفس (سيَستَجيب)، ومَا يقطع الدُّر مِن الضُّروع إلا جَفاءِ الحَالب، فلا تُوقف يَدك عن استمطارِ رحمة الله.

يَا بُنَي، كُل بلاءٍ ساقَك للدعاء فهو عَطاء، هو القَريب المجيب، فلا خُذلان مَع الاسم هُنا، تتبَّع الأسماء الحُسنى؛ تَرتَسِم لكَ مَلامِح النعيم.

يَا وَلدي، إنْ ضاقَ عليك المدى، فافسَحه بالدعاء، وإنَّ قَلبًا باللهِ اتَّصَل، مُحال دُعاؤه أنْ يُهزَم، ومَا دام درع الدعاء على المؤمن، فإنَّ السِّهام لا تَقع منه في مَقتل. هو مَن (رعى مَا فاتْ؛ كيف لا يرعى ما هُو آت)! ومَن وُفِّق للدعاء في الثُّلث الأخير من الليل، فقَد هيَّأ الله سُؤلَه للإجابة.

(اللهُمَّ إن خَلقَك يَقْتاتون مِن وجَع)، وَيحتسون أنينَ الصَّبر والألم، فلك الحَمد أنَّ يديكَ دومًا مبسوطتان، ولكَ الحَمد على كُل غِنى بكَ عمَّا سواك.

اللهُمَّ إذا انزوينا في عَتمة الكَفن، ورأينا قَولك: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾، فاجعل اللهُمَّ الأكفانَ بالقُرب منكَ أكنافًا تأوي إليك، اللهُمَّ اجعل مَحْيانا ومَماتنا في الصَّافِّين المسبِّحين، لا هَمَّ لهم إلَّاك. يَا رب، يُهَرول العُمْر نحوَ لحظةٍ، بها يُطلُّ على فَجْر، ﴿وكانَ سَعيكُم مَشْكُورًا﴾. يَا رب، فارزقنا قُربًا منك يطوي البُعد، ويشفي بالإجابة كُل ما في الجُرح اندمَل. أنتَ المجيب، يَا مَن خَزائنك بكل الخَير مَلأى.

الواسع

كُلُّ ضِيقٍ باللهِ يتَّسع، وكُل ضيقٍ يَفسحه الدعاء، فإنْ مَنحك البَوح، فقد مَنحك الشِّفاء.

نثَر الشَّيخ كَلماته، فكأنَّ في يقينه وحيَ النبوة، ثُم قال: ولكلِّ حالٍ عند الله تَحويل، حَوِّلْ نَظر قلبكِ من الأشياء إلى ربِّ الأشياء، اخلَعْ نَعليك، واخلَع حَولَك، واخْلَع مِن نفْسِك الأنَا، وقُل: جِئتك بالفَقر يا واسع الغِنى، فإنَّ ﴿اللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، لكن الموقنين في خِضم الدعاء قَليل!

يَجمع لكَ الله في سورة طَه ﴿وَسِع كُل شَيءٍ عِلمًا﴾، و﴿زِدْني علْمًا﴾، فتعَلَّم كيفَ تقولُ: يا واسِع زِدْني. مَا يليق بالواسِع إلا الدعاء بـ: زِدني.

هُنا، سلال الغَيب تَنْثُر فَضلها، هُنا الواسِع، لمن قَرع الأبواب فنادى زِدني مِن فَضل ما لدَيك، رَبك يُعَلِّمك كيفَ تسأل، فَقُل: أعوذ بالله مِن سُؤلٍ بِلا أمَل.

قُل: يا مُهيئَ الأسباب، يا مَن بيده مَفاتيح الأبواب، يا واسِع، وَسِّع لنَا مخارج الفَرج.

قال تلميذ: أمَا ترى يا سيدي الحال؟ نَحْن نُراوغ الجُوع بالظَّمأ، ولا شَيء في الأُفق.

قال الشَّيخ: كَان الصَالحون يُوصُون بعضهم بالقَول: يا أهل الأكدار، أَدرِكُوا الأسحَار.

يا ولَدي، فَيضُ اللهِ هَل ينْضب؟! إذا نَزلت الإجابة، رأيتَ الفَرَج ينبلجُ من أضيقِ الحِلَق، واللهِ، (لو رِزقكَ في أقصَى الصِّين مَوجود، فَجوادُك مُعَدٌّ ومَسروج)، فخَلِّص يَقينك مما عَلق به، يُنجَز لَك الموعُود، فتعلَّم حينها معنى الواسِع العَليم. قُل: يا واسع يا عليم. ولا تشغلك الأسبابُ، فعلَى الله وَهنُ الأسباب، ومَشقَّة الطريق.

إذا مَا أرادَ الله إتمام حاجة، أتَتك على وشَك وأنتَ مُقيم! إذا ما أراد الله إتمام حاجَة، تَفْنى الأَميال وتَأتيك! تَجِفُّ في عُمْرك سُنبلةٌ، وتُبَعثِر الريحُ حُبوبها، فإذا الوادي سَنابل بالبُذور المخفيَّة، فَتُدرك حينها معنى الواسِع العَليم.

قُل: يا واسِع، ودَع القلب يتَّسع في مَداها. يَا واسِع، وَدع الخيال يَتمَلاها. يتَّسع القَلب، ويتَّسع الدَّرب، ويتَّسع الفرَج! قُل: يَا واسِع، فيَتَّسِع الرِّزقُ حتى تثور فيه بركة ﴿إنَّ هَذا لرِزقنا ما لَه مِن نفَاد﴾.

يَا ولَدي، مَن يفَتَتح عُمره بالأسماء، تبلُغه المواهب. يَا ولَدي، هَل تَدري ماذا تَفْعَل بنا الأسماء؟ إنَّها تُعَلِّمنا السُّكون إلى الله، تُعلِّمنا حُرية الروح مِن الاضطراب، تُعلِّمنا وَفْرة المتاح، لَو مَدَدنا أيدينا بالدعاء! وقَد قَال الله: ﴿نُوَلِّه مَا تَولَّى﴾، فانظُر في قلبك ماذا تَولَّيت.

قال تلميذٌ مِن آخر المجلس: واللهِ إنَّهم ليَضيِّقون حُظوظنا بالظلم.

قال الشَّيخ: اشْكُ للهِ، وقُل: لَئِن أخَّروا حُظوظي، فاجعَل يا مَولاي حظِّي منك واسعًا.

لا تُشغل قلبك بالهَمِّ على ما فَات، فيُشغلك الشيطان عَن الاستعداد لما هُو آتٍ.

قال التلميذ: أوَّاه مِن غبَش القلوب، أوَّاه!

رد الشيخ: يَا ولدي، (من يُكرم الغرسُ، حتَى تُكرَمَ البُقع). قَدِّم قلبكَ مَجلسًا في الدعاء، فَاللهُ بالأسْماءِ يَختبرُ إيمانَك، إنَّ (المطايا كَثيرة، لكنْ الإناخةُ ثَقيلة)، فلا تتَعثَّر بالشَّكِّ في الوصول إليه، وهو يقول لَك: ﴿وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. على قَدر السؤال يكون العطَاء، ﴿وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. ارفَع سَقْف مُناجاتك يقينًا بأنَّ الله الواسِع المعطي، ستَرى الكَون يَنهمِر.

قَال تلميذ كأنَّه يفترشُ الرُّؤى: سُبحانَه، وهَل حَدٌّ لِما يُعطي؟ وهَل حَدٌّ لِمَا يُنعِم؟

ابتسَم الشيخُ، وقَال: افْرحَ بربك، وَهُز حِبال الوَصل وقُل: أخرِجنا مِن حالِ الاضطرار إلى سعَة الفَضل، ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

يا ولَدي، مَن عرفَ الله بفَضله، أحسَن الظنَّ به، وما ورَدَت صِفةُ الواسِع إلا ومَعها وعدُ الفَضل، فَتَنبَّه!

ومن يقينِ الآيات قُل: يَا ربَّ البَشائِر، هَبْنا مِن واسِع فَضْلك، أنت العليم وكاشف الأسرار، ارزُقنا بُشرى ﴿فاستَجابَ لَهُم﴾. ارزُقنا سَعةً في طَاقتنا نَحملُ بها

أمانةَ التَكاليف، فلا نضيقُ فَنُستَبدَل، ارزُقنا سعةً تُخرجنا من كُل ضيقٍ ضاقتْ حيلتنا عَن الخَلاص منه، ارزُقنا سعَةَ الأوقات حتى تتَّسع الساعَات، فَيجري فيها ما لا يجري في آمادٍ مِن أعمار النَّاس.

يَا واسِع، وَسِّع على أهل غَزةَ في أرزاقهم، وسِّع مخارجهم، اللَّهُمَّ إنَّا على بُسط الاسترخاء، وَهُم في شدَّةِ الابتلاء.

قال تلميذ: واللهِ مَا الحياةُ إلا دُعاؤنَا، فيَا واسِع يَا عَليم، إنَّا نسألكُ مِن أنفُسنا مَا لا نملك إلا بك.

قال الشَّيخ: إنِّي مُخبركم بأَمْرٍ فأحسنوا فيه، ما حمل أحَدٌ هَمَّ الآخرةِ، إلا وسَّعها اللهُ عَليه.

يَا أبنائي، ﴿فَلِّلهِ الأسماءُ الحُسنَى فادعُوه بها﴾. طَهِّرْ صَوتَك، ثُمَّ ادعُ بما شِئْت.

الودود

قال الشَّيخ: كُل هَمٍّ تكاثَر، عند الله تَناثر، فَيا سنَد مَن لا سنَد له، هَيِّئ يَا وَدود لأقدامنا دُروب الفَرج، أنتَ الوَدود كُلما أدبَت أحلامنا، وهَبْتَنا مفاتيح الفرج، تلك الغنائم الباردة، فسَلْ يا بني واهِب الأفراح ما ترجو من الفَرح، وقل: اختم لنا بحُسن الختام.

يَا أبنائي، كُل دعاءٍ كان بِمَددٍ من الله، فواظِب عليه، وإذا قضى الله أمرًا يسَّرَ أسبابه، فاسألهُ، ثُم اعتكف على عبادة الانتظار. هو الوَدود، يُعيذك بالإجابة مِن ﴿سراب بقيعةٍ يَحسَبه الظمآن مَاء﴾، فلا ترى الإجابة منه إلا كَوقع القَطْر يُشفي السنين العجاف! هو الوَدود، اسم يطوي لك بُعد الآمال، ويجعل الإجابة قَاب قوسين أو أدنى. امْدُدْ كفك له؛ ترى المطر. قل: أنت الوَدود، وإنِّي مَسَّني الضر، (إني مَسَّني العَطب)، إنِّي مَسَّني النَّصَب. يا رب، إنا استودعناكَ من دُعائنا ما تقدر عليه ولا نقدر.

يَا ولدي، حسبُك أنَّ الله يعلم سِرَّك، فخلِّص القلب من أكداره، يصْفُ لك الطَّريق إلى وُدِّه، وما أقبل عليه عبدٌ بصدق إلا تودَّد إليه بالقَبول، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾. أبرم مَع الوَدود ودًّا ما انتقَض، والقلبُ يُملي على اللسان ما نبض! هو القائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾، وَعدٌ يفيض ببشارة القبول، والعبدُ المليء بالله مليءٌ بالود.

قال تلميذ: سُبحانك نولَد على فطرة الشوق لك، وكثيرٌ من الدعاءِ اشتياق.

قال الشَّيخ: هو الوَدود يرسل لك ما يوقظك حتى تناجيه، وهو يعلمُ أنه خير لك من كُل شيء. قُل له: بلّغني مقام (إنِّي نذرتُ لك ما في -قلب- مُحرَّرًا).

قال التلميذ: هذا قلبٌ سَخيٌّ بالحُب وربي.

قال الشَّيخ: قل: يا رب، امنُن عليَّ ببلوغ منزلة: إني أُحب عبدي فلانًا فأحبوه، حتى أرى عين اليقين، فيكون حُبك فيَّ كُل ما يرى. ناجِ ربك بالود وقل: أُحبكَ فَوق الحُبِّ حُبًّا، فاجعل الودَّ بيننا وبينك حبلًا مَوصولًا.

تنهَّد التلميذ، فقال الشيخ: التنهيدة فسحة، جعلها الله للمشاعر التي لا تُنطق ولا توصف.

قال التلميذ: والله لقد استعجمَ الحَرف، ونطقَ الدمع، إن للدموع في المحاريب نداءً إلى الله يفيض.

قال الشَّيخ: هذه الدموع مَطر ضِدَّ جفاف القلوب. يَا رب، هَبْنا مَواطن ودِّك، إنَّ ودَّك لطفٌ وديمةٌ وتحنان.

قال التلميذ: اللهم اجمعنا بك.

قال الشَّيخ: تجِده في قرآن الفجر، ﴿إنَّ قُرآن الفجر كَان مَشهودًا﴾، وعسى الظنُّ أنه بك أنتَ يا اللهُ كَان مَشهودًا.

قال التلميذ: يَا وَدود، لا تقطع الودَّ عنا.

قال الشَّيخ: (اركُض بقلبك؛ هذا الدربُ مُنفرد، السَّبق فيه لصادق الإيمان).

(لا تَستبطئ منه النوال، ولكن استبطئ مِن نفسك وُجود الإقبال).

حَدِّد سبيلك ثُمَّ قُل: ﴿وعلَى الله قصْد السبيل﴾. يا ولدي، (إنَّما أنت ما تميل إليه).

قال التلميذ: يَا سيدي، قد أحببناك.

قال الشَّيخ: إن أوثَق أعمال الصالحين عند الله حُب الصالحين، وقد كانوا يتواصون بهذه الحسنة. استَودِع الله ودًّا بينك وبين من تُحب، فإنَ الله لا تَضيع عنده الودائع، ومن رُزق ودًّا من أخيه، فليتمسك به. تعلَّموا الودَّ، كان أحدهم يقول: (إنِّي لألقى الرجلَ أبغضه فيقول لي: كيف أصبحت؟ فيلينُ له قلبي)، فاقطعوا مسافات الجفاء بلين الكَلم، (ومِن دلائل رقة قلب المؤمن، أن يتوجَّع لعثرة أخيه المؤمن إذا عَثر، حتى كأنه هو الذي عثر بها، ولا يشمت به)، ذاك ود يحبه الودود، فتعلم كيف تستنزل ود الله.

يَا ولدي، إذا خَلا العبد بمَحارم الله فانتَهكَها، نُزِع وده من قُلوب الخَلْق.

قال التلميذ: أعوذ بك من الذنوب الذاريات للقَبول، المانعات مِن الوُصول، اَللهُمَّ ودًّا لا ينقطع.

قال الشَّيخ: سبيل الود الدائم قوله تعالى: ﴿اذكُروني أَذكُركُم﴾، والله (لو استقرَّ يقينها في قلبك، ما جفَّت شفتاك).

يَا بُنَي، أيَسلِبُ الله قلبًا نورًا استضاء به؟! أيحبسُ الله لسانًا عوَّدَه الثناء عليه؟! فاحفَظ الودَّ.

قال التلميذ: عَلِّمنا!

قال الشَّيخ: أحسِن للنِّعَم، والرفق يصنعُ الفَرق، ويظَل التيسير بأمرك حتى يتَّسِق، الودود يحب الرفق.

يا بني، الودُّ منه يبقيك في عافية التيسير.

يَا بُنَي، إنَّ لله عبادًا يُحييهم في عافيةٍ، ويبعثهم في عافية، ويُدخلهم الجنَّة في عافية، أولئك أهل وده.

قال التلميذ: مُشتاقٌ إليك يَا الله.

قال الشَّيخ: لا تقِف في سَيرك، قف فقط حين تَصِل. شُد الرِّحال، فإنَّ مَن يطلبه الموت على غرَّة؛ حَريٌّ به الوجل. إياكَ وحافَة الطَّريق، وعلى عكازة العَرَج قُل: ﴿إياكَ نستعين﴾، و(إذا أقبَل العبدُ على الطاعة، بعثَ الله له صَوارفَ ليتبيَّن صِدقه، فإذا جاهَد وصبر وثبت، عادت هذه الصَّوارف عونًا له على الطاعة).

إنِّي موصيكم بأمر، يَا أبنائي، مَن أَنس بربه في الظلام، نُشِرت له غدًا الأعلام، ويُدرَك النعيم في الجِنان بنعيم القيام. وفي بيادر السنابل، لا ينبُت ما كان لغير الله، خُطى تنبُت بحرثها ياسَمين الجنة، ترسو في رُبى الفِردوس.

يا ولدي، ملَايين السنابل التي تميس راقصةً في حُقول الجمال، تموج مثقلة بالأجُور، مَا نصيبك منها؟ كُل صَدقةٍ حبة، وكُل حبة تفيضُ سبع سنابل، في كُل سُنبلة مائة حبةٍ مِن ألوان النعيم الخفيِّ، فلا تحرم نفسك ذاك الغيب العظيم.

قُل: يا رب، أسألك فَرح الزِّحام على أبواب الجنة، وأسألك زمن النِّداء للمزيد،

للحظَة النظر إلى وجهك الكَريم. وأسألك خفة العبور على الصراط، امحُ بنورك ظُلمتي، ورمِّم بلُطفك ما تهَدَّم مِن أركاني.

يا ولدي، كُل السبل لاستنزال الخَير دون الأسماء الحسنى؛ هي الوَهم الأعلى. تنشقُّ السماء، وتخفِق أجنحة العطَاء عليك، وما ترى الوقت من ثَمَّ إلا مُدَّة الصبر على انبلاج الإجابة. والله إن الأسماء الحسنى طمأنينةٌ رغم كُل الفوضَى.

قال التلميذ: عُمري دون أسمائك الحسنى يا مَولاي؛ قِفارٌ في قِفار.

قال الشَّيخ: رَتِّب أُمنياتك، وتوهَّج بأنفاس التوسُّل في النِّداء حتى يُقال: ذاكَ عبدٌ يُحَصِّن حياتَه بالدعاء، ويُحصِّنُ الآخرةَ وزَمن اللقاء!

الحميد المجيد

قال التلميذ: خِفافًا قد تركنا كُلَّ شيءٍ، وجِئنا بابك العالي لترضى.

قال الشَّيخ: إنْ كان في الليل قُرآن ومحراب، سيَفتح اللهُ أبوابًا وأبوابًا، فلو رأيت البحر ما انفلقَ، وآنستَ نارًا فما وجدتَ قبسًا ولا أملًا، وكلّما سِرتَ في النَّفق، مُدَّ لك نفق، وحَطَّ المغيبُ على أحلامِكَ، واسَّاقطتَ همًّا، فقُل: يا مَن عليه المعتَمد، وبه تنحلُّ العُقَد، يا مَن يُستعانُ بهِ على الأمرِ المعاند، أنت الميسرُ والمسببُ والمساعِد، وأنت السَّند. يا مَن تنصرِف الآمال إليكَ، وتُعوَّل الأحوال عليك، سبحانك كيف يرجع خائبًا مَن قالَ يا ربِّي، وأحسنَ ظنَّه بين يديك؟! هو الحَميد، يُحمَدُ على ما وَهبَ وَنزَعَ، وَضرَّ وَنفَعَ، وَأَعْطَى وَمَنَعَ، وله الحمد كله. هو الحَميد، وجوده لا يفنى، حميدٌ قبلنا وبعد أن نفنى، يجزي الرِّضا بالرضا، ويلطف فيما مضى، أغنى وأقنى، وأصلحَ الحال شأنًا وشأنًا! للهِ درُّ الحاجاتِ حمَلَتنا إليه حَملًا، هو الحَميد، وخادمه يخدم العز بابه، وتودُّ الملائِك لو تمَسَّ رِكابه. هو الحَميد، وبه غِيضت مصائبُ مَن دانوا مِن الحُبِّ، فكانوا قابَ قوسين أو أدنى! هوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، والغنيُّ من إلى المولى افتقر، يا رب أنت الحميدُ، ملَكتنا وملَّكتنا ما مَلكنا، والإقلال مِنك إكثار، سبحانه، إن أتيته كما شاء، أتاك بما تشاء.

قال التلميذ: سُبحانه، حَميدٌ ويَحمد لعِباده.

قال الشَّيخ: يا بُني، إذا جِيء في القيامةِ بِحَصاد السَّريرة، وارتباك اليَدين عن الخطيئة، وغربة شاسِعة، وقلب كان يمشي وحيدًا، وقيلَ: كان يحرسُ بياض قلبه، فارفعوه بعيدًا بعيدًا. عبدٌ دنا، فتدلَّت له الدِّلاء العامِرة بأحلامٍ عَتيقة، يُسقى من آنيةِ القُرب الدَّاني، وقيلَ له: قد مضَى عنك الغَسق، وليسَ على قلبك حَرج! يتفيَّأ حُبور الحسنات، مَن تهجَّأ الدَّرب طريقًا للخلود، وارتدى التَّعب ثباتًا، وحجَّ إلى الشاهقات من المقامات، لِمن شد على زِناد الصَّبر وقال: (لا) للبوصلة الحَيرى، ليس على قلبه حَرج، ﴿رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ﴾ عليه، ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾.

غاصَ الجَمع في الدّمع، فقال الشيخ: عينُ المرء عُنوان قلبه.

قال تلميذ: اللهُمَّ الآن، وكلُّ آنٍ هبْنا الفَتح والغَوث، عافِ خُطانا مِن العِوَج، وقلوبنا مِن الهَرَج. يَا رب، كنتَ معي في السَّجدة الأولى، وفي الثانية، وكان رهاني غيبًا قَصِيًّا، والصَّبر مِن زادِ المريد.

قال الشَّيخ: هو الحَميد، يولِّي جوده لمن يرعى حُدوده، ومَن حَسُنت خدمته، وجبتْ كرامته، وغَدًا يميِّز الله بين مَن يعلو ومَن هو دون، ومَن نأى، ما أقام الله له وزنًا، وما سترضى به لله جوابًا، سيُرضيك به ثوابًا، لو أخلصوا في الله إخلاصَهم، لخصَّهم منه بما خصَّهم، فاحرص على شريعة الله، لا تخل بأدائها، وفرائضه، لا تضل عن قضائها.

هو الحَميد، ومَن وُفِّق لِحَمد الحَميد، رأيتَ رداءِ الحَمد له موفورًا، ولواء الشُّكر لك مَنشورًا، وإنْ لم يُحمد، رأيت النِّعم مِن شاهِقٍ إلى خفِض، ومِن عُلوٍّ إلى أرض.

قال التلميذ: اللهمَّ إنَّا نباتُ نعمتك، فلا تَجعلنا حَصاد نِقمتك.

قال الشَّيخ: يا بُني، تُعرِض النِّعم عن قلبٍ بإعراضه عن الحَمد، وتنقبضُ الأرزاقُ بانقباضه، ومَن عَدم على النِّعمة شُكرًا، عَدِم ثوابًا يماثلها، فإذا رأيت العبد يرفل في النِّعم عاريًا عن شكرها، فاعلمْ أنَّ هذا أوانُ ذهابها، ﴿وَمَن يَشكُر فَإِنَّمَا يَشكُرُ لِنَفسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيد﴾.

اسمعوا عَنِّي، إذا رأيتُم النِّعم مُستدبرة، فبادروها بالشُّكر قبل حلول الزَّوال، إذْ قلَّما يُرَدُّ زائِل، فقُل: ثبَّتَ اللهُ نِعَمه لدينا، وخفَّف مَؤونةَ شُكرها عَلينا، وتابعَ لنا المزيد، في كلِّ يومٍ جديد.

أنتَ عبدَه، فَقُل لَه: هَبْني مِن عَليائك ما تُنفقه يُمناك، ﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ واللهُ هوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

«أَلْجِئ نَفْسَكَ فِي الأمُورِ كُلِّها إلى إلهِكَ، فَإنَّكَ تُلْجِئُها إلى كَهْفٍ حَريزٍ، ومانِعٍ عَزيزٍ».

يا بني، أتطيقُ الاستغناء عَن ربٍّ، هو الغِنى والغَناء؟!

قال التلميذ: لولا الله أين كنا! سفر كله فِتنٌ، بَعْضُها يُشْبِهُ بَعْضًا، وآخِرها لاحِقٌ بِأَوَّلِها.

قال الشَّيخ: إذا رأيتَ تكاثُر النَّوائب، وانصِباب المصائب، فاللهُ جعلَ للمصائِب مَدًى وما أطالَ لها يَدًا! فخُذ بقوَّة ثباتِك، واشدُد عليه آنَاء الفتنةِ وأطرافَ المحنة، ولا تدع الضَّعف يمشي في ركابِك!

يا بُني، مِصباحُك ذاتك، وما أشرقَ فيكَ أشرقتْ به مِشكاتك، ذاك معنى ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾.

قال التلميذ: يَا رب، هَذا وهَذا، ثمَّ هَذا بعده، سأظل أسأل ما بقيتَ إلهًا.

قال الشَّيخ: يا بُني، ما كَان الدُّعاء ليُخطئ، ولا تقدير الله يُبطئ، فَقُل: اللهُمَّ بَشِّرنا بانقضاءِ العُسر، ومسرَّة اليُسر، أعوذُ بك أنْ تمضي أعوامي بلا مَدد، لا حولَ ولا قوَّة لقلبي، فتولَّ قُواه.

كُل دعاءٍ يهتزُّ مِن دموعك، يورِق الفَرج، وما بَذرتَه سيخلقُ الله له غَيمًا، وما يكتب بريشة الدمع حاشا أن يمحى.

يا بني، نور الأوراد للدعاء معراج، وما زالَ في السَّماء مُتَّسع، فقُل: أعوذُ بالله مِن فَوات الأمَل. سبحانه، ﴿هوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

الحق المبين

قال الشَّيخ: هُز جِذع المناجاة، تساقط الإجابةُ رِزقًا نديًّا.

يا بُني، «ستُشرِقُ الشمسُ مهما طالَ مغرِبُها، ويُهزَمُ الهمُّ مصحوبًا بخُذلانِ»، والدعاءُ عدو البلاءِ، وإياكَ أن يَخذلك قلبُك.

قال التلميذ: اللهمّ ثبِّت قلبي بالقول الحق.

قال الشَّيخ: يا بُني، إذا رأيتَ سِربال الدُّنيا قد تقلَّص عنك، فاعلمْ أنَّه لُطفٌ بك، لأنَّ المنعِمَ لم يقبِضْه بُخلًا أن يتمزَّق، ولكن رِفقًا بالسَّاعي أن يَتعثر، ﴿فَتَعَالَى اللهُ الملِكُ الحْقُّ﴾ عن الشك، إنما منعك ليُتمِّمَك، وما غَاب عنكَ من عطاء، به كمَّلك وما أنقصَك، سُبحانه، مَن كان لك بتدبيره قبل الإيجاد، فلا تنازعه في المراد، وكل عقبةٍ بعدها بَيدَر!

قال تلميذٌ مِن آخِر المجلس: يا رب، إني أحتاجُ إليك الآن، أذهِب عنِّي الهَمَّ والحزن، يا رب، هذا الوجعُ أمَا له سكَن؟ نؤمن بك لكن نحتاج إليك.

قال الشَّيخ: يا بُني، بالحَقِّ هذا الكَون كَان، هو الحَق وقوله الحَق ﴿ادعُوني أستَجِب لكم﴾، ولو شاءَ أمطَر لك سلامًا فما أبقَى لك ألمِا، ومَن عوَّدك حُسن النَّظَر، لا تقابله بِتَرك الأمْر.

قال التلميذ: إلامَ ترمي يا سيدي؟

قال الشَّيخ: انظُر يا بُنيَّ إلى نفسِكَ عند الحُدود، فتلمَّح كيفَ حِفْظُك لها، فإنَّه مَن رَاعَ رُوعِيَ، ومَن أَهمَل تُرِك.

هو الحَقُّ، اذكُره قبلَ أن تَرى ما غيِّب عنك، في يوم ﴿يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾، في يوم يؤتى فيه بالكلمات، فتشتدُّ كأنَّها ريحٌ عاصِف تقذف بصاحبها في هاوية عُمقها سَبعون خريفًا وسبعون حريقًا، ويؤتى بِفُلان، فإذا عَينه جمرةٌ لاهبة، تفيضُ بنيرانِ شهواتها، ويؤتى بِفُلان، قد نضبت أعماله، فكانت الصَّحائف نَعشها، وقَدَرها هباء منثور. وآخَر نبتَ زقُّومه مِن دموع المظلومين. فلا تَرى الناس في الحَشر إلا بينَ نقمةٍ ونعمة، فهُم هالِكٌ أو نَاجٍ، ولا شيء سوى ذلك.

أنتَ هناك، حيث أنتَ هُنا، وما كان أمامك في كِتاب الغيب، هو ما كَانَ وراءك، وامتلاؤك هو ثباتك، وهنيئًا لمن لقيَ الحَق ولم يَخُن الحق، ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾.

قال تلميذ وصَوته يتقطَّع مِن الألم: يا سيدي، هذا الواقع كأنَّه حَشرة النَّزْع، هذه اللحظات بَطيئة، وما نرى للحقِّ رايَة!

قال الشَّيخ: أفضلُ النَّاس عند الله مَن عَزَّ به الحَق، وانتشر به الصِّدق. في الحَشر، يؤتَى بفلان فيُقال: كَان قَمحَ الأمَّة في شتائها، ينفي عنها جوعها، ﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أن ينصبَ له ميزان. ويؤتى بالحَق غريبًا قد نقضوه

أنكاثًا، فيؤتى بِمغزلك يَخيطُ للأمَّة رِداءها، فيُقال: ستَر عَورة الدِّين، فلا تكشفوا له سِترًا.

يا بُني، ما غَاب الحَقُّ، إلا مِن غيابِك، فكن إبراهيم للأمَّة، ابتُلي بالظُّلمِ فسلم، فَحرقوه فَسَلِم لما جعل الطَّاعة إلى الله سُلَّمًا! سَلَّ القطعَ مِن السِّكين، فَسلما، سَلِمَ للحَق ﴿وتَلَّه﴾، فجاءَه فَرجُ ﴿وفَديناه﴾، ويوسُف ﴿ألقوهُ﴾ في غَيابة الجُبِّ، فَمُدت أيديهم بالذُّل ﴿وتَصدَّق عَلينا﴾!

هو الحَق، ﴿وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾، فقل اللهم أوجعنا الزمن فسلك الأمنيات لنا، وفي طوفان الألم احفظ لنا السفنا، خط لنا طريق الأمن إنا لا نهوى الفتنَ.

قال التلميذ: يا رب، ضاقت بِنا الدُّنيا ولا بابَ مُشرعُ، إن لَمْ تكن أنتَ المغيثُ، فمَن لها؟ ألا تراهم وهُم يتطاولون في الباطِل؟!

قال الشَّيخ: كُن حطَب الأمَّة وحدَك، على قدر اشتِعالك بالحَق، ترى في الحشر اكتمالك!

كُل ظالم مر، فسينتهي حيث مَرَّ، فإذا خانت الكراسي والعَمائم، فلا تكن ثَغر الهزائم، إن قهروا الحَق كي ينحسِر، كُن أنت لَه رَجعَ الخُطَى!

يا بُني، يَدٌ لا تزرع الحَق، مبتورةٌ في السماوات، فإذا غرسوا النِّفاق زرعًا، ورأيتَ الجُموع تتلو الخَوف جَزْعًا، ورأيتَ ﴿السَّامِري﴾ يحثو الزِّينة في وجوه الناس، والناس تمورُ في خطيئة الشُّبهات، فكُن عُمَر، ولا تكُن للأمَّة خذلانها، ومن لم

يكن الحَقَّ، كَان ضلالها، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾! فقل: اللهم أنت الحق أعد لي مصابيح دربي، وألهمني سر الرشد يا ربي.

يا بُني، إنْ مَرَّ طاغيةٌ في زمانِك، وصارت الفجائعُ تاريخًا، فلا تكن حفنةَ ظمأ وتترك البَحر خلفكَ رهوًا. اخلَع حِدادك، واكسِر توابيت العَجز، تقرؤك السُّنون أثرًا وبصمةً، وتكتُبك الصَّحائفُ ﴿حقًّا تجلى﴾. قل: اللهم أنت الحق عليك بعروش الترف.

قال التلميذ: يأخذون ضغثًا مِن الحق، وضغثًا مِن الباطل، فيخلطون به على الناس، فما ندري الحقَّ مِن الباطل.

قال الشَّيخ: إن رأيتَ الأمَّة قَد وجَمت شفتاها، فكن صوتَ الحقِّ المبين، وإن رأيتَ الناس تاهتْ، كُن أنت ضِياها، مَزِّق أكفان عتمتها، وقُل لله: أنتَ الحق، فاجعل عُمري لأسمائك بعضًا مِن آثارها، ومَن دنا مِن أسمائه، فما نَأى.

قال التلميذ: يا رب، هذا القلبُ سبَّاقٌ إليك، ورجاؤه فيما لديك، فأمطِر فقره فالخير كلُّه بين يديك، أنت الحَقُّ، وقولُك الحَقُّ.

قال الشَّيخ: بينَ الصَّفا والمروة، نَبعتْ زَمزمُ لِقَدمٍ رَكَضت للحَقِّ.

القوي المتين

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾، إنْ عثرتَ على لحظةِ الوَصْل، فَجُد على نفسِك بِغَيث الدُّعاء، ﴿هُنَالِكَ﴾ تلك لحظةٌ، اشتعلت بيقينِ نَبيٍّ، ﴿هُنَالِكَ﴾، حيث تتلاشى المسافات، والوجَع آيلٌ للرَّحيل. هنالك زمن الأفضال، لكنَّ المقيَّد بالخَطايا، لا يتأتَّى له ارتحال، فَقُل: أستغفرُ اللهَ ملءَ الأرضِ مُنْذُ خُلِقَت، وضِعفهَا ثمَّ ضِعفَ الضِّعفِ والعَددِ.

يَا أبنائي، هنا مفاتيح المواهب، لمن حازوا مَكنون الفضل، وأصابوا كنوز العَرش، وتلك وربي الغنائم أن تعثر على (هنالك).

يا أبنائي، العمر آخذ في النَّقص، فزيدوا أنتم في العمل، غَدًا تتفتَّح البذور، فإذا الدعاء إجابة، وإذا الحَسنةُ سُنبلة، وإذا التَّرتيلة في الخُلود مئذنة، ويُنادى، إنَّ الله لا يُضيِّع ما تَحمَّل عبده لأجلِه. ومَن كانت بدايته على الاستقامة، كانت نهايته الكرامة، ومن كانت بدايته البِدعة، كانت نهايته الغِواية، فقولوا: اللهُمَّ دربًا في معيَّتك تبلغنا به مقام الوصل.

قال تلميذ: اللهُمَّ آمين، يَا الله، وَجِّه شِراعنا في غِمار الحياة.

قال الشَّيخ: استَعِن بالقَويِّ، يا بُنيَّ، كُن عبدًا آخِذًا بِحَبله، ويَقينك بِحَوله، وهمُّك وصْله، وغاية المنى، ظِل العَرش يُظلُّه.

قال التلميذ: يَا رب، تَطبُق عليَّ سَوداء يتلوها سَوداء.

قال الشَّيخ: كُل ما في الروح مِن نواح، يستلُّه الدعاء بالأسماء، الزمْ في سُجودك (يا رزَّاق يَا ذا القُوة المتين)، وإنَّ مَواهب المنَازل، على قَدر مَراتب النَّازل، فاسأله بيقين من يعلم أن الرزق بقوة الله آت، سبحانه، إنْ جِئته بالضَّعف، أمَدَّك بِمَدد التَّثبيت، فإذا أنتَ كلُّك بِكُلِّك مَحمول.

قال التلميذ: يَا سامعًا كفَّ الدعاء، تناثرت أعوادنا حَطبًا، لا قاعًا نبلُغه ولا دَلوًا ولا بُشرى! ماذا أحدث وأحلامنا يشقى بها القلب!

قال الشَّيخ: الحامِلون مَشقَّة الظُّلم على أكتافهم، الحامِلون على ظُهورهم للنُّور رايَة، لا يسألون العَون إلحافًا، أكَان اللهُ يخذلهم؟! هو القَويُّ، هو القَويُّ، ولله جُنُودٌ مُجنَّدة، وأقداره سُيُوفٌ مُهنَّدة، وأرزاقه سِهامٌ مُسدَّدة، ولله حِكمةٌ وَمَدد، والمبصِرون هُم مَن يرون اللهَ في المنَح والمحَن. هو القَويُّ، فلا تبتئس، وقُل له: عبدٌ مَليءٌ بالألم عجل له الفرج. سُبحانه، إنْ أقامَك في فقر الضعف، وهَبكَ مُناجاته، فاخلَع حَولك بينَ يديه، يَهبَك بقوته ما أعجَزك. يُضعِفكَ، كَي يَدُلَّك عليه، فإذا فهمتَ المعنى، فقد أرادك، فقُل: أنتَ القويُّ وأنا فقيرك، طلبناكَ بقوَّتك، وسألناكَ بِضَعفنا، فائتِنا بِحوائجنا، نحن الفقراء إليك.

قال التلميذ: والله هذا دعاءٌ، ما ضَلَّ مِعراجه للسَّماء!

قال الشَّيخ: يا بني، والله لو خرجتْ روحك تشتَدُّ وراء أُمنية، ما أدركْتَها إلا أن يكونَ هو المعطي، فافهَم معنى ﴿الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ المتِينُ﴾. فَقُل: يا جابر الكَسر،

أدرِكنا مِن الفَقر، يَا رب، بين يَديك خزائن الغُيوب، فهَبنا كُل مَطلوب، حاشَا لقلبٍ في قَفرٍ على فقر، ألا يَرى الرِّفق.

يا بُنيَّ، إنْ مَسَّ قلبك التَّعب، وَبلغَتْ آهُ الحُزن مَبلغها، فادخُل إليه مِن حَولك بالتَّبرِّي، ثمَّ اسأله ما شِئتَ بالتَّرجِّي، والزَم الحَوقلة.

يا بُنيَّ، إنْ ارتديتَ رداء الضعف، فارفع يديك تنبت سَنابل قمحٍ في راحتيك، إيَّاك أنْ تكونَ مَأخوذًا بـ ﴿أنا﴾، وغافلًا عن ﴿سُبحانه هُو﴾. إنْ عبدته بوصفه، أتاكَ ما عنده مِن فَضله، فإنْ أغراكَ ﴿على عَلمٍ عِندي﴾، وتوسَّعتَ في ﴿مَن أشَد منَّا قُوَّة﴾، أوكلكَ إليك. فاخَلع حَولك، واخلَع أسبابَك، وقُل: أنَا، مَن ذا أنَا؟! قُل لَه: أنتَ القويُّ، ونحن الضُّعفاء بين يديك.

لو شَاءِ الله، جعل مِن اليَبس الفتات حُقولًا، حتى يُقال: عبدٌ نجَا مِن فَجيعةِ الجَدْب، وحتى ترى الحُزن لمْ يُخلَق أساسًا، وتَنسى مَن آساكَ وما اعتراك، وترى العاقبةَ على غير ما هي مُنتهية إليه.

قال التلميذ: ما أضْعَفنا في مُعاملة الله!

قال الشَّيخ: يا بُنيَّ، «ينسجُ العبد في رَخائه ما يَقيه بَرد شِدَّته، فَمُكَثِّفٌ ومُرقِّقٌ»، فاشْدُدْ نسيجك بالقويِّ العزيز، فما في الزَّمانِ عنِ الخُطوبِ محيصُ. فافهَم؛ إنَّ الحوادِثَ كُلَّها تمحيص، حتى لا يبقى إلَّا طيِّبٌ وخَليص.

سُبحانه، يرحمُ بالشَّدائد، كما يرحم بالعافية، وإذا مَلَّ العِباد النِّعَم، وأمِنوا النِّقَم، فـ ﴿إنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، فلا تَجعل في أنفاسِك إلَّاه، واجعل أنفاسَك في الآخرة!

هُوَ الله، فإنْ رأيتَ الهُموم تتوارث الهُمومَ، فَقُل: أنتَ لها يَا الله، أنت القويُّ لها ولكلِّ عِبءٍ ثقيل. فإن تغشَّاك الأسى والدَّرب مَسدود، فَقُل: يَا الله، أنتَ القويُّ، وبيدك مَفاتيح مَا أوصَدوا!

هُو الله، ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

قال التلميذ: يا رب، طال انتظَاري، وأراني في خريف الأُمنيات.

قال الشَّيخ: ما لي أراكَ غارقًا في أسَاك؟ قُل: (أتيتُكَ مِن جُوعٍ ومِن ظَمأٍ، لا تَترك القادِمَ الملهوفَ ظَمآنَ).

قال التلميذ: إني لأدعو، فيَا رب لا تَجعل إجابتي وعْدًا مُؤجَّلًا.

قال الشَّيخ: يا بُنيَّ، (وإذا تأخَّرَ مَطلبٌ فلربَّما، في ذلك التأخيرِ كُلُّ المطمعِ).

قل: اللهم لا تكِلنا إلى عجز يقطعنا عنكَ، ولا تقطَعنا عن قوة تصِلنا بكَ، يا بني، اجعل دعاءك للعجزِ مقبرة، وَرتل على روحِك: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهوَ الْقَوِيُّ العَزِيزُ﴾، وامضِ بالله إلى ما شئت، فقد أُغلِق عنكَ باب المنعِ.

سُبحانه، ﴿يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُون قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾، فلا تتخطَّفك سِهام الفِتَن، إنَّ الليلَ إذا طَالَ وعَسعَسَ، أتْبعهُ صُبحٌ يتنفَّس.

الولي الحميد

إلهي، الكونُ أجمَعه قِفلٌ، وأسمَاؤك لهذا الكَون مِفتاح!

إلهي، كُلُّ الدُّروب دونِ فَتحِك تَنغَلِق، وكُلُّ الحُصون دونِ عَونك تَنهدِم.

إن قلتَ لسؤلي لبَّيكَ، قال الكَون: آمينا، وما كنتُ لا أملكه على الثَّرى، صار بين يديَّ كَوثَرا!

إلهي، جِئتكَ مِن رَجفة الشَّوق، مِن أنَّاتِ مَسبحتي، أسمع ضجيج الشوق في قلبي، أسيرُ إليكَ، فَتُنبت في الخُطى نِعمٌ، وكلَّما مَددتُ كفِّي للسَّما مُتسوِّلًا، رأيتُ يَباس العُمر مُنًى يانعة! وما بعدَ المناجاةِ، إلا زوال المعاناة.

الواقِفون على بابِ الله طَويلًا، سَيسقيهم الإجابة سَلسبيلا.

يا بني، اسأله باليقين، إنَّ اليقينَ مَركب التَّمكين، والله غالبُ الغالبين، ﴿ولَتعلمنَّ نبأه بعد حين﴾، والله مَن يختارُ لِعبده عند الإجابة، في أصلَح الزَّمن، لا أسرَعه، ﴿وَهوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾، فولِّه شأنك، وعلِّق أملَك بمولاكَ، يُبلغك مُناك، ولا تخشَ مِن غَمٍّ عارِض.

يا بُني، ولِّهِ أمرَك، بِطَرحِ أمرك.

قال التلميذ:﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾، دلنا كيف نبلُغ ولايته.

قال الشَّيخ: إذا تولَّاك، لا أنتَ أنتَ، ولا ذاكَ ذاك، ترى مِن غَيب الغيبِ، ما يمسحُ عَن عين القلب قَذاها، تتودَّد إليه بالنَّوافل، فإذا بِصُبح المعجزات والأماني تسيل! تُسافِر مُشتاقًا لمغفرةٍ، فإذا العَفو يتَّقد.

قُل لَه: جِئتكَ مِن وهْني وكُلِّي، ووجعي وأنفاس دَمي، موقنًا أنَّك تَسمع الآهات مِن ألمي.

يا بُنيَّ، قيمةُ العبد عند ربِّه، حديثُ قلبه، وإذا القلبُ تخلَّى، فَمِن الله تحلَّى، والله يُظهر مِن القلب ما نَوى، فإن كنتَ بالله، أمدَّك بالقُوى.

تولى داوود فقال: ﴿يَا جبالُ أوّبي مَعه﴾، مَن يبلُغ ذاكَ المرتقى! ثم أكرمه ﴿وألنَّا لَه الحَديد﴾، ذاكَ دربٌ لا يضلُّ صاحبه ولا يشقى.

يا بني، الانتهاء في حُسن الابتداء، فاشدد حبالَك ﴿بالعُروةِ الوُثقى﴾، وقل: أنت الولي فتولني فيمن توليت. ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، عنايته بِهم واقيةٌ لهم مِن كُل ما يَخافون، وجالبة لهم جَميع ما يرجون.

قال التلميذ: زِدْنَا!

قال الشَّيخ: مَنْ عَمِلَ بِعِلْمِ الرِّوَايَةِ، وَرِثَ مقام الرِّعَايَةِ، وما بعد الرعاية إلا الهداية، فاستمسِك بالذي أُوحيَ إليك. افهَم المعنى، اكفِني عَينك، أكفِكَ قلبك، واكفني شَهوتك، أكفِك حاجَتك، فالْتَمِسْ رِضْوَانَهُ فِي تَرْكِ مَنَاهِيهِ، ولا يكن سَيرك في غير خَيرك، والله يا بُنيَّ، ما أرى بعد التَّهاون إلا بَدءِ الفَواجِع.

قال التلميذ: ما علامَات الولاية؟

قال الشَّيخ: نَهارك، على آثار ليلِك، وسيماءُ كُل وجهٍ، فيما أقبلَ عليه، وإن أرادَك، وجَّهك للعمل وأعانك.

قال التلميذ: قَدمٌ على قَدم، وقلبي يتحسَّس الطريق.

قال الشَّيخ: إذا كُنتَ وليَّ طاعته، كان وليَّك، ربما يمنعُ عنكَ ثمَّ يَمنحُ لك، وما زالَ منكَ، زال عنك! فاسْتَرِح مَعَ اللهِ، وَلَا تَسْتَرِحْ عَنِ اللهِ، فَإِنَّ مَنِ اسْتَرَاحَ مَعَ اللهِ، نَجَا، وَمَنِ اسْتَرَاحَ عَنِ اللهِ، هَلَكَ!

قال التلميذ: أسألك ألا أرى في نيِّتي إلاكَ!

قال الشَّيخ: إذنْ لا تكُن عبدَ السُّؤالِ، وكُن عبدَ الله، قُم إلى اللهِ، يُعطِك ما تسأل، ولا تَقُم للسُّؤالِ، فربَّما منعَ وربَّما أعطَى! فقُل: أنتَ وليُّنا، لا نسألك دفع ما تُريد، ولكن نسألك التَّأييد بروحٍ مِن عندكَ فيما تريد.

يا بُنيَّ، متى خابَ مَن كان له مدبِّرًا؟! ومتى خُذِلَ مَن كَان له منتصرًا؟!

قال التلميذ: يا مَولاي، أجيءُ كالمدِّ غير مُنقطِع، أرجو اتِّصالًا، لِآهٍ أوجعتْ قلبي.

قال الشَّيخ: قُل له: إنِّي ابتليتُ، فأعِد قلبي إليَّ.

يا بُنيَّ، ما كل مفتونٍ يُعاجَل، قد يبتليكَ بمرارة التِّيه، لِتَعرف حلاوة المعيَّة، فقُل له: اللهُمَّ أنتَ الوليُّ الحميد، الربُّ المجيد، الفعَّال لما تُريد، أعوذُ بك مِن أنْ يضلَّ قلبي القِبلة، يا رب، الهَوى يَشُدُّ عيني، فوله نحو دربك ناظري، وتتبَّع بلُطفك

مجرى الفتِنة في قلبي، وتولني فيمن توليت، كُن لقلبي، إنِّي في سَترِك أختبئ، وعلى عفوك أتّكئ.

يا بُنيَّ، قلبٌ يواري شوقَه في صَبره، أينساهُ اللهُ؟!

فقال التلميذ: اللهُمَّ ثبِّتني على ديني، لأبقى قَويًّا لا تُزعزعه الدَّواهي، أنتَ الوليُّ الحميد، الربُّ المجيد، الفعَّال لما تُريد.

قال الشَّيخ: يا بُني، ما استُنبت في بطن الإخلاص، تمَّ له النَّبات، وسابقة العمل الصالح، تَقي مِن مزالِق الرَّيْب، وخُطى الصَّادقين لا تُمحى.

يا بُني، ماذا تخشى المشكاةُ، إن كان زيتها يستضيء بنور ربِّها لو أغلَق الليلُ عليها كل النوافذ؟ ومن يتَّقد بالله، لا يُطفئه شيء.

قال التلميذ: أنتَ وليي، فَعُد بقلبي، لا تكلني إليَّ، ﴿نجِّنا برَحمتك﴾، ولا تُهلكنا بِحرمانِك، وهبْنا روحَ الرِّضا ونعيم التَّفويض.

قال الشَّيخ: قُل: اللهُمَّ أنتَ الوليُّ الحميد، الربُّ المجيد، الفعَّال لما تُريد، تَعلمُ فَرحَنا، بماذا، ولماذا، وعلى مَاذا، نعوذ بك مِن أثوابٍ تعرِّينا، وممَّا يَهتك سَتْرنا فينا، ومِن أنْ يرتَدَّ فَرحنا تَأبينا!

الشهيد

اللهُمَّ آمين لكلِّ ما فاضَ مِن أمنياتٍ من حنايا القلب، اللهُمَّ آمين لِرجفة الدَّعوات، ومَرارة الحُزن العميق، اللهُمَّ آمين للهفةِ الأشواق لاهثةً كأنفاسِ الغَريق! اللهُمَّ آمين يا رب الفُلك والناجين والغرقى، حاشا لقلب قد دعاك أن تكون حظوظه الأشقى، يا رب للدمعِ في أنفاسِنا دويٌّ، آتٍ على جِسرٍ من الآهاتِ، وفي قلبي اليقين، «إنْ قلتُ يا ربَّاهُ أعلمُ أنَّه، مِن بعدِ يا ربَّاهُ خيرًا آتٍ»، ويقيننا أنه ما اشتدَّت واستحالت، إلا تيسَّرت واستهانت! والأمر حين تستودعه الله، يفرُّ مِن ضَعف حيلتك إلى خزائن فضله، والله إني ما نلت شيئًا إلا بالذي سخر الأسبابَ، و«إذا أرادَ الله أن يرسل لك الخير، حمَله إليك ولو على ظهر عدوِّك»، وخلفَ باب الغَيب مُتَّسع.

قال تلميذ: ما ضَر هذا الحُزن لو كان قميصًا نخلعه؟

قال الشَّيخ: يا بُنيَّ، المؤمنُ بين كَمينٍ وكَمين، ومن كُل مِحنة يَكتَمِل، وقدر العبدُ أنه بين أنفاسٍ محفوظةٍ وأعمالٍ ملحوظة، هذا اختبارك وهو الشَّهيد عليك، وما استُمطِرت الرَّحمات، ولا استُجلبت النَّفحات، ولا استُدفعت البَليَّات، بمثل تقوى الله، فاستنزل العطايا بالتقوى، وإن راودتك الفِتنة كي تَسكب طينك فقُل في المحنة يَبينُ مَن كان قلبه بِئرًا مُعَطَّلة، ومَن كان قلبه قَصرًا مُشيَّدًا، واللهُ على كُلِّ شيءٍ شهيد، سبحانه يختبرك قبل أن يعطيك.

يا بُني، مَن جَوَّع قلبه لله، أطعمته الآخِرة، وما تركَ الله له نصفَ أمنية مُعلقة، واللهُ على كُلِّ شيءٍ شهيد.

قال التلميذ: والله إنَّ بعض الطُّرِق فتنة.

عَدَّل الشيخ جلسته، ثُم قال: يمتحنُ الله ثَباتك، يمتحنُ يقينك، وعلى قدر الدِّيانة، تكون من الله الصِّيانة، واللهُ على كُلِّ شيءٍ شهيد. فلا تطوِ الطَّريق إليه براحلةٍ عَرجاء! واللهِ، ما مِنْ عَبْدٍ حَفِظَ جَوَارِحَهُ، إِلَّا حَفِظَ اللهُ عَلَيْهِ قَلْبَهُ، وَمَا مِنْ عَبْدٍ حَفِظَ اللهُ عَلَيْهِ قَلْبَهُ، إِلَّا جَعَلَهُ اللهُ أَمِينًا فِي أَرْضِهِ، وَمَا مِنْ عَبْدٍ جَعَلَهُ اللهُ أَمِينًا فِي أَرْضِهِ، إِلَّا جَعَلَهُ الله إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ، واللهُ على كُلِّ شيءٍ شهيد، أولئك قُمصاهم بلا خطيئة وما قُدَّت مِن قُبُل، فَاشْدُدْ جِماح الشَّهوة، وأذِّن: حَيَّ على الثَّبات.

يا بُنيَّ، هو الشهيد عليك، فاتَّقِ اللَّهَ فِي خَلَوَاتِكَ، وَحَافِظْ عَلَى أَوْقَاتِ صَلَوَاتِكَ، وَغُضَّ طَرْفَكَ عَنْ لَحَظَاتِكَ، تَكُنْ عِنْدَ اللَّهِ مُقَرَّبًا فِي حَالَاتِكَ.

قال التلميذ: ما أفعل والذُّنوب مُثقِلةٌ، والخُطى مُرهِقة؟!

قال الشَّيخ: ذلك لأن البُعد للقلب لَحد، فطُوبى لِمن كَفَّ عَمَّا يَكرَهُ اللهُ!

قال التلميذ: آهٍ وألفُ آهٍ، ماذا يفعلُ مَن كانَ قلبه في مَهبِّ الذَّنب، حيث مالَ به يَميل؟!

قال الشَّيخ: أَوَّاهُ إنْ ثارت فِتنٌ، وحَبل الوصلِ في وهن!

يا بُنيَّ، هَذا دَربٌ امتُحن به ألفُ ألفُ قلب، منهم مَن مضَى على ظَمأ، ومنهم من صَار وَهْمًا! فإياك أن تكون نَفْسًا كلَّما ثبتَ لها قدَم، زلَّت، وكلَّما عُقد لها عَقد، حُلَّت، واللهُ على كُلِّ شيءٍ شهيد، ألا تَخشى نفسك مِن ربِّها عين المقت؟ يا بني (وكَم قدمٍ إلى القُبور قادِمة، كلهم على الأكتاف نادم، والموتُ خاتمةُ الرِّوايةِ)!

يا بُنيَّ، والله إن وجَع الانفلات مِن فِتنة الزِّينة، أهوَن مِن فِخاخ الأسر، هو في العُلا بكمالِهِ، كشفَ الضَّلال بأمره، وهو على كُلِّ شيءٍ شهيد.

قال التلميذ: يا رب، إنّي لا أطيقُ لك عُذرًا، فأيقِظني مِن فتنةِ ما لا أستطيعُ عليه صَبرًا.

قال الشَّيخ: رُبَّ ثباتٍ على الأشواكِ نمشيه، رُبما تَسألني، كيفَ نُطيق! إنْ اشتعلتْ نارُ الغواية في جوارِحك، فاذكُر ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأنٍ﴾ إلا كان عليك شَهيدًا، فلا يكُن غَيبك أعزَل مِن سِياج التَّحصين.

يا بُنيَّ، مَن زَيَّن اللسانَ، وأقامَ على قُبح الجَنان، أظهرَ الله عليه الشين، وأخفى ما أرادَ مِن الزين! واللهُ على كُلِّ شيءٍ شهيد، هو الشَّهيد، فإنْ تَشابَه عليك النَّبض، فلا تُقدِّم قَرابينك، إنَّ القَبول مَرهونٌ بما تُخفي السَّرائِر! فإيَّاك أنْ تقطعَ القِفار، وقلبك خَلفك!

قال التلميذ: اللهُمَّ إنِّي على قلبي حَزينٌ، وثباتي هَشٌّ!

قال الشَّيخ: أرِ الله مِن قلبك انكسارًا واستغفارًا، يتمنَّى الشَّيطان معه لو أنَّه ما فَوَّت الطاعةَ عليك، اغسِل بقايا الإثم في قلبك، وما قُطفت مِن شَهوة العَين.

قال التلميذ: عفوك عفوك يا رباه، يا رب، ارفِق بنا، طُوفانُهم آتٍ.

قال الشَّيخ: قل: يَا رب، أنتَ الشَّهيدُ إذا ضاقت الأرضُ على الأرضِ كأنَّها السَّبع الطِّباق، أنت الشَّهيدُ على مَن أشرَعوا للتِّيه بَابًا، أنت الشَّهيد على هُمومٍ لا تُطاق، أنت الشَّهيد على فَسادٍ لَمْ يبقِ للأحلام بَاق.

قال التلميذ: والله إنِّي أخافُ ألا أنجو.

قال الشَّيخ: يا بُنيَّ، اسمع مني خطة لصلاحك، النية مُقَدِّمَة الْأَشْيَاء فَمن صحَّح نيته بِالصِّدقِ أَتَت عَلَيْهِ آثار القبول، فَإِن الْفُرُوع تتبع الأصول ثم يُرزق الهمة، ومن صلحت نيته قويت همته حتى يصلح لبساط الْحق.

يا بني، يا جَهشة القلب المحنى بالقَبولِ، إذا قيلَ اكتمَل الكِتاب، ونودي عليك، عبدٌ ما تعثَّر في الحُجب، عبدٌ ما نقلَ الخطوات إلى الخطيئاتِ، فاعمَل مِن وراء البِحار، فإنَّ الله لنْ يتِرَكَ مِن عَملك شَيئًا! وإيَّاكَ إيَّاكَ أنْ يهزمَ الشَّيطانُ قَلبَك!

المبدئ المعيد

يا رب، أُحبُّكَ نافلةً وفريضةً، والحُب إذا اتَّسَع اتَّصل، يا رب، أحبُّكَ رغم الوَجع، وحُبُّك رغم الأسَى ما نقَص، أحبُّكَ كلَّما تدانتْ مَسرَّاتٌ، وولَّت شدائِد، أحبُّكَ حَدَّ السُّجود، وحَدَّ الرُّكوع، وحَدَّ الدعاء بكلِّ الشَّغف، أحبُّكَ، فَحبُّك دِينٌ، وبين يديك أتلو الدُّمُوع، أرجُوكَ، لا تجعل حظِّي مُرًّا للأبَد! يا رب، يَا مَن ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾، أنتَ البَرُّ بالعَبد، والباقي على الأبَد، ابتَلَّ مِن دَمعي، وأرى فَضلك الممتَدَّ للأبَد.

قال التلميذ: عائِذٌ بِك لَن يشقَى، فعساك تَسترُ عَثرتِي وعَسايَا.. حَسبي بأنِّي مُتعَبٌ، ولديك يا ربِّي دَوايَا.

أنتَ المعيدُ، فَرُدَّني إليك، هذا كتابي شاحِبٌ، وما لديَّ سِواك، أنَا، مَن أنا؟! أنَا مُبعَدٌ بالذَّنب عنكَ، أنَا عَبدك المحرومُ مِن قُربٍ لدَيك، أنَا مَن أشتهي وصلًا لديك.

قال الشَّيخ: يا بُنيَّ، اجعله ابتداءَك ومُنتهاك، واشدُد خيوط الشَّوق في تراتيلِ الصَّلاةِ وقُل له: أشتاقُ يَا ربِّي أراك.

قال التلميذ: يَا رب، مُقيمٌ في دُجى الغياهِب، لكنَّ سُؤلي فوقَ هَامِ الكَواكِب.

قال الشَّيخ: هو المبدي وهو المعيد، يُنقص كيف يشاءُ أو يزيد، الموازينُ في يديه، ولا شيء يَخرج عمَّا يريد، يُعطي المالَ أو يُبيد، فلا تنسَ أنَّه المبدئ المعيد، يغيضُ رِزقٌ أو يفيض، بيد اللهِ المبدئ المعيد، وما تراهُ ناضبًا، فاللهُ إنْ شاءَ يُعيد.

يا بُني، لما استغاثَ أيُّوبُ: يَا رب، ﴿مَسَّنِي﴾، ردَّ عليه قُوَّته بِأمره ﴿ارْكُضْ﴾، وهو العليلُ الملقَى في فتنةِ الضُّر، فنسيَ بنسيم العافية ما ألمَّ به مِن ألمٍ، ورَدَّت يَد المنَّة كُل ما مَرَّ منه وذهَب.

سُبحانَه هو المعيد، تَاللهِ ما ضَرَّه ما أكَل من جَسده الدُّود، لما اختالَ في ثوبٍ وَدود، وسقاهُ اللهُ مِن جُودِ الجُود.

يا بني، ربما تُفْرِغ السَّواقي، حتى تَسكب الدَّمعَ مِن فَيض النَّحيب، فيأتيكَ وَهْبٌ مِن الغَيبِ لا يَغيب، وما كانَ مجنيًّا، صَار هو النَّاجِي! ممَّ تخافُ؟! أينما وجَّهْتَ وَجهك، وجدته هُناك، أخبِره عن جُرحٍ أفزعَك، حدِّثه عمَّا أوجَعك، وبينَ هذا وذاك، وقبلَ هذا وذاك، يحنو عليكَ وَيرحمك! اشْدُدْ قَلبك بالاسم، أشعِل التَّسبيحَ، واسألهُ ما فقدتَ وقُل له: أنتَ المبدئ المعيد، ابعَث لي ما اندثَر، واجبُر لي ما انكسَر، يا مَن يُبْدِئُ وَيُعِيدُ.

يا بني، منه وجودُ كُلِّ شَيء، وإليه عَودُ كُلِّ شَيء.

قال التلميذ: يا رب، هذا حالنا ﴿بِئْرٌ مُعَطَّلَةٌ﴾، أعِد عَلينا كُلَّ الأمنياتِ المؤجَّلة، يا رب، نَجتَرُّ خُطًى مُكَبَّلة، أعِد علَينا زمَنًا كَان لنا فيه عَرشٌ ومنزلة، أنتَ المعيد، رُدّ عَلينا مِفتاحَ البابِ الموعُود!

قال الشَّيخ: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ في الأحوالِ ما يَشاء، يا رب، هذا الظُّلم يَمتطينا ويَعصِف، وعندكَ مِن الفَرجِ ما لا يوصَف، أعِد علَينا المنى، لعلَّ كرامتنا تَعودُ لَعَلّ، نعتاشُ ذُلَّا، وأوطَاننا للظُّلم نَعلا، اجعَل أقدارَك لَهُم، لا وكَلَّا، وَرُدَّنا لِزمَن العَدل فيه تجَلَّى، يا مَن يُبْدِئُ وَيُعِيدُ. يا رب، مُنهَكون مِن الصَّمت، وجُرحٌ يَنزِف، وفي غُربةِ الأحلام هذا القَلبُ واقف، نأوي إليكَ، فضَمِّدنا بالفَرح، لا تخذُل الضَّعفَ، وأرِنَا في بِضعِ سِنينَ قَدر ﴿سَيَغلِبون﴾.

قال التلميذ: سبحانه صَدقَ إذْ قال: ﴿وما يُبدئ الباطِلَ وما يُعيد﴾.

قال الشَّيخ: سُبحانه ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، وما ثَمَّ إلا ما أرَاد، فَقُل للعابِرين في فلسطين: لَن تَصِلوا إلى ضِفَّة الحُلمِ ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾.

تَأوَّه التِّلميذ وقال: مُثقلون مِن مَخاضٍ أليم، وَتكاد تَذبُل في الكَفِّ أدعِيتها، أحْيِها يَا مَن يُحيي الأرضَ بعدَ مَواتِها، يَا مَن يُعيدُ وَيُبدِي.

قال الشَّيخ: إذا اشتَدَّت العُسرى، فإنَّ عَواقِبَ الحُسنى تَليها، سُبحانَه، يُذَكِّرك بِفاقَتِك، فارْجُ منه حاجَتك، وكُن لَه بِكلِّيَتك.

قال التلميذ: وعَثرةُ دَربي، وأخطاءُ عُمري، وكُلُّ ما تَعلَمُ عنِّي، أينَ سيَمضي؟ يا رب، قَد أرهَق الحِملُ ظَهري، تَعلمُ مَا أُسِرُّ وما أُبدي، وكُلَّ ما نَقضْتُ مِن عهدي!

قال الشَّيخ: الصَّفاء مِن الصَّفاء، والكَدَرُ مِن الكَدَر، فَقُل: اللهُمَّ انقِلنا مِن كَدر البُعد إلى صَفاءِ القُرب.

يا بُنيَّ، المقبل بالعُجب، قد يُرَد، والمدبر بالحَياء، قَد يُوَد، فَيُسعده الجَدُّ، ومَدار الأمورِ على اللاحقة، وهي مَبنيةٌ على السابقة، ومَن قطعَ العَلائِق، قَلَّتْ لَه العَوائِق.

قال التلميذ: آتٍ مِن شَطَف الغِواية، ألم عِندك ما تَبعثَر، آتٍ وفي يَدي تَعبي، أسألك ردَّ ما أدبَر، أنت المبدئ والمعيد، أَهُزُّ سَعْفَ الرجَاءِ عَساهُ بِعَفوك يُثمِر.

قال الشَّيخ: سبحانَه، عوائِده لا تَبيد، هو البادي بالإحسانِ، قبل تَوجُّه العابِدين، البادي بالعطايَا، قبل طَلَب الطَّالبين. سُبحانك، الهِباتُ هِباتُك، والعَبيدُ عبادك، ثمَّ أنت لِمَا وهَبْتَنا مِن المستقرضين، أعطَيتنا مِن الآلاءِ ما لا يُحصى، ومِن العَطايا ما لا يُستقصَى، كيفَ نرجو سِواكَ، وأنتَ ما قَطعتَ الإحسان؟ وكيفَ نطلُب سِواك، وأنتَ ما بَدَّلْتَ عادةَ الامتنان؟!

يا بُنيَّ، هو مُدبِّر الأمرَ، ضَعها مِلءَ وجدانك، وانهَض على ثِقَةٍ منها إلى شانِك، فسابِق، حتى يُقال هذا العاثِر وصَل.

قال التلميذ: أترُاني أصِل؟

قال الشَّيخ: يا بُني، (يبقَى الطَّريقُ هو الطَّريق، وإنَّما تتفاوت الأقدامُ في الإقدام).

الحي

الليلةَ سنَفترشُ النَّعيم، فمَوعدنا مع اسمٍ هو (فاتحةُ الغَيث)، اسم، فَوق أنْ تُدركه الأكوان، لاشتماله على جَميع الصفات، اسم، يورق معه الأمَل؛ والإجابة لا تنضَب! فكُن في الدعاء يقين الاسم، حينها ينتهي غبَش الحياة، وتبلُغ المرفأ.

قال تلميذ: ما يَقين الاسم؟

قال الشَّيخ: إنَّ القلوب إذا صفَتْ رأتْ، كما قال عُمَر، يا ولدي (جَرِّد النفْس من رَغائبها؛ يَصْفُ لها غَيْبها)! أما بلغكَ قول حارثةَ إذ قال: كأني أرى عَرش ربي بارزًا؟

كَان الشيخ وهو يتكلَّم؛ كأنه يَرى، وكانَ إيماننا بِجانبه ضَريرًا مُقعدًا! كَان صوته يَعبُر إلينا، فيَهزُّ جِذع الطِّين فينا! رفَع صوته قائلًا: كُل الحُضور فناءٌ دون حياة الحيِّ القيُّوم، فهو بدؤكَ والختام. نحن لا نُعطي أعمارنا مَزيدًا من الأيام، لكننا بالله الحَي نعطيها مَزيدًا من مَدد الحياة. تلك حياةٌ مُزدحمة بالبَقاء، فسابِق الأعمارَ وقُل: يَا حَي! انظُر إلى مالك، والشافعي، والبُخاري، وسواهم، مَن طَوى أكفانهم وسكبَ في أعمارهم ما لا يَنطفئ؟! أليسَ هُو الحَي؟

يَا ولَدي، إنَّما الحَيُّ هناك مَن كان حيًّا بالله هُنا، ومَن جعلَ الحيَّ مَنبع وجوده، دامَت له الحياة! نحنُ غروبُ البقاء، ومَعنى الرِّثاء دون الحَي، فإذا أربَكك الفَناء فقُل: يا حيُّ يَا حَيُّ، اجْعل اسمكَ حَياةَ ما وَهنَ مِنا!

يا ولَدي مَا مَاتَ من بالحي القيوم اتصل!

يا بني، إنما توقَد نَار القَلق في ديار المنقطعين عنه، اخرُج من عَتمة الموت وقُل: يَا حَيُّ!

قال التلميذ: يَرتَديني والله عَدم عجيب، كأنَّ خُيوطه يأسٌ، وكأنَّ رُوحي يبَاس في يبَاس!

قال الشَّيخ: لَقِّنْ كُل يَباسٍ فيكَ؛ يا حَيُّ، أحيني بك.

يا بني، إنَّ (ذكرَ اللِّسان؛ نتائجهُ الأُجُور، وذكرَ القلوبِ؛ نتائجهُ الحُضُور)، حُضور الإجابة!

يا ولدي، من يقينِ الوِرْد يُوقَد لَك غَيات المستغيثين، وكُل ذَبولٍ مُهيَّأٌ للانطفاء؛ أوقده بالدعاء، أوقِده باسمه الحي، يا حيُّ!

قال التلميذ: فكيفَ نَصِل إليه؟

ابتسَم الشيخ: الطَّريق إليه حجابٌ عن قلبك ترفعه.

يا وَلدي، عندما تنوي البَدء؛ تظهر لك خارطة الطَّريق إليه، و(إنَّما أنتَ ما مِلْتَ إليه)، والقلبُ إذا آنَس صُحبة الأسماء الحُسنى؛ أبصر بها ما لا يبصر الناس! افهم عني: إن الأسماء الحُسنى طَريق الكَرامة، والكَرامة أرضٌ لا تطَؤها أقدامُ من خلطوا في نياتهم! ارفع حجاب قلبك تراه يمدُّ لك البساط إليه، فلا تتأخر، فإنه لا كفَّارة لمن أدرك بساط الفضْل ولم يطَأه، لا كفَّارة للمُتأخرين!

واذكر الموعد بين يديه، ﴿وعَنت الوُجوه للحَيِّ القيوم، وقَد خابَ مَن حمَل ظُلمًا﴾. ارفع حجابك وطهر ثيابك.

يا بني، طُوبى لمن تَرك شَهوةً حاضرةً لموعدٍ غائِب لم يرَه! طُوبى له، إذا عنَت الوُجوه، وكَان ثَوبه طاهرًا.

قال التلميذ: عَلِّمني يا مَولاي كيفَ أحيا.

قال الشَّيخ: متَى ما دنوتَ منه لم تُخطئك العناية، من أذِن لروحك أنْ تَصطحب نفحةً منه، فقد أذِن لك بالوصول إليه! يا بُني، إنْ صَحَّحت النيات، صَافَوْك، وَإنْ خَلَطْتَ، خَلَّوْكَ، ولو صَحَّ الأصلُ، لصَحَّ الفَرع. إنَّ سبَب عَدم إقبالك، عدم استعدادك، لذا لا يكن همُّك كَثرة الأعمال، بل تَصحيح الأحوال. صحِّح إيمانك بالأسماء، وفوِّض الأمر إليه، صوتك المحزون عند ربك، ﴿وما كانَ ربُّك نَسِيًّا﴾.

قال التلميذ: اللهُم هذا حال قلبي (ثم صمت، تهدج صوته فقد كانت الكلمات في فم التلميذ نشيجًا، وكانت عيناه تَفيض)!

فقال الشيخ: هذا شوقٌ ينهمر، (وفي الليلةِ الظَّلماء يَشتعلُ الشوق)! تَعلَّم يا حَي يا قيوم، فإنَّها تَقي قلبك من كثيرٍ من الحزن. وقُل: حَيَّ على الدعاء، حَيَّ على الأمَل!

رُبَّ ليلةٍ، تدني سرب فَرح! وقُل: اللهُم حياةً من اسمك الحَي!

تأمَّل في حياة الصحابة والسلف والعُلماء والشُّهداء، كأنَّهم أُشربوا بركة الوقت، فصار عُمرهم وقتًا لا غروب فيه، وكأنَّ الفَناء أغلَق أبوابه، وصار الخُلد سواقي أعمارهم! تهشُّ يَد البقاء عنهم الغياب، ويتَجلَّون في كُل زمَان!

يَا بُني، حياتك تُشبه دُعاءك لو تأمَّلتْ، فالزم سؤلك ولا تيأس.

والله مَن رأى الجنَّة لم يَستبعد الطريق!

فهَاج الشوق بين التلاميذ، ونادى تلميذ: ومن رآهَا؟

قال الشَّيخ: مَن قرَّب الله خُطى قلبه، أحيا الله له قلبه. غب في لُجَّة السَّحر، فإنَّها تُقرِّب، والله أنجَح مَا طَلبتَ به، ومن وجد الله وجد الجنة، فَقُل: يَا حَي يَا قيوم، أصْلِح لي شأني كُلَّه، ولا تكِلني إلى نَفْسي طَرفةَ عَيْن.

القيوم

كان الشَّيخ يصلِّي مُسبلًا قلبه، مُستسلمًا للتلقِّي، وفي غمرة الاشتياق يرتجي المدد، فلمَّا سلَّم قال: اللهُمَّ هبني اسمك الذي تُقضى به الحوائج، اسمكَ الذي يجدُ به الواجد فوقَ ما وجد، ويجدُ به الفاقدُ كل ما فقد.

قال التلميذ: إلهي، كيف يصلك من يطلبك؟

قال الشَّيخ: يا بني، صِلْ من يبقى واهجر من يَفنى، تَصفُ وترقَ. الصَّلاة هي مِعراجك، (قَلَّ عَددها وكَثُر مَددها، تُخلِّصك كي تُخصِّصك)، فإذا سَجدْتَ على بِساط الفقر دنوت، فَقُل: يا مَن والَى علينا المنن وغَمرنا بألطافِ المنَح، دبِّر لنا فإنَّا لا نُحسن التَّدبير.

قال التلميذ: يا مولاي، يدي مَمدودةٌ، فانشلني مِن كدرِ السفح للقمَّة.

قال الشَّيخ: يا بُني، إنْ أَفرَدْتَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ، أَفْرَدَكَ بِالْعِنَايَةِ، وإذا رعاكَ سيَّرَك، وحاشا لمن اتصل به أن ينقطع.

قال التلميذ: وما معنى القَيوم؟

قال الشَّيخ: هو مَن قامت به السَّماوات والأرض، ألا يقومُ به شَأنك؟! فإذا تَسوَّرتْ الصِّعاب أسوارَ عُمرك، قُل: يا حَي يَا قيوم، دبر لي مَخرجًا! رُبَّ تدبيرٍ يُساق إليك بالدعاءِ؛ خيْرٌ من ألفِ تَخطيط. (والمعرفة تُوجِب السكينة). قل: يا حي يا قيوم، أرْهَقنا أُفول الأُمنيات، يا من قامَت بك الأرض والسماوات.

هل تأملتم ما دلالة هذه الأسماء؟ ألا تَراها تقتلعُ خَوفك، وتوقِف نزيف يأسِك، وتقول لك: ربُّك مَن قامت به السماوات، فاسأله أمرك!

هو الحي القَيوم، يكفيكَ ما يَخفى عليك! هو الحي القَيوم، فَامْدُدْ بساط الياء حتى آخر الأُفق وقُل: أنت القَيوم، اجْلُ ظُلمة الغَسق. هو القَيوم، إنْ عرفته سكَنتَ، وإن جَهِلْته جَزعت، له التَّمحيص بما يشَاء، والتَّخصيص لِمَا يشَاء، وأقداره تجري في أليقِ الأزمان لها، فلا يَسرق نَبضك القلق! أغلقْ بوابات الاغتراب عَن الله وقُل: يا حَيُّ يا قيوم، أصلِح لي شَأني!

يا بني، كُل قيامٍ بالله هو هَرولة، كُل قيامٍ بالله يعني طَي المسافَات.

يا بني، إنْ شيَّد لك الشيطان خَيمة الأحزان، وكنت فراشةً في قَوس نارٍ، فاذكُر نبيَّك في ليلة بدر يَذوب نبضًا بعد نبضٍ في: يا حي يا قَيوم برحمتك أستغيث.

اظفَر بإرث نبيِّك كاملًا وَقُل مثله: يا حَي يا قيوم برحمَتك أستَغيث. لَمْ يغفُ ليلَة بدر حتَى مرَّ به غَيْب الوَعد، ورأى مَصارع القَوم تَلوح بين يديه. سقَط الرِّداء عَن كَتفيه، فما جثَا عَن رُكبتيه، وظَلَّ يلهَج بالنِّداء: يا حَي يا قيوم، حتى رأى النصر بين يديه، كَان اللهج بالقَيوم فاتحة الدُّعاء، فكَان النَّصر: آمينا!

فاجعل ليلتك ليلة بدر، قل: يا قَيوم السَّماوات والأرض، قوِّم لنا الدُّنيا، وقوِّم لنا الدِّين.

يا حي يا قَيوم، قوِّم لنا الطُّرق، حتى تدنو إلينا الأماني البعيدة. يَا قَيوم، قوِّم لنا سُبل السعادة، مملوءةٌ أيامنا بالضَّنك! يا حي يا قَيوم، يا مَرفأ الروح، هذا الحزن يُغرقني.

يا بُني، كُل همٍّ دفَعْته بالقيّوم، حَريٌّ ألّا يعود! فيا مهمومًا بنفسه، لو ألقَيتها إليه، لاسترحت، فقُل: يا حَي يا قَيوم، لا تَكلني إلى نفسي! سُبحَانَه، اختارك عبدًا، فاختَره صَاحِبًا، اسكُن لما في يديه، ولا تختر عليه، افتَح بصيرتك على قيُّوميته، وافهَم، إن أعبَاء التَّدبير لا تحملها إلا الرُّبوبية، ولا تقوى عليها البشرية.

قال التلميذ: (في الطُّرقات يا مَولايَ فوضى، وأنتَ ملاذنا في كل فَوضى)، سُبحانك، أسمِعتني ليلًا أريقُ مدامعي؟ أسمِعتني في ظُلمة الحزن، وستَائري مَرخيَّة على جُرحي؟ أسمِعتني وأنا السَّاكن على عتبة الوَعْد؟ أسمِعتني ونحيبُ الروح يُثقلني؟!

قال الشَّيخ: قد سَمِع الله، قد سَمِع!

يا بُني، أنت في جَزع وشكوى، وهو يدبّر الأمر بمسالك لا تُرى، إنْ وكَّلته ما كان كَدرًا، صَار صَفوًا، فقل: يا حَي يا قَيوم، برحمتك أستغيث. إن استغثت بهذا الاسم جاءَك مَدٌّ ليس له جَزر، حتى تقول: كادَ العمر أن يكون عبوسًا لولا أن تداركه القيوم بالفرج. فقل: اللهمَّ تَداركني كما تداركت صالحًا في ثمود.

يا بُنَيَّ، (العبدُ بين نفحةٍ ولَفحة، ومِنحة ومِحنة، وسَلبٍ وجَلب، ونَصرٍ وكَسر)! سبحانه قال عن سليمان: ﴿نِعم العبْدُ إنَّه أوَّاب﴾ في مقام النعمة، وعن أيُّوب: ﴿نِعْم العبدُ إنَّه أوَّاب﴾ في مقامِ المحنة!

هو القَيوم، يَغسلك بالبَلاء، ثمَّ يهديكَ إليه، ابتلاكَ ليعرِّفك عليه، فَقُل: يَا حَي يا قيوم، اختبارُك وِسْعَ طاقتنا، لكنَّنا نسألك العافية. إنَّكَ سألتنا من أنفسنا ما لا نملِكُ إلا بك، اللهم فأعطِنا من أنفُسنا ما يُرضيك عنَّا.

هوَ هو، وأنتَ أنت، قام به الوجود، فكيفَ عليك لا يَجُود؟! فاطمئن إلى التَّصريف، وانشَغِل بالتَّكليف، وعَظِّم لله الحُرمة، وانشَغِل بالخدمة، فهو القيوم على أمرك.

قال تلميذ: أشتهي لو أطمئن، يا سيدي، كيف أَثبُتُ وأعاصير المنى تجتاحني؟ أشتهي أنْ آوي إلى فَرج، ويغتال يومي انتظار الغَد، كأنَّ ضِرع المنى قد جفَّ أو يَبس، وما لي إلا جذوة الهَمِّ، يا رب، هذا الدمع يبتهلُ، فهبني إجابة تروي عَطش الحلم.

قال الشَّيخ: تضلَّع مِن يا حي يا قيوم، وقل توكأْتُ مِن ضَعفي على قُوَّتك، سبحانه، من دخلَ عليه بالفقر، وهَبه الغِنى. وإذا أردتَ المواهب أنْ تنهمرَ عليك، فَصحِّح الفَقر لديك، اخرج مِن الأنا والسبب وقُل: يا حَي يا قيوم، دبِّر لي فإني لا أحسِن التَّدبير. وقُل: اختَر لي فإنِّي لا أُحسِن الاختيار، والخير يا قلب ما يختاره الله، فإنْ تُهنا فلمْ ندرِ ﴿أشَرٌّ أريدَ بمن في الأرضِ أمْ أرادَ بهم ربهم رشدًا﴾، فاجعَل عاقبةَ أمرنا رَشَدًا.

قال التلميذ: شَتات قلبي يُعذِّبني، كأنَّ نبضي مَجبولٌ على قَلقٍ، عَرجتُ فوق طِيني، فَدلَّني كيف العبور إليك!

قال الشَّيخ: ادخل بفقرك واخلع رداء الأنا، فقدْ قيل: إنْ جئتَ بلا أنَا، قَبِلناك، وإن جئت بالأنَا حَجبناك.

قال التلميذ: أواه، يا لعلة قلبي! نظرتُ إليَّ فبَعُدت المسافات عَليَّ! قلبي أرَقٌ على أرَق، يا مُؤنِس الفُقراء، إنَّ القمحَ يحترقُ، أعوذ بِلُطفك أنْ أموتَ مُنتَظِرًا.

قال الشَّيخ: حاشا للأيدي الممدودة أنْ تظلَّ فارِغة! لكنه القيوم وله التدبير كله ومواقيت الإجابة، سبحانه، لو أُذِن لك أنْ تُدبّر، كان يجبُ أن تَستحي مِن أنْ تُدبِّر، وكيفَ وقد أمرَكَ ألا تُدبِّر! ومن تدبيره أوجاعك، فلا تخش أوجاعَك، إن البِساط الذي لا تُوضَع عليه الأثقَال، تَأخُذه الرِّيح بَغتة، فاحْمَد اللهَ على أوجاعِك، فبها ثبَّتَ بِساطك!

الواجد الماجد

أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الشَّوْق لله، فسيحٌ مدى الحب فاقبلنا يا الله! أَمْسَيْنَا فِي مَقَامِ العائذين مِن الجَفَافِ، بمَا لَدَيْك! أَمَسَيْنَا نجري إليك فهَذَا أَوَانُ البَوْح، والقلبُ يعلو إليك، وما أتاك ضائقٌ إلَّا وَعَاد وصدرهُ وسع المَدَى، يا رب: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾، وَكُلُّ مَا لَم يَكُن، بمَعِيَّة الله يصل، فهون عليك، إن ما تهوى سيهوي إليك، فَأنفِق دعاءك بِـ ﴿اسم الله﴾، فَإِنَّ اللهَ يَمْلِكُ مَا اشْتَهَيْتَ! وارْفَع نشيجك: يَا رَب، إِنِّي قَدْ أَتَيْت، يَا رَب، ذَنْبِي قَدْ طَوَيت، يَا رَب، إِنْ لاقيتني فَقَد الْتَقَيْت. هُنَا اكْتِمَال الْفَضْل، وما ضاق اتسع، فَأَدْرِك مَا حِيز لَك، ينهمر الدُّعَاء سَاقِيَةً، وَ(آمين) مُفْتَتَحُ المنَى، سُبْحَانَهُ هوَ الْوَاجِدُ، ألم يَجِدْكَ تَقْتات الْأَسَى؟ ألم يَجِدْكَ قَارِبًا فِي اليمِّ، تَاه وَمَا رَسَى؟ ألم يَجِدْكَ تصطلي نَار احْتِمَال فِي انْتِظَارِ المسْتَحِيل؟ ألم يَجِدْكَ؟ أَم أَنَّك تَنْسَى مَا مَضَى؟!

قال التلميذ: بَلَى وَرَبِّي، قَد وَجَدَنِي عَائِلًا فَأَغْنَى. يا مُنتهى شَوْقِي، قَد انتبذت مِن المكَانِ قَصِيَّه، وهويت نَحْوِي وَاعْتَرَفْت، فِي لُجَّةِ الْحُزْن، كَادَ قَلْبِي يَنْكَشِف لولاك أَنْت وَمَا وَهَبت! يَا رَب، ما بين إسرائي إلَيْك، أَنْ تمَهَّد الدَّرْب لمعراجي إلَيْك، واللهِ لَوْلَا رَحْمَتك، أَلْقَى الموَازِين خاليًا.

قال الشَّيخ: قُل: أَنْت الْوَاجِد الْغَنِي، هَبْنِي فَرْجًا لَيْسَ فِيهِ مِنَّة لِأَحَدٍ، أَسْأَلُك الْقُرْب إلَيْك وَالاعْتِمَاد عَلَيْك، هَبْنِي طَرِيقًا يَنْتَهِي إلَيْك، وَاجْعَل الْعُمْر وَقْفًا عَلَيْك!

يا بُني، الدُّرُوب خَواء، وَالْخُطَى مَجْرُوحَة مهزومة، وَالْعُمْر محاصَرٌ بِـ (كَيْف/ ومَتَى/ وهَل)، إنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا الْوَاجِد الماجِد، فتعَلَّم مِن الدعاءِ أنْ يَظَلَّ نَبْض الْقَلْب إلَيْه!

يَا بُنَيَّ، الجَأَ إلَيْهِ فِي كُلِّ حَالٍ، يَكُنْ لَك فِي كُلِّ حَالٍ، وَلَوْ ضَرَبَتْ الرِّيح خباءك، وَذَوَى الزَّرْعُ كُلُّهُ، فَقُل: يَا رَب، افْعَل ما شئتَ فَإِنّ رِزْقِي عَلَيْك.

قال التلميذ: يَزِيد بِك يَقِينِي، فزدني بوهبك كُلَّ الْيَقِين، يَا رَب، فِي غَابَة الْأَحْلَام فأسِي حَافٍ، وَالنِّعْمَة أَنْت مانحها، وَمُرْسَل الرَّحْمَة وفاتحها، يَا رَب، سَفِينَة ﴿تجري بأعيننا﴾، كَيْفَ يَكُونُ مُرْسَاهَا؟! أناديكَ حَتَّى مَطْلَع الْفَرَج، وَالدَّمْعَة المخفيَّة، أَنْت تَعلمُهَا، وَأَنْت وَلِيُّهَا وقاضيها!

قال الشَّيخ: أَنْت الْوَاجِد الْغَنِي، ما مسَّنِي الضُّرُّ إنْ كُنْتَ لِي سَنَدًا، أَحْمَدُك يَا ذَا الْجُودِ وَيَا وَاهِب الْوُجُودِ عَلَى نِعَمِك الَّتِي لَا تُحْصَى عَدَدًا، حَمْدًا يَسْتَغْرِقُ طُول المدَى، حَاشَاك تُخَيِّب مَنْ رَجَا، وَتَحْرِم مَن إلَيْك الْتَجَا، تُعْطِي بِلَا سُؤَالٍ، فَكَيْفَ بِمَنْ طَلَبَ مِنْك النَّوَال؟! يَا الله، أَنْتَ الْوَاجِد الْغَنِي، هَبْ لَنَا مِنْ نُعْمَاك مَا عَلِمْت لنَا فِيهِ رِضَاك، واكسنا كِسْوَةً تَقينا بِهَا مِن الْفِتَنِ فِي جَمِيعِ عَطَايَاك!

يَا بُني، ما نَاءَ عَنْ حَاجَتِهِ، مَنْ وَهَبَ الدُّعَاء بِهَا. اسْمَع مِنِّي: إن الْعَطَايَا تنهمرُ إذَا اسْتَوْدَعْتهَا، فَقُل: أوْدعتُها رَبِّي، وكُلِّي موقنٌ أنَّ تضيعُ لَدَى الْكَرِيم ودائعُ!

بَكَى التِّلْمِيذُ وَقَال: دُونَك الدُّرُوبُ أَجْدَبَت، وَبِك الْحَيَاةُ أعْشَبَت.

قال الشَّيخ: قَد يُسَاق المرَاد وَهوَ بَعِيد، ويُرد المرَاد وَهوَ قَرِيبٌ، و﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يشاء﴾، فَقُلْ: أَنْتَ الْوَاجِد الماجِد الْغَني، أُرْزُقْنِي بِغَيْرِ حِسَابٍ، يَا مَن يُنْفِق كَيْفَ يَشَاءُ! عَلَى بَابِك الْأَعْلَى مَدَدْت يَد الرَّجا، وَمَنْ جَاءَ هَذَا الْبَاب، لَمْ يَخْشَ الرَّدَى، سُبْحَانَك، تَمْنَعُ مِنْ تَشَاءُ مِمَّا تَشَاء، وَتُعْطِي مَنْ تَشَاءُ مِمَّا تَشَاء، سُبْحَانَه، أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْكَ، وَمَا يَخْفَى عَلَيْك لَا يَخْفَى عَلَيْهِ! فَقُلْ: يَا رَب، شَيْءٌ كَانَ وَشَيْءٌ يَكُون وَشَيْءٌ لَا يَكُونُ، وَأَنْتَ الذِي بِيَدِهِ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، إذَا لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُ، فَأَرِدْ مَا يَكُونُ، أَنْت الْوَاجِد الْغَنِي، ودونك تَظَل الْخُطَى فِي تِيهِ الارْتِحَال! اللَّهُمَّ فَاسْمَع، وَإِذَا سَمِعْتَ فَأَجِب، وَإِذَا أَجَبْت فَبَلِّغ، وَإِذَا بَلَّغت فَأدِم، فَإِنَّهُ لَا يَشْقَى مَنْ كُنْتَ لَهُ، وَلَا يَسْعَدُ مَنْ كُنْتُ عَلَيْهِ.

قال التلميذ: اللَّهُمَّ نَشْكُو إِلَيْكَ (حبل المنَى بِحِبال الْيَأسِ مَعقودُ).

قال الشَّيخ: لَا تَدْخُل عَلَى اللَّهِ بِالنَّسَب، وَلَا تَسْأَله حَاجَتك بِالسَّبَب، بِاللَّهِ وَحْدَهُ، تُطْوَى المسَافَة وتُكفى المخَافَة. فَقُلْ لَهُ: انْصُرْنِي بِك لَك، وأيِّدني بِك لَك، أَفِر مِنْك إلَيْك، وَلَوْلَاك أَنْتَ مَا تُبتُ إلَيْك. إذَا حَصَلَتْ لَكَ الْعِنَايَة، سَلَك بِك مَسْلك الْهِدَايَة.

قال التلميذ: أُسبِّح بِاسْمِك، فَاجْمَع مَا تَيَسَّرَ مِنْ شتاتي، وَأشُقُّ لَيْلِي يَابِسًا، فَإِذَا الْيَقِين مِنْك كُلُّ ثَبَاتِي! عَفْوك، «فَقَد تَهتُ فِيَّ وَمَا لَدَيَّ خريطةٌ.. كُن يَا لطِيفُ بِذَا الْفُؤَادِ حَفيًّا».

قال الشَّيخ: مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَ اللَّه؟! لَا تَفقِده يا بُنيَّ!

قال التلميذ: كَيْف؟

قال الشَّيخ: تَعَرَّفْ عَلَيْهِ، إِنَّ الرُّوحَ ذوَّاقةٌ توَّاقة، فَإِن ذاقتْ، تَاقَت، فَإِن تَاقَت، اتَّصَلَتْ، وَيُدْرك وصاله، مَنْ لَمْ يَبْقَ فِيهِ لغير الله بَقِيَّة!

يَا بُني، مَنْ اتَّصَلَ بالواجِد، وَجَد، وَإِذَا وَهَبَ الله، وَسَّعَ، فَاجْمَع نَفْسكَ عَلَيْهِ. وَمنْ عمرَ الْأَوْقَات بِأَنْوَاع الْقُرُبَات، بُورِكَ لَهُ فِي الزَّمَانِ، وبورك بِهِ المكَانُ، وَإِذا تجذَّرت الْحَسَنَةُ فِي الْقَلْبِ، امْتَلَأَت الْخُطَى بِهَا، فَتَرَى صَاحِبهَا يَحْيَا بَعْدَ الموْتِ، وَلَا تَنَالُهُ حَسْرَة الْفَوْت!

تَنَهَّدَ التِّلْمِيذُ، وَقَال: أَتَوَسَّل بِك إِلَهِي فِي حِفْظِي مِنْ كُلِّ لَاهٍ، بَشِّرنِي ببشائر الْقَبُولِ فِي بُلُوغِ المأْمُول!

قال الشَّيخ: كُلُّ دُعَاءٍ يمتطي دُمُوعك يَصِل، وَكَمْ مِنْ زَفْرَة حَيْرَى، غَفَرْت خَطَايا كُبْرَى! فَقُلْ: أَنْتَ الْوَاجِد، فَجُد عَلَيْنَا بنوالِ مَا اشْتَهَيْنا، أَرِنَا الْإِجَابَة قطُوفًا دَانِيَةً عَلَيْنَا ظِلَالُهَا، هَذَا عُمْرِي، فَاجْعَلْه سَهْمًا فِي يَمِينك مَقْبُولًا مُبَارَكًا مَيْمُونًا!

الواحد الأحد

أطلَّ الشيخ مُطرِقًا، وفي عَينه هيبةُ الله، فلمَّا افتتحَ المجلسَ قال: (أيها الواهِن مِن مَشقَّة الطريق)، هنا المستراح، فألقِ هُمومك، بابُ الله واسِع، وفي نَزْف دَمعك غِناك، فوارِ سَوءتك، وَتجافَ عن هواك!

قال تلميذ: ألجَأتْنا الدنيا إلى ﴿جُرفٍ هارٍ﴾، وتَشتَّتت بنا السُّبل!

فقال الشيخ: يا بُني، اترُك الكُل، تَدرك الكُل، إن أعطَيته الكُل، أعطاكَ الكُل، وفاضتْ لك السُّبل، ما كان بالله، يَكون، ومَا بعدَ الله إلا ﴿المسْغَبة﴾، وَسِيماء كل قلبٍ، ما أقبلَ عليه، فتخير كلمات قلبك، فإنَّها تُملى على الملائكة.

يا بُني، ابدأ سيرك: بأحدٍ أحَد، ومَن لم يكن بالأحَد، لم يكن بأحد! فَوِّض الأمْر، ترَ يَد الله تَفيض، فإن اشتْدَّ الهَول، فالله بيده الحَول، ومَن لَمْ يكُن بالواحد، فضَحته الشدائد، فرتِّل ﴿قُل هو الله أحَد﴾، واذكُر: رَبٌّ لا يقبل الأرباب، مَهما قلَّ العَدد!

ثم تنهَّدَ الشيخُ وقال: إيه، أوشكَ العُمر يمضي، وما بلَغْنا صوتَ بلال (أحَدٌ أحد)! يَا أبنائي، بينَ العَبْد وَبَين ربه، مَسَافَة لا تُقطع إلا بِقَطْع العلائق، والتَّسامي عن الْعَوَائِق. هو الواحد فاغمضْ عينيك عَن، (أنا) و(أولئك)، قُل بصوتٍ خافت: يا واحِد يا أحَد ليس لي أحَد! يا واحد يا أحَد، نجِّني من الكمَد، يا ملجأ الروح، مَن فقَدك فقَدْ فُقِد! يا مَن بيده أسباب السماوات، يا

قاضي الحاجَات، يا واحدًا في مَلكوته، اغْنِني بك عمَّن سواك، لولاكَ لا سند ولا أحَد! هو الواحد في أمره لو شَاء، قادَ لك الجَمَل بِنَسج العَنكبوت!

يَا بُني، لا يقوى على الأَحزان إلا الدعاء!

بدا الشيخ وهو يتكلم، مثل فانوسٍ في جذوته فتَائل بالوجَل تشتعلُ، وفي صوته لُغةٌ ترتجف، ثمَ قال: إيه، ما أعجبَ القلب! القُرب لله، يُغنيه، والبُعد عنه، يُضنيه، ومَن مالَ قلبه لله وانعطفَ، لا يدنو منه التَّلَف! فَقُل له: أنتَ الواحِد الأحد. قُلها، وأنتَ صِفر اليدين مِن جُهدك!

يَا ولَدي، تخفَّف من شُهود الأسباب، تبلُغ، واعلَم أنَّه مَن رحل إليه بِزيِّ الفقَير المسكين، منَحه الفَتح والتَّمكين! فلا تطلُب سوى مولاك، ولا تفرح إلا بما أولاك، إنَّ كل لجُوءٍ لغير الله خُذلان، فألزِمْ قلبك معنى: لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله! هو الواحد لا يقبل قلبًا، فيه ظلمة الأرباب، فَخُذ نفْسك مِن نفْسك إليه! ومَن أسلَم قلبه لله، تولى الله جوارحه، مَن صَرف همَّه إلى الله، كفَاه مَا دونه!

قال تلميذ: كيفَ نبلُغ مقام التَّسليم؟

قال الشَّيخ: إنْ صحَّ السِّرُ، صحَّ العلنُ، وإنْ لم يصح، فلن ولَن!

ارتجفتْ شِفةُ الشيخ وهو يقول: أنْصِتوا لابنِ الجوزيِّ، (نفاقُ المنَافِقين، صيَّر المسْجِد مزبلة ﴿لَا تَقُم فِيهِ أبدًا﴾، وإخلاص المخلصين، رفع قدر الْوَسخ (رُب أَشْعَث أغبر)، وشجرة أَصْلهَا ثَابت لَا يَضرهَا حساب ﴿أَيْن شركائي﴾، وَأمَّا

شَجَرَة الرِّيَاء، فاجتُثت في أول سؤال ﴿وَقِفُوهم﴾، لا تُزاحم في غبار الأقدام، وزاحِم في تَفرُّد النيات)!

يا بُني، هل بلغكَ توحيدُ النية؟ ذاك توحيدٌ خَفيٌّ، ويوم القيامة يُقال: عَملٌ فيه رياءٌ، ما فيه ضِياء! أفتَجمعُ العَتمة للقيامة؟! أوَّاهُ أوَّاه يوم القيامة، أوَّاهُ أوَّاه إذا قيلَ هذي الصَحائف داكنٌ حبرها، والنيَّات فيها بَارزة.

ثمَ بكَى الشيخ، وقال: فأينَ أينَ المهرب؟ يَا أبنائي، فوضَى النيات، مآلها حُزن الآخرة!

قال تلميذ: الروحُ يَا رباهُ، طال شَتاتها!

قال الشَّيخ: إنَّ صاحب الصِّدق مع الله، لا تَضُرُّه الفتَن، مَن آثر الله، حَفظه مِن طَوارق المحن، ومُعضلات الفِتن! ادخُل من الليلة في جُموعهم، أولئكَ قَومٌ طَهَّرهم الله من البقايا، حتى تكتملَ لهم المزايا!

يَا ولدي، إنْ أقامَك بعونه، ثَبت، وإن قُمت بنفسك، سَقطت، فالجأ إليه في كل ما يهولك، هو الواحِد في حُكمه، إذا شَاءَ، أحدَث لك الأسباب، وما سوى الله مُقفل!

قال تلميذ: يَا سيدي، كيف نَدخُل عليه؟

قال الشَّيخ: هو الواحد، فلا تدخل عليه بالأنا؛ إذا علت الأنا، حَطَّ الخرابُ، ووقع عذابُ ﴿فحَبطتْ أعمالُهم﴾، مَن دخَل باعترافِ النَّقص في النَّفس، أمِنَ مِن أسباب النكس! قُل له: مُنقطعٌ من أسبابي، فاعتِقني مِن رِقِّيْ! هو الواحد،

فلا تُعامله بأَنصاف النِّيات، ولا أنصاف الخطوات! اركُضْ إليه في سباق النيات، ذاك سِباق: لا يبلُغ فيه إلا القليل!

يَا بُني، الأقدامُ كثيرة، والقلوبُ الواصلة قليلة، فقُل: اللَّهُم تَمِّم نقْصَنا، واجعلْ قلبي في وَدائعك، اللهُم هَبْنا عُمرًا لا يُقطَع ثَمره، وَسعيًا مُطَهَّرٌ كَدره، اللهُم اجعلْ لنا بحولك غدًا أوسع مِن أمْسنا!

يَا بُني، لا تَنْسَ وجهةَ السَّفر!

الصمد

مَن الذِي عامَلك بِلُبِّه فَلم يَربح؟ مَن الَّذِي جاءَك بكَربه فَلَمْ يَفرح؟ مَن ذَا الَّذِي لاذَ بحَبلك، فاشتَهى أَن يَبرح؟ مَن قال: السَّعة يا واهِب السَّعة، فَلم يُوهَب؟

لا تلتفتْ، ولو بحَّ السؤال في حنَاياك! لا تلتفتْ، وقُل: ولَّيتُ قلبي إليك! لا تلتفتْ، وقُل: تقَبَّلني، فإنِّي لا أرى إلاك!

ثُمَّ نظرَ الشيخ إلينا، فَخُيِّل إلينا أنَّ في وَجهه مِحرابًا خاشِعًا، فلمَّا تكلَّم، كان صوته مِئذنة!

قُل: اللهم. ويَكفيك! هو الصَّمد، تَحُجُّ إليه الحوائِج، وهو قاضيها. يا مُحتاج، إنَّ مطَالب الدُّنْيا وَالْآخِرَة فِي خَزَائِن غيبِ الله، وَمفاتيحها: الدعاء بالأسماء! فقُل لَه: أنت الصَّمَد، فبَلِّغْنا وَعد ﴿لَا خَوفٌ عَلَيْهِم﴾. أنتَ الصَّمَد، فَبَلِّغْنا دَهشة العطاءِ في مقام ﴿أنَّى يكونُ لي غُلام﴾. أنتَ الصَّمَد، فقُل للبَعيد: ﴿عسَى أنْ يَكون قَريبًا﴾. سُبحان مَن ينفخُ الروح في الحَوائج المقبورة، فإذا هي ﴿حيَّةٌ تَسعى﴾! هو الواحِد في مُلكِه، والصَّمَد في أَمْره.

يا ولدي، بالدعاء تُساقُ الأرزاق، دونَ أنْ يتعبَ حادِيها، ودونَ أنْ تَضنى روَاحلها، وإذا تولَّى الله شأنَك، أخرجكَ مِن العُسرى إلى اليُسرى، فاسْأله، فإنَّه الصَّمَد، وخَزائن الله تُغني كُل مُفتَقِر.

قال تلميذ: يَا سيدي، إذا تكلَّمتَ، تَزاوَر الهَمُّ عن قلبي، فإذا غادرْتُك، يَستَشري بي عطَشي.

قال الشَّيخ: يَهبكَ الله شُطآن العطايا، فكيف تَجُفُّ على شُطآنه عَطِشًا؟! يَهبُكَ الله بُحورًا تَغرِفُ منها، فكيفَ تظَلُّ الدِّلاء ظَمأى؟! اجعلْ النَّوح بَوحًا، يَكفكَ أنينه، كَفُّ البُؤس، نازِعْها بِكَفِّ الدعاء، ونازِعِ الأقدار بالأقدار، وفي غَيابةِ الجُبِّ قُل: بَلِّغْني ﴿يا بُشرى﴾.

يَا بُنَي، تلَفَّتْ حولَك، كُل العباد على عصَا أوجاعِها تتوَكَّأ، فقط العاكِفون على الأعتابِ مَن برؤوا!

قال تلميذ: يا سيدي، تتَراكم الهُموم، فلا نَسمع إلا وَقْع الألم على الألم!

فقال الشيخ: سُبحان مَن يُطفئ لكَ ذبالَة الألم، مَنْ فتحَ له في الدعاء، جاءَته البَشائر تَترى، أمَا سَمِعتَ أحدهم وهو يقول: فَتحتُ بابَ الدعاء، فانهالَ عليَّ الفَرج؟!

يَا بُنَي، الدعاء سَهمٌ له مَرمى، ولا بُد للسَّهم أن يصِل، ولكنَ المدى عِلمُه عند الله، فلا يُخيفك الوقت. العاكِفون على الدعاء يُثقِلون الأسحار بالأُمنيات، حتى رأوا مِن الله ما لا رَأى قلبٌ ولا خاطِرٌ يَلمح!

قال تلميذ: يَا سيدي، عندي جِرارٌ، بكلِّ الحُزن تَمتلِئ!

ردَّ الشيخ: اذهَبْ إليه وَقُل: يا مَن لا تَمتدُّ الْأَيْدِي بالرغبة وَالمسْأَلَة إِلَّا إِلَيْهِ، يَا مَن لا يُعوَّل فِي كشف شَدَائِد الدُّنْيَا وَالْآخِرَة إِلَّا عَلَيْهِ، يَا مَن كُل الرغائب لَدَيْهِ، والمواهب لَدَيْهِ، لَيْسَ لضُرنا سِواك كاشِف، وَلَا على ضَعفنا سِواك عاطِف!

قال تلميذ: يَستفتحون فَيُجابون، كيفَ يكون ذلك؟!

قال الشَّيخ: هُم قومٌ تركوا لله مَا شَانَهم، فأصلحَ الله لهم شَأْنَهمْ، الإجابةُ بعضُ كرامتهم!

يا بُنَي، إذا أدركَتكَ العِناية، لَمْ تُدركك الجِناية، فأصلِح ما بَينك وبينَه، وسارِع، فقد بقيَ القليل، وغدًا تَفنى المواسم. قُل له: يا رَب، طَهِّر عَبدك مِن إثمٍ يراوده، طَهِّر عَبدك من ماضٍ يلاحقه، تَبتلْ لِسؤاله، وَتعرَّض لِنواله! لَو سَعِدْنا بِوَصْله، مَا شَقِينا، لَو غَنينا بفَضله، مَا افْتَقرنا، ولو اختاركَ ما حرَمك ولا قَطعك!

قال تلميذ: يا رب، جئتكُ وفي كفِّي مُعاناتي، اللهُمَّ أطَويلٌ هذا الأسى أمْ يَطُول؟

قال الشَّيخ: من وسوسَ لَك باحتمالاتِ اليَأس؟

يَا ولَدي، ما يقطعكَ عَن آمالك، إلا قُنوط الخَطوات، حاشاهُ حاشاهُ أنْ يَخيب مَن دَعاه!

طَأطَأ الشيخُ رأسه، وتَبتَّل وهو يقول: يا رباه، يَا مُسبب الْأَسْبَاب، أَيْن قصادك؟ يَا رباه، أَيُّ صَدرٍ صَدر عَن بابك فارغًا؟!

يَا ولَدي، في عَراء الأسباب، رابِطْ على ثَغر قلبك، فإنَّ اليأس دسَّاس! لا يُدرك العِوَض، مَن اعتادَ قلبه السَّير في دَرب القُنوط، ائْتزِر بالأسماء، واللهِ لو مسكَ الله برحمةٍ مِنه، لصارَ جَدبكَ واحات! إنَّ الدعاء فُسحةُ الأمَل، فَقُل له: يا مَن يرى دمعَ العين مَذروفًا، اقْضِ حاجةً ﴿في نفْسِ يَعقوب﴾!

اللهُم اجعلها آخِر دمعةً قبلَ الفرح! وأحْينا في اتِّساعِ الفَرج! يا الله، أجِر حُزنًا كأنَّه أمَدٌ ما أرى له نهايات. كَرِّرها وتوسَّل، إنَّ دُعاء الاضطرار، مَحلُّ الإجابة.

يَا بُنَي، ألِح في المسألة عند رجفةِ القلب، فَإِنْ كَانَ مِدادها الدمع السَّائِل، فَهوَ الدُّعَاء الْوَاصِل، والقلبُ بالدَّمع كَلآن! اروِ مِحرابك بالدَّمع، فإنَّ المحاريب عَطْشى، دُعاءٌ بالدَّمع ريَّان، طريقك إلى بَاب الرَيان!

قال تلميذ: لا طعمَ للحُزن في مَجلِسك، لأفتحنَّ الليلةَ بِدُعائي بابًا كَان اليأسُ يوصِده!

فابتَسم الشيخُ، وقال: اللهُم تَقبَّل مَن هَرولَ إليك.

القدير

قال الشَّيخ: اسم يغزل نسيجَ الفرَجِ؛ لمن قلبه على الحزن مُقفَل! اسم هو معنى؛ لبَّيك، فَاشْدُدْ به خُيوط المنى، وقُل: (أيَّتها الهُموم كُوني كيفما شِئتِ، فإنَّ لي ربًّا قَديرًا مُقتدرًا).

علِّم قَلبك يَقين القدرة بـ ﴿عَسى اللَّهُ أنْ يأتيني بِهِم جَميعًا﴾. عَلِّمْه قدرة ﴿كانت امرأتي عَاقرًا فهَب لي مِن لَدُنك وليًّا﴾. تلك مُقدمةٌ وربِّي لا تبلُغ بالمنى النتيجة، لكنَّه القدير، (والطرُق لا تُسَدُّ على مَن أيقنَ أنَ عند الله المخارج)!

قال تلميذ: والله إنِّي لأدعو الله فما أجد ما تَصف!

قال الشَّيخ: يا بني، (إنِّي مُخبركم بأمرٍ: إنَّ لكُل اسمٍ فَتحًا، والفتحُ على قَدر الإخلاص في النيات، (ومَن فرَّغ القلب للأسماء، انهالتْ عليه الكَرامات).

يا بُني، إن استبدَّ اليأسُ بقلبك، فأنتَ لا تعرف ربَّك، لا تعرفُ القَدير، انتبه كيفَ يرتقي بكَ إلى القدير، فلا يُبقي لكَ يأسًا ولا عِلَّة! انظُر في عُمرك، كمْ من ألمٍ تولَّى كان مَشحونًا بالخُذلان! وكمْ أخرجَك الدعاء من وحْل اليأس! تحسَّس العَطايا في حياتك بعد أنْ كان يَغمرك موجُ البلايا، وخُذ من غيْث الأسماء لجَدب الأُمنيات، (فإنْ بُليت بكربٍ لا انكشافَ له، فالله أعظمُ ما يُدعى به)!

تعلَّموا قَول: اللهُم حَوِّل بقدرتك العُسر يُسرًا. تعلَّموا قول: أخرجني من حولي إلى حولك وقُدرتك، فإنَّ قُدرتك لا يعجزها شيء. كم مَرة (يتهشَّم القلبُ بآلام ما يظنُّ لها كاشفة، ثمَّ ينجبرُ حتى ينسى كُل أوجاعه، اللهُ لم يُذهبها فحَسب، بلْ جبرَ المكان كُلَّه).

قال تلميذ: ما أعجَزنا عن الصِّعاب!

ردَّ الشيخ: المؤمن رجَلٌ لا يَنهزمُ في ملاقاة الأحداث، خَلع عليها يقينه بقدرة الله، وغلَبها بالدعاء. أنتَ يا ولدي بالله أُمَّة، وبالله تنزاحُ الصخرة، وتغيبُ المشقَّة!

يا ولَدي، بالقَدير تُجتازُ المحن، وبالقَدير تُنالُ المنَن!

كمْ مرة (تطُوف بالعَبد مَضائقُ يَخالها لا تَنتهِي، فيبدِّلها اللهُ بالحَوقلة تَبديلًا، فكأنَّها لَم تكن)!

اسأل القَدير، صَفوك إنْ تعكَّر، وأمرك إن تعسَّر، وثَباتك إن تراءت لكَ الفتن كالشُّهب تَحرق، وقُل، يا رب، هذي الأماني بين يديك، يا رب، هذا الصعب ليس بَهين إلا عليك! اسأله بقوله ﴿وليَبدِّلنَّهم من بعد خَوفهم أمْنا﴾، فإنَّه قادر، ثمَّ رتِّل ﴿فأرسَلنا عليهم ريحًا وجُنودًا لم تَروها﴾، وتنفَّس الفرَج على باب القَدير!

يا لقسوة الطُّرُق يا ولدي إذا صارت الصِّعاب فيها لا تنحسر، وغابَ عنها اسمُ القدير!

قال تلميذ: لماذا غابتْ عنا هذه المعاني؟ يا لابتلائنا، لكأنَّنا نعبُد الله وفي عُمقنا يغفو الشك!

ردَّ الشيخ: ﴿أفي الله شَك﴾؟ كُل دعاءٍ بلا يقين مَجروح في معانيه، مَجروح في قَبوله، واليَقين، أنْ ترى الآتي بدعاءِ الآني، واعلَم أنَّ قيمةَ الوِرْد بما له في القَلب مِن أثر!

يا بُني، والله كُل الملاجئ دون الله كاذبة، وكُل الأحزان ليسَ لها من دون القدير كاشِفة. اترُك ما سوى الله، وتحرَّر من نفْسك؛ تَتبعكَ الأسباب. صَلِّ صلاةَ خائفٍ أنْ يمسَّ الشَّك قلبك، (وإذا بلغتَ مَطلبك؛ ابكِ ثم ابكِ، فثَمَّ الله).

قال تلميذٌ اشتَدَّ اليَقين في قَلبه مِن كَلمات الشيخ: اللهُمَّ أبلغ ما في قلوبنا مَطويًّا، وافسَح لنا في الأسماء فُسحةً تؤوينا. اللهُمَّ وقَد رَزقتني الدعاء بكلِّ هذه الأُمنيات، أسألك بقُدرتك ألا تَحرمني القُدرة على بلوغها.

ابتَسمَ الشيخ لما سَمِع، فقال: يا بُني، لا تَحبس أُمنياتِك فهذا زمَانها، علامَ لا تُلحُّ على القَدير وأنت فَقير؟! يناولكَ القدير عمرًا مكتوبًا بدعاءِ الأسحار، مَمهورًا بالإجابة، فَقُل: وإنَّني يا الله مَددتُ قلبي إليكَ، فلا ترده إلا مَجبورًا.

ثُم تنَهَّد الشيخ، وقال: وَفِّقْنا يا مَولاي إلى مَعرفتك بأسمائك!

فنَادى المنادي أن قوموا لصلاتكم يرحمكم الله، فقام الشَّيخ وقُمنا إلى الله بمجلسِ عِلم، فما وقَفنا، حتى ظننا أنَّ الملائكة بسَطت أجنحتها له رضًا بما يصْنع!

المقتدر

يا بُني، ضريحُ همِّك اقذِفه في يمِّ الدعاء، يَنجُ، ربما يهبطُ مع الموج ثُمَّ يعلو، لكن حاشَا يغرَق!

انتبِذ الليلة مع آلامك مكانَك قَصِيًّا، وحدِّث الله مِن أوجاعك حديثًا طويلًا، أرسِل همُومك في مجاري الدَّمع بين يديه، ورتِّل: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾، رتِّلها بقلبك، حتى تمس أحلامك كلَّها!

قال التلميذ: بِرَحمتكَ، ألحِق البعيد مِن آمالي بالقريب، يا مَن قُلتَ ﴿إنِّي قريب﴾، روحي تفيضُ إليكَ، خذني إليك!

قال الشَّيخ: لا تستوي النَّبضات، فادنُ إليه بالحُبِّ، هو أقرب إليك من حَبل الوريد، «فادخل إليه بالودِّ إنْ أردتَ ورُودًا، زادكَ ودًّا، إنْ رآكَ وَدودًا»! قُل له: أنت المنى أنت الغِنى، وقلبي بِسُؤلك اكتَفى، احرُس أحلامنا أنْ تنطفي!

قال التلميذ: مولاي، لي أمنيةٌ ما أراها إلا خَشبةً تُدَقُّ فيها مسامير الخُذلان، تمرُّ الأيامُ بجفافها، فلا أرى أمنياتي فيها إلا بقيةً مِن حريقها.

قال الشَّيخ: لو قالت لك الأيامُ: لا ولن، وكلَّ حروفِ نَفيها، فقُل: عند الله مفاتيح أقفالها! تأتي المصيبةُ، فإذا في أسبابِ غمِّها أسباب انفراجها، فقُل: يا رب، اجعلْ في ضِيقها سَعتها، أنتَ اللهُ، والله ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾!

تضيقُ عليك الأقدار، كأنها تستنبئ أخبار إيمانك، أتُراك ممَّن يعبده على حَرف؟! فلا تجزع، واذكر قدرته، إنَّ كل شيء كان في العَدم مَعجونًا، قبل أنْ يقول اللهُ: ﴿كُن فَيكون﴾!

قال التلميذ: توسَّدت الظُّلمة العَرجاءِ مَقدِسنا!

قال الشَّيخ: نحنُ دعوةُ نَبيٍّ، سَتقطفُ الوَعد، يا بني، إذا رأيتَ الآن وبعدَ الآن وقبلَ الآن الأقصَى مُكبَّلًا بالخِيانة، فانتظر ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾! وإذا قيلَ للأسرى: لا عاصِم مِن قَبضتنا، فانتظر ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾! وإذا ازدحمتْ في أوطاننا ضَوضاء المصالح، فانتظِر ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾!

يا بُني، نحنُ لا نملكُ حتى الممكِنا، نحنُ هناك في قَعر المنى، في ظلامٍ نَراهُ مُزمِنا، نحنُ بينَ لا شيء، ولا شيء هُنا، فيا اتِّساعَ الاسم، ويا انتهاء الهَمِّ، إذا ﴿كَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾!

قال التلميذ: أسألك نجاةً، لكن هل في مَوجِ طوفانٍ نجَاة؟

قال الشَّيخ: يا بُني، ما كان بالله يشتَدُّ، لا يهوي ولاينهَد، وليس لما تَبني يد الله هادِمٌ، تفضي إليه الأقدار، والنِّهايات أسبابَ البداية، ومَن يقرأ الغَيبَ، لا يختالُ في قلبه يَأسُ!

يا بُني، عساهُ أزِفَ الخَلاص!

قال التلميذ: أسئلةٌ تَقُود لبعضها، مَاذا/ وكيفَ/ ومتَى/ وأين! وأقولُ، قَد يدنو المنال، اللهُمَّ رحمتكَ بأمنيةٍ يستضيء بها القلبُ، لكنَّها لا تجيء!

قال الشَّيخ: افهم يا بني إن الابتلاء في البدء تمحيص، فإن صبرَ العبدُ، أوجبَ له تَخصيصًا، ثمَّ تَراه في ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾! قبلَ الوصلِ لا قبلَ، وبعدَ البُعد لا قُرب، وترى القبول يتبعُ مَكامِن النِّيات، وعلى القلوبِ مِن القَبول دلائلُ، فإن آنستَ نوره في روحك، يهمس فمُك، فيتنفَّس قلبكَ بروائح الدُّعاء!

قال التلميذ: أمشي إليكَ، (وخَطو القلبِ يَسبِقُني)، احفظْ قلبي مِن أنْ يسكنه هَمُّ الرِّزقِ وخَوف الخَلق، واسلُك بي سَبيل الصِّدق. يا سيدي، لكني (أَطوي على الخَمص الأماني، وأشتهي كَفِّي تفيض)!

قال الشَّيخ: قُل: يَا مَن لطفه بِخَلقه شامِل، وخَيره لِعَبده واصِل، يَا رب، أنتَ المقتدر، فَحُفنا بِلُطفك فيمَا نَزل، يا لطيفًا لَمْ يزِل، أنتَ العليم بما سبقَ في الأزَل، يا ذا اللُّطف الكافِي، والبِرِّ الوافي، والقُدرة العالية. اللهُمَّ اكفِنا كُلَّ هَمٍّ في كُلِّ سبيل، بِـ ﴿حَسبنا الله ونعمَ الوَكيل﴾، صُب الإجابةَ على دُعائي صبًّا صبًّا، أعوذُ بك أنْ أنغمسَ في شتَات الهَمِّ!

يا بُني، إذا لاحت الإجابةُ، غِيضَ الدَّمع، فَقد انقضَى الأمر!

يا بُني، قَدَره في عَبده تخليصًا لِعَيبِه، ثمَّ تخصيصًا لقلبه، فلا تَجمع على نفسك وجود الضُّرِّ وفَقد الأجر، ولا يُشغلك الضَّرر عن حكمة الله في القَدر.

يا بُني، ثِقْ أنَّ مَن تَرك المكروهات، يُسِّرت له الخَيرات، فاخرُج عن مُرادك، يبَلِّغْكَ عينَ المراد، ويُصبحُ عُمركَ كلُّه زمن الإجابة!

كلُّ شيءٍ قالهُ اللهُ يكون، كلُّ ضيقٍ قَدَّرَ المولى سَعَة، فاغتنم عمرك.

المقدم المؤخر

دَعا الشيخُ، فكأنَّه غَيمٌ بالبَشائر يَهطل، ثُم ختَم بقوله: وفي القلب مَرسى اليَقين، ولا وصولَ بلا اتصال، قِفُوا على العَتبات، فثمَّ هُناك الهِبات! واللهِ، لو كانَ سُؤلُكَ (في بِئرٍ مُغلَّقة بألفِ قفلٍ)، فَمفتاحها الله، لو بُعثرتْ أحوالك، يَلُمُّها الله، تخنقكُ أنفاسُ الهَمِّ، خَصمها الله، انكأْ ما يؤلمك من الجِراح وقُل: لها الله!

يا أبنائي، إذا رُزق العبدُ دعوات دائمة فَليعلمْ أنَّ السِّهام صائبة! انطقْ به دَأبًا، تَكفَ به المؤَن، فاعكفْ على ما تريد، ولا تتَّهم الله في تَقديره ولا تَدبيره، وتعلَّمْ التَّفويض!

قال تلميذ: إيه، ما أراها إلا أماني تَحتضر!

قال الشَّيخ: كُل قسمةٍ لمْ تَصلك، فإنَّما هي فتنة، والله حِماك، فلا تتَّهم مَولاك في حُكمه فَيخذلك، إنْ أخَّرك، فما ترَكك، ولكنْ للغنَائم أجَّلك! يَرميك في غيابةِ الجبِّ، ويَسعى بالعَزيز نحوَك، يُقايضونك بالسِّجن، فَيُرسل الله لكَ حُلمًا يُطلق أسْرك، يَبنيكَ، وأنتَ تَظنُّ أنَه يَهدمك، تجُفُّ السُّبل، وما تدري أنَّه يجري لكَ زَمزمك! تراهُ في الحيَاة يَهزمك، وقد كان يَعصِمك، يؤخِّرَك، فيَحفظكَ، ولو قدَّمك، لأهلكك! تَلحُّ في استِجدائه، وما تسمع جَوابًا، ولو تنبَّهتَ، لرأيتَ

تدبيره يُكلِّمك! رُبما جمعَ عليكَ الهُموم، لِيُخلِّصك، رُبما شَدَدْتَ القوسَ ترمي أسْهُمك، فحالَ بينكَ وبينها حتى لا تُصيب أضْلُعك!

هو المقدِّم لما يحفظ عُمرك، وهو المؤخِّر لكلِّ ما يغتالُ جَذرك، إنْ رعاكَ، هيهاتَ هيهات أنْ يَشُقَّ غُبارك، وعلى أعتابه لازِمْ ولا تتحرَّك! زاحِم بَين الزِّحام، حاشا المقدِّم أن يؤخرك! هو المقدِّم والمؤخِّر، يُؤخِّر لك أمرًا، لأنَّ أحلامًا قد حانَ مَولدها، تشاءُ أنتَ القَطْر، ويشاءُ لك المطر! لِمَا القلقُ، واللهُ تكفَّل بما خَلق؟! فتأدَّب مع الله، وانتظر مواسِم الكَشف، إنَّ الإجابةَ مرهونةٌ بأوقاتها، وبالدعاء تُساق الأقْدارُ إلى مَواقيتها! قُلْ لَه: أنتَ المقدِّم والمؤخِّر، يا من منعَ وأعطى، أنت المطلوب ومُنتهى المنى!

يا بني، أنتَ في زَحمة الفَقر، والله لك في مدَد الغِنى، وتَظنُّ أنه يَمنعك، فلا تَجزع، إنْ زارتك البَليَّة، خلِّ سَبيلها ولا تَجزع مِن مجيئها، فهي لمْ تأتِ لِتُهلكك، بلْ جاءَت تُجرِّبك، يا بني، لا يَشُفُّ الغَيب لِمَن حَجبه الشَّك!

قال تلميذ: يا سيدي، كيفَ احتَملوا مَشقَّة الانتظار؟

قال الشَّيخ: لا يَهولنَّك طُول الطريق، فإنَّه يُطوى لِمَن صَدق، فَوثِّق بالأسماء الحُسنى عرى يَقينك، وكُنْ على ثقةٍ فيمن تلُوذُ بِهِ، وانْشَغِل بالصَّبر والدعاء، سيجعل اللهُ باطِنها فيه الرَّحمة، وقُل: اللهُم سُقنا إليك بالرِّضا.

قال تلميذ: نَستغفرُ الله، أنتَ المقَدم والمؤخِّر، اللهُم عَجِّل الفرَج، لحاجاتٍ تعلمُ شَوقها المكنون فِي الضَّمائر.

قال الشَّيخ: يا أبنائي، الدعاء بالأسماءِ الحسنى بريد الإجابة، قد دَنت عَناقيدها، وكل الشدائد بَتْراء، إذا أُلهِمَ العَبدُ الدعاء.

يا بُني، الدعاءُ مَطلوب، والعَطاء مَضْمُون، وَبِحكمته يُتيح فرجًا بينَ الكافِ والنُّون! لا تعجلْ عليه، سُبحانه، لا تُخذَل الحَوائج بينَ يديه! يا بُني، كُف عن لسانِ الشكوى، حتى يَنقضي أجَل البَلاء، وافهمْ عنِّي: إنَّ الغافلَ بَصره في الدنيا، والواصِل بصَره في العُقبى!

قال تلميذ: كيفَ نُعامله باسمِ المقَدِّم المؤخِّر يَا سيدي؟

قال الشَّيخ: يَا بُني، لا تتأخَّر وقل: إِنْ لم ترْض عنّي، فَاعْفُ عني.

يا أبنائي، أنصتوا لابن الجوزي إذ يقول: بَادِرُوا قبل الْعَوَائِق، واستَدرِكوا، فَمَا كل طَالبٍ لَاحق، ولربما سبق إلى أنفاسك الأجَل، هَذَا أَوَان جدِّك، إِن كنت مُجدًّا، هَذَا زمَان استعدادك، إن كُنتَ مُستعدًّا! لا يزالُ المرء يتأخَّر، حتى يؤخِّره الله، ففتِّش عن سببِ عَجْزك، وقُل: يَا نفسُ، قد آن أَن تُقدِّمي، قَد آنَ قد آنَا، يَكْفِيك مَا مضَى، وما كَانَ ومَا كَانَا! واذكُروا أنَّ مَوعدنا مقابر الأسَف! فَقِفْ الآن على جَادَّةِ التأسُّف، والزمْ البُكاء على التَّخلُّف.

قال تلميذ: أترانا مِمَّن جَفَّ القلمُ على اصْطفائهم، وفي سابقِ عِلمك، كتبتَ مقاماتهم؟!

تَلا الشيخُ: ﴿رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. سُبحان الله! الخَلائقُ فِي غُرورهم، والمبصرون أعينهم إِلَى قُبُورهم، النَّاس في

رقادهم، والواصلون فِي جمْع زادهم! عاتِب ذاتك، وقُل: سَبَقَك أهل العزائم، وَأَنت فِي الْيَقَظَة نَائِم، إنَّ الله وملائِكَتَه يُصَلُّون على الصفِّ المقدَّم، فاذكُر أنَ المرء حيث وضعَ نفسه.

فبَكَى تلميذٌ، وقال: اللهُمَّ هَبْنا مِن الجنَّة أنفَاسها، اللهُمَّ امْحُ عَن خَفقة القلبِ ضَلالها، وامْحُ مِن الصُّحف أوزارها، وَسُقْنا إليكَ خِفافًا، نَعوذُ بك أن تَمضي الخُطى في سَرابها!

قال الشَّيخ: لو تَجلَّى اللهُ في قَلبك، لَدُكَّت الوسَاوس دكًّا، فاسألوا اللهَ أدَب اليَقين!

الأول الآخر

قال التلميذ: يا رب، أعِذْ قلبي وأدركْ غُربتي، أوشكَ عُمري منِّي أن يضيع، جاءَني الهوى بالتِّيه، فعامِلني بِفَضلك يا سميع. (يَا مَن تدري ما نكابده، اشفِ الصُّدور بفَرجٍ مِنك ينهمر)، اللهمَّ فَرجًا يبلغ به الحَمد مُنتهاه!

سَمِعَ الشيخ مُناجاة التلميذ فقال: جُد اللهمَّ بما هو مِنك على ما هو منَّا، أنتَ الأَوَّل وأنت الآخِر.

يا بُنيَّ، مَن عَمِل بالعافية في أوَّل أمره، رُزِق العافية في آخِر أمْرِه، فَقُل: يَا مَن رَزقتني عافية الجَوارح، ارزقني عافية القلب من الهم، وعافية العمرِ من ذنب يمنعُ العطاء ويحبِسُ الدعاء.

قال التلميذ: آمين آمين، اللهُمَّ إنَّ إحسان الوَعد إنجازه، فأنجِز لنا.

قال الشَّيخ: يا بني، هذا طريقٌ أوله اشتياق، وآخره ارتقاء، وبينهما احتراق، فحرِّر أوَّلك كَي يقبلكَ فيُكملك، ومَن جمع لله أوَّله، جمع الله له آخره.

يا بُنَي، إنْ كان الله في قلبك أولًا، كان لك آخر، والهدى بالله يُستَزاد. هو الأوَّل وهو الآخر، فَقُل: يا رب، أفِرُّ منكَ إليك، وأتوسَّل بك إليك، فكما كنتَ دليلي إليك، فكن اللهمَّ شَفيعي لديك، سيئاتي منِّي وحسناتي منك، فعامِلني بالإحسان لا بالميزان، وبالفضل لا بالعَدل!

قال التلميذ: يا رب، قلبي رياحُ الشَّك تَجرفه، وفتنة الشَّهوات تَخطفه.

قال الشَّيخ: يا بُنيَّ، كُن أوَّل الأوَّل عند الله، وكُن آخِر الآخِر إذا ما النَّاس قد سَقطوا، هو خيرٌ لك منك لنفسك، لأنَّه أوَّلك وآخِرك، وليسَ بعده آخر، فَقُل: إليك إلهي المفرُّ، ومعكَ المقَرُّ، أنا بِك، لا أملكُ إلا مِنك، ولا أُعطي إلا بِك، سُبحانه، هو الأوَّل في إيجادك وهو الآخِر في لقائك! سبحانه ليس بعده شيء ولولاه ما كان شيء.

قال التلميذ: والله يا رب، لا أملك أمرًا مِن أمري، وأراني مِن حُزنٍ إلى حزن، والأماني خيال من خيالي!

قال الشَّيخ: العابرون على دُروب الوجَع إن كَان أوَّل العبور لله، كان آخِره الفَرج، المتعَبون مِن نَزْع الهوى إن كانَ أوَّل الصَّبر لله، كان آخِره الرِّضَا. ما مسَّك الألم، إن كان الله في أوَّل الأمر وآخره! سبحانه، كان بتدبيره لك من قبل أن تكون لنفسك، تولَّى رعايتك قبل ظُهورك، هو أولى بك منك، وأملَكُ لك، وأقرب إليك، فَقُل: خرجتُ مِن حولي إليك، اللهمَّ أنت الأول والآخر والمصير إليك، فقل: يا رب، السُّبل كلها بين يديك، والجهات كلُّها لا تخفى عليك، فاهدِني سواء السبيل إليك.

أعدَّ لك وجودك من قبل أن يظهرك لجوده، فاسألْه كل شيء، فهو المالك لكل شيء، المدبر لملكه وليس له فيه ظهير، والمنفرد بحكمه دون وزير، ولا يليق به: لو أنَّ ولكن، سبق الزمان بعلمه، ويكون وكان!

قال التلميذ: يا سيدي، ما حالُ قلبٍ كان في أوَّله محسنًا، ثمَّ صار آخر العمر أنقاضَ عِصمة؟

قال الشَّيخ: يا بُني، ذاكَ قلبٌ كانت تخطو على الأرض عثرته!

قال التلميذ: لَمْ أفهَم!

قال الشَّيخ: قُل أعوذ باللهِ مِن غِشٍّ في البدايات، يَعقُبه خذلان في النِّهايات، أمر ما كان لله في أوله فقل

أعوذُ باللهِ مِن الزَّلل، وقد قارَب السبيل نهايته!

يا بُني، لا سلامةَ إلا بسابق تَوفيق، فاسأل الله عنايته.

قال التلميذ: عَفوك يا مَولاي، أعوذُ بك من رِياء، يجعلُ السَّعي عَصفًا مأكولًا!

قال الشَّيخ: مَن سقى غرْسَه، اجتنى غَرسَه، ومَن راعى ما مضى، حُفِظَ فيما بقي! هو الأول وهو الآخر في الأمر كله.

يا بُني، هو الله، مَن حَلَّ عليه لم يرحَل، فإيَّاك أن تَتوه عنه!

قال التلميذ: كيفَ نَثْبُت؟

قال الشَّيخ: لا يَصِل سالِك إليه، إلا مِن التَخلِّي، ولا تثبُت قدمٌ، إلا بالتَّحلِّي، وَمَن سلك بقوَّة في درب التَّكليف، دَرجَ في مِعراج التَّشريف! هذا أول الأمر عنده وكذا آخره.

يا بُنيَّ، نَظَرْنَا فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَإِذَا الَّذِينَ بَلَغُوا مِنْهُ الْغَايَاتِ الْمُنْفَرِدُونَ، فتفرَّد وكُن عنده أولًا، يكن لك في عُقباك آخِر!

يا بُنيَّ، التَّلبية أوَّل الابتداء، فردِّد: لبَّيك أنتَ ربي في كُل حَال، سبحانك أنت الأوَّل ولا ثانٍ، والمشار إليه في جميع المعاني!

يا بُنيَّ، هو الأوَّل والآخِر، والغنيُّ عن الشِّرك، لا يرضَى الله بقلبٍ فيه ذلُّ المزاحمة، فسَائِل نفسك، ماذا اصطفيتَ لنبضك؟

قال التلميذ: يخنقُ قلبي ضَجيج الأنا!

قال الشَّيخ: يا بُني، مَن رأى نفسه بالعِلم، زَلَّ به، ومَن رأى نفسه بالعَمل، وقفَ به، ومَن رأى نفسه بالعَقل، عثَر به، فإن استفاقت فيك فتنة الأَنا، فَقُل: قليلٌ أنَا بالأنَا، كثير أنَا بِلا أنَا!

يا بُني، مَن كان بالأنا معجونًا، فذكره عند الله مدفون، فدع عنك أنا وأنا، إنَّ ﴿أنَا خَيرٌ مِنه﴾، أوَّل جَمرة النَّار، ومَن قالَ: أنَا أنَا، ذاك عبدٌ بِقَيده مُرتَهن رهنًا، ومَن كَان ملء ثيابه ﴿أنَا خَيرٌ منه﴾، كان ملء عَتمته، فطَهِّر جَنانك، إنَّ الأنا وهجُ السَّرابِ ويوم القيامة حَسرته، فَردِّد على قلبك: ﴿إنَّ إلى رَبِّك الرُّجعَى﴾، وقُل: يا رب، ارزُق خُطَاي الرَّجعة.

يا بُنيَّ، مخذولٌ مَن اشتغل بنفسه عنه، فكُن لِنفسك بألَّا تكون لها!

يا بُنيَّ، قل لله: يا رب أعنِي كي أدنو إليك، يا رب، أعوذ بك أن يفنى عمري في وصل لا يصلني بك، أنت الأول وأنت الآخر ولا يبقى إلا ما اتصل بك!

الظاهر الباطن

اللهُمَّ افتح بالدُّعاء حُلمًا مَوصُودًا، وهَبْني قلبًا سَؤولًا!

قال تلميذ: والله، ما زالَ قلبي في الإجابة يَرتجي!

قال الشَّيخ: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾؟ كلَّما رفَعْتَ يديك، بَسط لك، وما البلايا إلا مُطهِّرات، فلَربما أرادَك لقُربه، فطَهَّرَك. اكْلأْ الآهاتِ بالدُّعاء، (وَعَضَّ بنواجذك على صَبرك)، فإنْ رأيتَ يَباس حُلُمٍ يَذروه الشَّك، فقل: لَه اللهُ!

يا بُنيَّ، طهِّر قلبكَ مِن الدَّنس، تحظَ بِعَون الله في كُل نَفَس.

قال تلميذ: مَا نراكَ إلا حَولَ البواطِن تُدَنْدِن!

قال الشَّيخ: يَا بُنَي، إذا غُلِّقَت الأبواب، وقالت الفِتنةُ ﴿هَيْتَ لكَ﴾، مَا يُنجيك منها إلا ما في صَومعةُ قَلبك! تُجُرُّ الخُطى، وتَنفرطُ العُرى، إذا كانت البواطِن عارية! باطِنٌ مُعتِمٌ، تُرْبته تُربةٌ مُتَيبِّسة، طلَعُها أعمالُ يوم القِيامة هامِدة!

مَن أسرَف في باطِنه، جاءَت كَفه يومَ القيامة مُفلِسة، إذا باحَت الأعمالُ بأسْرارها، فاسألوا اللهَ صفاءَ الحسَنات مِن فَجأةِ الآفات!

قال التلميذ: اللهُمَّ حسَنات بلا مَنٍّ ولا كَدَر، اللهُمَّ نَجِّ بَواطننا إذا هَبَّ عاصفٌ مِن الفِتَن، أعوذُ بك أن أُبعَث، وفراغ الخَواء في يَدي!

قال الشَّيخ: هو الباطن، عَلمَ خبَاياهم، فملأَ الموازينَ لهم من سرٍّ ما أسَرُّوا! سَتروا قِيامهم بِاللَّيْلِ، فَستَر جَزاءهم، أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ الْغَيْر ﴿فَلَا تعلمُ نفسٌ ما أُخفيَ لهم﴾!

يَا بُني، لما عَلمَ الصالحون خطَر النِّيات، أَدْلجوا بالْأَعْمَال فِي ليلِ الصَّمت، وخبَّؤوا الأنَّات لموعدٍ، تُضاعَف فيه الحسَنات! أولئكَ قومٌ، لَئِن طَواهم الفَناء، فلقَد نشَرهم الثَّناء! رابَطوا على البواطِن وما تَحوي الضُّلوع لِعلمهم، أنَّ ما طُويَ في الضَّمائر يَظهَر في المصائر! فاجعلْ وِرْدَ إخلاصِك: الله الباطن الظاهر، ذاكَ والله خَلاصك! هو الباطِن، يُقصي عن القُرب، ما كان عاكرًا، فقُل، اللهُمَّ انْزَع مِن الصُّحف عَذابها، ومِن الموازين فَراغها، ومِن البواطِن ضَلالها، ومِن الخَطوات حيرتَها، واجعلْ بالقَبول على الصِّراط ثباتَها!

قال تلميذ: أُعيذُ قلبْي مِن ذنبٍ يُكَدِّره، وأُعيذه مِن زَلَلٍ يؤرِّقه، وأُعيذُ قلبي مِن يأسٍ، كَاد يحرقه!

قال الشَّيخ: إنما تُشرِق القلوبُ، إذا طَهُرت مِن عَتمة الذُّنوب، يا بني، إذا تمكَّن نورُ الله في السر، نطقتْ الجوَارح بالبِرِّ، وإذا طابَت السَّريرة، رُزِق العبدُ البصيرة! والله، كَاد القَبول في الأحوال، يُفصِح!

يا بُني، إنَّ أمارَةَ المقبولين، النَّجاةُ مِن الفِتَن، وما قَتلى الطريق، إلا قومٌ باطنهم التَّخليط وظاهِرهم شَهواتٌ استولتْ على الجوارِح فما أبقَتْ! وحَسب الخَفايا أنَّ الله الباطن يَعلمها! يَا حسرةَ مَن يُبعَث، لا واحدٌ وجَدَ ولا أحَد!

يَا بُنَي، مَن أهمَلَ نَظر الله في الخَلوات، محَا الله محاسنَ ذِكْره، فاحذَر أَن تكون ثَنَاءً منشورًا، وعَيبًا مَسْتُورًا. والله، كُل ألسنةِ الخَلق لا تَسترُ سَوءةً كشفَها الله!

قال تلميذ: نَعوذُ بك أن تَدَّعي الألسن، غَير ما تُبطِن، اللهُمَّ مَهِّد للسبيل هُداه، وَهَيِّء للقلب ممشاه، واعْصِمني مِن مَوضع الحيرة، ومِن زلَّة القَدم!

قال الشَّيخ: سأعلِّمكم أمرًا؛ (من امتَطى جواد الإخلاص، سبَق)، ومن خاضَ في نيات العِباد، غَرق، فانْشَغِل بباطنك، عَن بواطن مَن خَلق!

يَا أبنائي، تَتبُّع العُيوب، مِن أعظَم الذنوب، و(إذا أرادَ الله بعبدهِ خيرًا، شغَله بِعُيوبه)!

قال تلميذ: كيفَ يستقيمُ الظاهِر؟

قال الشَّيخ: وخالصُ المنن أن يجعلَ اللهُ لك السر كالعلن! ومَن راقَب الله في خطَرات قلبه، عَصمه الله في حركات جَوارحه، وما أسَاءَ أحَدٌ الأدبَ في الظاهِر، إلا عُوقِب ظاهرًا، ولا أسَاءَ أحَدٌ الأدب باطِنًا، إلا عوقِب باطنًا! طَهّروا بواطِنكم، فإنَّما هي خاتمة واحِدة، ثُمَّ اسأل الله، وقُل: أَعُوذ بك مِن تَقلُّب القلب كلَّما هبَّت ريحُ الفِتنة، نَعُوذ بالله مِن فَقد النُّور، إذا هجَمت العَتمة، نَعُوذ بك مِن السَّلب بعدَ الوَهب! وما ابْتُلي القلب بمثل التدرُّج في السَّلب!

قال تلميذ: لله ما نلقَى، اللهُمَّ قُلوبنا ظمأى، تَستَسقي من خَزَائِن فَيضك آمَالها، وتَرجوكَ مِن مكنون غَيبك، أن تَمسح آلامها، ونَسْأَلك مِمَّا كَتبتَ على نَفْسك مِن الرَّحْمَة صَلاح أحوالها! يَا الله، مَن يحمي البواطن مِن الأذى، ومِن

ارتيابها، أطْلقْ نيَّاتنا مِن أغلالها! يا رب، لله ما نَهوى، فاصْرف عنَّا الرَّدى، وثبِّت ألسِنتنا، إذا جَفَّ الريق وما عَاد لأصواتنا صَدى، أنتَ الباطِن الظاهر، فاجعلْ بواطِننا خيرًا مِن ظواهِرنا، وأسْبِل علَينا الستر!

قال الشَّيخ: أمْسيَنا وأمسَت القلوبُ لله، يَا بُني، فَتش الليلةَ في بَعضِك عَن كُلِّك، وصَلِّ صلاةَ التَّوبة، واختِم بِلَمِّ ما في باطِنك مِن العَثرة، وتقرب للباطن سبحانه بباطنك وقُل: اللهُمَّ هذا القلبُ مَسَّه الضُّر، فأصْلِح منه جراحًا غائرة!

الظاهر الباطن

تَعلَّمتُ مِن صُحبة الله ألا أخاف، وأنَّ الآلام بأثقالهنَّ خِفافٌ خِفاف، وأنَّ الإجابة تأتي رغم الجَفاف، وبملءِ اليقينِ مِن يمينِ الرَّحمن، آنسَ قلبي وَصلًا، ربٌّ إذا اقتربت منه، جازتْ لك الصَّلاة!

يَا أبنائي، المتَّصل بالمرفوع، مَرفُوع، والمتَّصل بالمحفوظ، مَحفوظ، فاتَّصِل بالقُرآن إنَّه امتدادك، وعالي الإسناد بالحُب، تواترتْ له الهِبات، ومن سَكنهُ القرآنُ كان سكينته، فَقُل، اللهمَّ أوصِلني إليكَ بكتابِك، يَا رب، أثبتْني بكلماتِك كما ثبَّتني بِك، فإن أرادك لكلماته فقد اصطفاك، وحينها إذا صحَّت المكاسِب، صُبَّت عليكَ المواهب!

ارتعَش التلميذ للكلماتِ فقال: يا رب، ما زلتُ أفتِّش في قلبي عنك، بُحَّ قلبي، وفَرطُ الدَّمع يُناديك، إنْ لمْ يَشُق القَلب نحوكَ الطَّريق، فحسَناتي آفِلة!

قال الشَّيخ: (حَملتُ قلبي على كَفِّي وسرتُ بهِ، لما تيقَّنتُ أنَّ الله يكفيهِ). يَا بُنيَّ، ظاهِرك في العناية، إذا كَان باطِنك لم تمسَسْه الخيانَة!

يَا بُنيَّ، هو الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، جعلَ في الجنَّة غُرفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطِنها من ظاهِرها، لمن صلَّى باللَّيل والنَّاسُ نِيام، حيثُ لا تَراه الناس. وسُنَّة الله، مَن يُخلص سَريرته، أنْ يعظِّمَ اللهُ في الناس مَشهده، والعابِدون للأضْواء والملأ، مِشكاتهم سُرعان ما تنطفئ، ووَهن الباطِن لا يَلِدُ إلا الزَّبَد! فَقُل: اللهُمَّ

أنتَ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، لا يخفَى عليكَ شيء، لُمَّ قلبي علَيك، واجعَل عُمري صَلاةً عارِجةً إليك، وقبلَ الوداعِ الأخير، خُذني في وُدٍّ إليك!

قال التلميذ: يَا رب، كَان لي قلبٌ وفَقدتُه!

قال الشَّيخ: رُبَّما امتحنكَ، فَهيَّأ لكَ حَرامها قبلَ حَلالها، وأورثكَ مَتاعها وحُطامها، فإيَّاك أنْ يهفو قلبك، إذا اشتدَّت عليك الفِتن في زحامها، ذاكَ اختبارٌ ﴿لِيسْأل الصَّادِقِين عَن صِدْقِهم﴾!

يا بُنيَّ، الخُطى المذعورة مِن آثامها، يحفرُ الله آثارها قَبولًا في الغيب، ومآلها ﴿قَدمُ صِدق﴾! سُبحانه، يُظهِرُ ما بَطن فيكَ، ثُمَّ يَجتبيك!

يَا بُنَيَّ، ألا تعلم أن مكنون القَلب الصَّافي، يفوح بالسِّر الخافِي؟ ومَن راعَى قلبه، لم يَتلف في تَقلُّبه، والقلبُ يقطف ما أسقَيته زمَنًا، وإذا ما التَوى، التَوى!

قال التلميذ: كيفَ يكون ذلك؟

قال الشَّيخ: أنتَ عبدُ ما استولى عليك. يَا ولَدي، افهم عني: إذا التفتَ القلب، تفلَّت الزِّمام فانفلَت، أقسَى الهَزائم، قلبٌ أضاءَ ثُمَّ انطفَأ، وقبلَ آخر الدَّرب، انكفأ!

يا ولدي، إنَّ المتقلِّب لا يصلح لشيء، أولئكَ ما ﴿صَدقوا ما عاهَدوا الله عليه﴾، فَقُل: أعوذُ بالله مِن فجيعةِ الصُّحف، أعوذُ بالله إذا صَار الباطِن ظاهِرًا، وصارت النيات ثِيابًا، أعوذ بالله مِن أنْ نُنبَذَ في العَراء!

فاهتزَّ التلميذُ وقال: اللهُمَّ أنتَ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، وإلى أسمائِك ألتَجئ، أنتَ اللهُ في بُعدي وفي قُربي، قلبي طليقٌ مِن سِواك، وحسبي أنَّك حسبي. يَا رب، إذا يَبس في الحَلق النَّدى، أعوذ بك من أن يذهبَ السَّعي سُدى، استُرني، واجعل تحتَ السَّتر ما تُحِب!

قال الشَّيخ: الخواتيمُ غيبُ القُلوب، والحَالُ ما فاضتْ به الأرواح، فإذا انفرطَت مَسبحة العُمر، وسيقت الرُّوح لعَتمة المجهول في القَبر، فإيَّاك أنْ تلقَى اللهَ فيُقال لَك: عبدٌ لَيته اكتمَل! ذاكَ عبدٌ يستوحشُ نَقصه يوم القيامة، ومَن لم يَسْعَ للكمال، شَدَّه الشَّيطان للزوال.

قال التلميذ: أنتَ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، تَرى الفِتنةُ تَعوي في دَمي، فاربِط على قلبي!

قال الشَّيخ: قُل: اللهُمَّ ألبِسني جِلباب السَّتر، واجعل مع السَّتر العِصمة، ألبِسني عبَاءة السَّتر، إنَّ المنعَ عُضري!

قال التلميذ: مَن يُنقذ الباطِن مِن فوضَى الوسوسة؟ يَا سيدي، أعِنّي على باطِني!

قال الشَّيخ: مَن خَلا مِن التَّقوى، فهو مِن أهْل الهَوى والدَّعوى، فاقبض قلبك عَن الهوى، واقبض سَعيك عن أسبابه.

يَا بُنيَّ، المرء مطويٌّ على أسراره، طَي الكتاب، وخَطوه عنوانه، امْدُد قلبك إليه، ولا تتعثَّر في عَتمة الهوَى، وقُل: اللَّهُمَّ ثِيابًا لا تحتاجُ تَرقيعًا!

قال التلميذ: أنتَ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، هبنا ما يرضيك عن بواطننا!

قال الشَّيخ: يَا ولدي، تُكرَم السَّريرة، إذا صِينت بالتَّقوى، ومَن راءَ، فَضَحتْهُ شَواهِد الامتحان.

بكَى التلميذ وقال: أنتَ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، سِتْرُكَ يا مَن يَرى ما أخفيتُ في السَّوادِ مِن الفُؤاد!

قال الشَّيخ: إذا راءيتَ، سُلِبتَ وَمُنعتَ ما أُعطيت، وربَّ عمَلٍ ارتفع في كفَّة الميزان، وعملٍ انخفضَ في كفَّة الرُّجحان، فالزمْ عبادةَ الخَلوات، فإنَّها زادُ الثَّبات، وَقُل: أستغفرُ الله مما أملِك، وأستصلحه لِمَا لا أملِك، يا رب، ألبِسني ثَوب العِصمة!

قال التلميذ: آمين!

قال الشَّيخ: حاشَا لِقُطعان الحُزن أنْ تنهشَ قلبًا بالله أضَاء، حاشَا لِصُحفٍ مُثقَلة بأسرارِ الخَبايا أن تكونَ خَواء، حَاشَا لقلبٍ يرفُّ خَشية، ألا يفوحَ منه مِسك الخِتَام، ومَن يأوي إليكَ، حاشَا أنْ يَتيه، أنت الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ والعليم!

قال التلميذ: تلفَّتَ الدَّمع إلى الدَّمع، وَقضت الأحزانُ في قلبي سُباتها، وَتعلمُ يَا رب أنَّ النَّار في أوجِ اتِّقادها، فارحَم مَن أفقَره الجُوع وَبعْثَره، اللهُمَّ عطَاءك الذي لا يقوى عليه فَقرٌ ولا ضُر!

قال الشَّيخ: إذا كَان الدُّعاء مُبتلًّا، يَقطُر دَمعًا، جَاءَ الجَوابُ سَحابًا يَركُمه الغَيث!

البَرُّ

إلهي، أكثيرٌ عليَّ أن أتمنَّى في الزَّمن المشهود؟! أكثيرٌ عليَّ أنْ أقول: يا آخِر الهَمِّ في قلبي وأحزنه، هذه مفاتيح الوَهب، يَا دعوةً في ضَباب الدَّمع غافية، هذه مفاتيح الفَضل! أكثيرٌ عليَّ أنْ أقول: في يَدي أُمنيةٌ مُغلقة، وقلبٌ يَنتظِر، وفي الفُؤادِ ضجيجٌ، ليسَ يَسمعه سواكَ!

أنتَ البَرُّ الرَّحيم، وآمالي على بابِك، والقلبُ يسألك وعدًا يُواسيهِ! أمُدُّ قلبي نحو الغيبِ أجنحةً، ومَن أتى بالحُبِّ، كُلُّ الحُبِّ يأتِيهِ، وما كَان حزنًا، فالأسماء الحسنى تَطويهِ! ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾، يَا رب، وما كان بعيدًا هناك، اجعله قريبًا هنا!

يا أبنائي، ليالي الدعاء، شاطِؤها المهيبُ لِمَن خلعَ نعليهِ، وفَاض بنحيبها، لو كنتَ يونُس في البُحور، فارفع بالدُّعاء هَديرها، أسمِع الرحمنَ دَمعك، وقُل: هبني غيومَ البدءِ منك.

يَا رب، أنتَ البَرُّ الرَّحيم، فأمطِر البر على ما أجدبَ مِن أحلامنا. يا رب، أنتَ البَرُّ الرَّحيم، أمطِر البر على جِياع الأرضِ عافيةً ودفئًا تطفئ أوجاعهم! أنتَ البَرُّ الرَّحيم، فأمطِر البر على الأسرى ما شئت مِن العَطاء! أنتَ البَرُّ الرَّحيم، فأمطِر على الأقصَى وعدَ أسمائك، أنتَ البَرُّ الرَّحيم، رد علينا غيمَ بغداد وزمنَ قُرطبة، نعلمُ ما لديَّ وما لديك، وأنَّ جوابنا بين يديك! أنتَ البَرُّ الرَّحيم،

اكشف عنا ما حسبناه لجة، اكشف التيه بنور منك يجليه! يا الله، أنتَ البَرُّ اللطيف، فاجعلني في عَينك، واعفُ عمَّا بيني وبينك! أنتَ البَرُّ اللطيف، فنادِني: قَد أوتيتَ سُؤلَك يَا عبدي!

قال التلميذ: على أعتابِك اشتَعلَ صوتي، يَا رب، قلبي شُيِّد مِن وجَع، وقاربي في اليَمِّ تَاه، يَا ربِّي مُبتهلٌ مُنيبٌ، أشتهي المستحيلَ وأنت المجيب!

قال الشَّيخ: الليلة تتوثَّب الآمَال، فاسأل الله لها المنازل، هو البَرُّ، فارجُ ما كنتَ راجيًا، وفوق ما ترجو، تودَّد إليه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾، ومَن دخل عليه بالحُب، وجَد ثمر المطالب، وقُضيت له الحاجات والمآرب! سُبحانه، رَبٌّ تطيعه في السِّر، فيُدخِل إلى غَيبك لطَائف البِّر! سبحانه، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾، إذا عُبِدَ أَثَابَ، وإذا سُئِلَ أَجَابَ، فقل له: أرِنا نور الرِّضا بعد ظُلمة العَتب.

يا بُني، ما أكثَر تودُّدنا للخَلق، ومَا أقَل تودُّدنا للحَقِّ، تودَّد إليه، يفتحُ لك بَاب العَجائِب. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾، وإذا اعتراكَ أمرٌ، فَكِلهُ إلى الله، يكفِكَ عاقبته وأُخراه، وإذا تفضَّل عليك، صيَّرَ الأسباب لك، ورزقك بساط ﴿فَسخَّرنا له﴾، قُل له: إنِّي خالعٌ ليلي وذنبي، (فأنتَ أنتَ كُل ما أحتاجه)!

يا بُني، فَقركَ في السُّؤال، هِبةٌ لك في الحال والمآل، وبهذا الاتِّصاف، حَصلت للقلوب الألطاف!

يَا بُني، إذا ابتهلتَ للقدير، فارتَقِب جَريان التَّدبير، ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾، تَرى انتظارك يخوض في اضْطراب السَّراب، وتنسى أن الشَّدائد قرائِن اللَّطائف!

قال التلميذ: إليكَ يَا كلِّي أتيت، أعوذُ بِقُربك مِن بُعدِك، وبِكَ مِن فَقْدِك!

قال الشَّيخ: مَن صفا، نَال الاصطفا، حتى ترى قلوب الأبرار منبع الأسرار، وتتنزَّل الملائكة حولهم خِفافًا لا صخبَ ولاضجيج، ويرحلون بأعمالهم ثِقالًا!

إيه، مَن اصطفاهُ الله لمناجاته، لم يُخلِ بينه وبين غفلاته!

قال التلميذ: لا قلب يحملني إليك، إنْ لم تكن أنت معراجه، عُد بي إليكَ، إنِّي مشتاقٌ، فبلّغني، يَا رب، مثلي هفَا، ووحدَك مَن عفَا!

قال الشَّيخ: ذَكركَ قبل أن تَذكُره، ورزقكَ وأنت تنساه، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾!

قال التلميذ: إي والله، أنت البر اللطيف الكريم المنان، أحتاجُ إلى أسمائك الحسنى، أحتاجُ إلى أنْ أبكي لديك! يا مولاي، أعمالنا سَرابيلُ نقصٍ، كيف تستُرُ عَورة؟!

قال الشَّيخ: يَا بُني، امْدُدْ يدك، نوقِّع ميثاق القَبول!

اقتَرب التلميذ وأنصَت، فقال الشيخ: العابرون إلى ضفةِ القبول أوقدوا الأعمارَ بالقرآن!

يا بني، نحنُ قومٌ اشتغلنا بالقرآن، فَغمرتْنا البركَات، فاعرجِ أقدارك بالقرآن، وامْدُدْ للكرامات المدى، وقُل له: إنِّي وهبتُكَ عُمري سِرًّا وعلَانية! ثم تودد إليه بما يحب، هو البَرُّ، ويُحِبُّ البِر، فاعبده بالبر! ومَن يَكُ في حاجةِ أخيه، فالله على حاجته أقدر!

يَا بُني، ذِكْرُ اللهِ بِاللِّسَانِ، يُوَرِّثُ الدَّرجَاتِ، وَذِكْرُهُ بِالمال، يُوَرِّثُ الْبَرَكَاتِ! لذا قال سبحانه: ﴿لن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، ومَن أيقنَ بالخَلْفِ، جَاد بالعطيَّة.

قال التلميذ: ثم ماذا؟

قال الشَّيخ: ثم افهم المعنى ﴿ولكنَّ البِرّ مَن آمنَ بالله واليوم الآخِر﴾. كلَّما كان أورَع كان على الصِّراط أسرَع، تقوبك تغدو درُوبك! تَعلَق الخطايا بالخُطى، فتلتبسُ عليكَ الطُّرُق، هذا سَفرٌ إلى سَفر، فلا تحمل جَمْرَك، اشترِ آخرتك بما سَرَّك وساءَك، يفنى الثَّمن ويبقى المتاع.

يا بني، ما أرى الخطيئةَ، إلا خُبز الإثم مغموسٌ في زَيت الوجع، فلا تكن عبدًا كلَّما أضاءِ الله له قَبسًا، قَام فأطفَأه.

قال التلميذ: إنْ لم تؤوني، كنتُ نهبَ المصائب، قلبي بِتوَلٍّ، والأبوابُ تقولُ ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، يَا رب، أوقَدني الهَوى كأنِّي سِراجه!

قال الشَّيخ: يُضيءُ المشرقينِ ومَغربَيْها، أيعجَزُ أن يُضيء فضاءَ قلبِكْ؟! إن أضناكَ يَاس قلبِك، فاسأله غيثًا لا ينقطع، وقُل لَه: أعُوذ بك قبل الوصُولِ أضيعُ!

يَا بُني، مَن راعَى الله، صانَه الله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

التواب

قال الشَّيخ: هذا الاسم تُرمم به القُلوب، فكيفَ هي أرواحكم الليلة؟

قال تلميذ: رُوحي من ظمأ البِعاد مُحترقة، يا سيدي، رحم اللهُ مَن وجد مَلاذَه!

قال الشَّيخ: ارفع ثوبَك عن الذنبِ تكن صفيًّا! التوبة صَومعةُ المؤمن، يكفُّ فيها لسانه وبصره، فإذا تخلَّى؛ صَفا، ومَن صَفا تجلَّى. انظر كيف تركُض جَوارحنا في الفتنة، يُجلبُ الشيطان بالزَّلل عَلينا، ماذا بقيَ من حُروف إمامَتنا للأُمة إنْ أكلتْ الشهوات قُوانا؟!

يا ولدي، أنتُم حطبُ التغيير، والذنوب نارٌ؛ لا تُبقي منكم ولا تَذر، فمَن للمآذن يَرفعها إن غَرقتْ أصواتنا في طِينها؟

يا ولدي، سمى نفسه التوابَ، وليسَ التَائب، لأنَّه يَظَل يَزرعك في ضِفاف الأَوْبَةِ حتى لا يغيبَ مَطلعُك!

هُو التَّواب، فَلملمْ ذاتك، ولا تُقَدِّم تَبريرك، وقُل: خُذني من نفسي إليك، خُذني منِّي إليكَ يا الله، أنت شوق الأُمَّة، فمَن ضَيَّعكْ؟! أنتَ ترتيلةُ البَدء للمعركة، فانفض عنكَ اشتهاءَ المعاصي لا تُقعدك، لا تَقم في تِيه بني إسرائيل، فأنتَ راية طالَ انتِظارها!

اشتَدَّ صوتُ الشيخ وهو يقول: يا أُمَّة ثكلَت دينها يومَ استباحت شهوة الذَنب، أرثيكِ إذ صَار الرِّبا مُباحًا، والفتنةُ احتمالًا، والشَّك في الله حَلالًا،

والمحدثات قربات! أرثيكِ يا أُمة، كُنتِ أنتِ زمَن المستحيل، وكان خَطوكِ صَداهُ فتحٌ مُبين! رَبّاهُ يا تَوَّاب، تَلاشتْ مَلامحنا؛ يومَ نبتتْ أغلال الذنوب في مَعاصمنا! يَا رب، كُل لُغتنا مَلأى بتأويلِ الحَرام، تُبْ عَلينا من تِيهنا، فالباطِن كُله صار زبَدًا.

قال تلميذ: يَا خَفِي اللطف، أدرِك ما أوشَك مِن قَلبي وخَطوي أنْ يَضيع!

قال الشَّيخ: أُعيذُ قلبكَ يا ولدي مِن ذَنبٍ يُكَدِّره، أُعيذُ قلبكَ مِن يأسٍ تمَلَّكَه. أقبِل على الله، وقُل للذَنبِ: دَعْ قلبي إنِّي مَلَلتك قَيدًا. أَعذْ صَحيفتي مِن إثمي والهوَى، يا تواب، هَذي خطايَاي في المحرابِ تَغْتَسِلُ!

يَا أبنائي، كُل دقيقةٍ في المعصية، هي جِراح الآخرة، وما الدار الآخرةُ إلا رايات، ويُبعث الناسُ تحتَ راياتِهم،

فَأيُّ الرايات في الحَشر راياتك؟! مَخطوطة على الرَّاياتِ؛ أحزانُ الآخرةِ وَأفراحها، فلا تَسمع يوم القيامة إلا أنينَ القَوافِل من حمْلها؛ أو صوت السَّبق في حَسناتِ أبرارها!

يَا قَوم، إن ضِفاف الفردوس لا تُدرَك حتى للهِ الذنوب تُتْرَك. ارمِ خَطاياك في محرابِهِ، وقُل: هَذا أنا، لا أُحصي ذَنبي عَدَدًا، إنِّي مُحتاجٌ إليك، إني أشتَهي كُلَّما دعوتُ القلبَ أنْ يُطيع، إني مُحتَاجٌ إليك، وأشتهي أنْ تَتوب عليَّ كَي أتوب! ابكِ بين يديه، إن أثمَن الدمع ما في التوبة انتثر.

قال التلميذ: يَا رب، هبْني حَالًا كَحال الصالحين، وَدمعًا كَدمع المخبتين!

قال الشَّيخ: أولئكَ مَن تسلَّقوا المسافات إلى المقامات، أولئك مَن تَوضَّؤوا بالغيمات، وما قبلوا طِين الأرض لَهُم طَريقًا! التوبةُ عزيمةُ القَلب للأُمَّة، التوبةُ ليست بكاءَ العاجزين، بل هي قوةُ الاستعداد في الأمة، التوبةُ مَسارُ العَودة، ومَن تهجَّى البدايات، أدركَ خارطة الطريق!

يَا ولدي، اقرأ مَدامعنا اليَوم، دمعةً دمعةً، اقرأ عَواصمنا، صفحةً صفحةً، اقرأ كيفَ عقرتْ خَطايانا خيلَ التَّغيير!

يَا قَوم، لا ينتهي الليلُ إلا على بَاب الصَّحوة، ولا صَحوةَ للأُمَّة دونَ التوبة عَن هذا الغِياب الطويل!

يَا ولدي، إنْ أوقَدوا لكَ في المعصية نارَ الفِتنة، فأوقِد في الطاعَة نَارَ الهُدى! يُسَعِّرون لكَ الشهوات حتى يتهَجُّوك وَهمًا، حتى تَغدو هباءً منثورًا! القرآن مواسم الذاكرة للأُمَّة، مَواسم سُورة التوبة، تبوح لكَ بأسرارها، تبوحُ لكَ بمن تعثَّروا بالتأخُّر فتَخلَّفوا. كَم مرة أنتَ تأخَّرتَ عن الله؟ فقُل: اللهُم تُبْ عليَّ لأَتُوب!

يَا ولَدي، تُقاسُ المسافات في الآخرةِ بالفَضائل، فَيُبعثُ الناسُ وبينهم مَسافاتٌ تسمَّى مَقامات، فيُقالُ: سبقَ فُلانٌ بِخطوة، فإذا بها في مقياسِ الآخرة مما لا تُدركه الأعمار، فتب عن تأخرك في المقامات!

يَا ولدي، ستظَلُّ الحياةُ تَعرض عليكَ فِتنتها لونًا بعدَ لَون، وتترَفَّق بكَ وهي تُغريك بما لَديها مِن زَوال، فَتشبَّث باللهِ، وقُل: (يَا تَوَّاب، أسألك ألا ينطفئَ نَبْضي إلا مُطمئنًا، وفي موضعٍ تُحبُّ أنْ تراني فيه). أعوذُ بك من سُوء المنقَلب

في النيّات، والخطوات، والعزائم، وما سبَقَ لنا من الحسنَات! أنتَ عند الله كلمةٌ طيبةٌ، فلا تأذَن للشيطان أن يَغتال جَذرَك!

صمَتَ الشيخُ، فَزفرتْ قُلوب التلاميذ، حتى تَرى وُجوه الفِتية تَموجُ بالدَّمع مَوجًا!

قال الشَّيخ: إذا امتلأَ القَلبُ، ذَرفَت العيْنُ، وفي المحراب مُتسعٌ لِكَثيرٍ من الحزن، (فإنَّ أعبَد الناس رجلٌ اقترفَ ذنبًا، فكلَّما ذكَر ذنبه احتقَرَ عمَله وانكَسرَ لِربه)، فلا التوبة تُنسيه، ولا الرجاءُ يُطغيه!

يا أبنائي، التوبةُ سَلامَة، والرحمةُ غَنيمة، والسلامَة تُطلَب قبلَ الغَنيمة! لِذا، كان الصالحون إذا فَقدوا آمَالهم؛ تفقَّدوا أعمالهم، ومَن استبطأَ رِزقه، فليُكثر من الاستغفار!

قال التلميذُ وقد طَأطأ رأسَه: أُوَاعِدُ ألفَ ليلٍ، فَلا أجِده إلا تَوَّابا، وكُلَّما فتق الذنبُ ثَوبي، وجدتُ عند اللهِ رَتْقًا!

قال الشَّيخ: (حَذارِ بَأنْ نَستَسيغ الخَطايا)، ويهدأُ في قَلبنا الوَجل؛ ألا إنَّما الأهواءُ مَسالك المأثَم، فاحْذَر فِتنة التَّبرير يا فَتى! لِتكن عَينك على اللحظة الغائبة، على لحظةٍ وراء الزمن، على لحظةٍ تنكشفُ فيها الحُجُب، ويُقال لك: رَبح البَيعُ يا فَتى! التوبَة عَتبةُ النَّصْر، وأُمَّةٌ لا تَعرِف مِما تَتوب؛ كيفَ لها لِمَدارج المجد أن تَؤوب؟! تفَقَّدوا سُورةَ التوبَة، فإنَّها الكاشِفة، ولرُبَّما مَا كَانَ يَومًا نِفاقًا، صِرنا نُمارسهُ اليَوم إيمانًا! ثم قَام الشيخُ وقال: قُومُوا لِسُورة التوبَةِ فاعرضوا توبتكم عليها يَرحَمكم الله!

الغفور

قال تلميذ: يَا رب، أنت الغفور، فتجاوز عن مُسِيءٍ ذنوبُه كالتراب، فإنَّه يا رب لا طَوقَ لي بالنقاش ولا العِقاب!

قال الشَّيخ: يا بُنَي، قَدِّم الاستغفار، فإنَّ الإجابة أَسرع إلى المستغفرين. تب إليه، إن توبة الله نَوعان: إذنٌ وتوفيق، وقَبول وإمداد! إذا تاب عليك أذن لك بالقبول وأمدك بمدد من عنده.

قال التلميذ: كَم أضَاع الذنب منِّي إجابة الفَرج!

قال تلميذ: يا سيدي، كَم دعوة لله طَال وُقوفها؟

قال الشَّيخ: فتِّش عمَّا يَحجبها، وافهَم عنِّي: إنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ أَوَّلًا، وَأَوَّلُ الْخَيْرِ الاسْتِغْفَارُ، ومن أدام الاستغفار فُتحت له المغاليق، ومَن تمسَّك بالمفتاح لا بُد أنْ يُفتح!

يَا بُني، مَن طَلَب الأنوار، فَليخلَص مِن الأكدار، فاستَغفر إثمًا ما زال مُستترًا، استَغفر إثمًا به النِّعم تَحتضر!

يَا بُني، ما بين ﴿اسجُدوا لآدم﴾ وبين ﴿اهبِطوا منها﴾ كانت مَعصية! كانَ آدَم يَرفل في حُللٍ وإستبرق، فلمَّا عصَى، صارَ يَخصِف على عَورته الوَرق!

إنَّ الذُّنوب تورِث الهُموم، فَقل: يا رب، إنَّا تائِهون فاهْدِ الخُطى طُرقاتها، ورُدَّ على السَّواقي ماءَها، فقد تصدَّعت الجِرار مِن جَفافها! يا رب، وخَيل الشَّهوة عاديَةٌ، فاكبَح اللهمَّ جِماحَها، وإن راودَتنا فِتنةُ الهَوى، فلا تَدعنا لإثمها!

قال التلميذ: اللهم إنَّا نبتدئ طريقنا بالاستغفار!

قال الشَّيخ: بناء السُّدود، أولَى مِن مُدافعة السُّيول، فاجعَل جهدك كلَّه في سِياج دينك، تَثبيتًا وتَرميمًا ودعاء!

يا بُني، إنَّما يتسوَّر الشَّيطان سدًّا ناقِصًا، سَيِّج الحِصن، لا يبلُغك اللصوص!

فردِّد: اللهُم هبْنا توبةً منكَ إليك، وردَّنا بكَ إليك، واجمَعنا عليك، إنَّ الفراغَ هو الفراغُ مِنك، فاجعل قلبي ممتلئًا بك!

يا بني، والله مَن رَكِب ما نُهي عنه، حِيْلَ بينه وبين مَا يَشتهي! أقِم لله دينَك، يُقِم لك بُنيانَك، كلما انكشفت سَوءةٌ؛ جلِّلْها يَا بُنَيَّ بالتوبة!

يَا بُنَي، الغفور أوسع ما تكون مغفرتُه، إذا ضاقت بالمذنب مَعذرتُه! لكن، إياك أن تُخاطرَ في الحَرام، ولو كنت تعرف موضع قدمك! خطوةُ الحَرام، زلَّة، والزلَّةُ هاوية! ثم نَقِّ طُرق الدعاء من الظلم، و(استغفر، تُطلَق ويُطلق جوابك).

قال تلميذ: اللهم تُبْ علَيَّ واغفر لي، يَا رب عثرتُ، فَأقِلني!

قال الشَّيخ: (إيَاك أنْ تكون عبدًا نبتَته الطاعة، وحصدته المعصية)! وقل: نعوذ بك أنْ يُكتب على صحائف السعي ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾! قُل يا بني: اللهم لا تقطع بي الأسباب، ولا تحقِّق علَيَّ العذاب، ولا تمنع عنِّي الجواب، لا

تُحيبني وأنا أرجُوك، اغفر لي قبلَ ألا أقْدِر على استغفارك إذا فَنِي الأجَل، وانقطَع العَمل! قُل: اللهم إنَّ الصحفَ مَنشورة، والأقلام جارية، والتوبة مقبولة، والتضَرُّع مرجوٌّ، فاقبَل منِّي واغفر لي!

يا بُني، تزوَّد لسَفرةٍ، مَا مثلهَا سَفرة، واقنَع باليسير! ووالله لَو انْتَبَهت من رقادك، لوصلت إِلَى مُرادك، وَلَو أيقنتَ بمعادك، لاستكثرت من زادك.

قال التلميذ: كيف نثبُت على التوبة؟

قال الشَّيخ: مَن شاهَد سوابق التوفيق، هانت عليه مشاقُّ الطريق، ولَا يقدر على الحِمية إِلَّا من تلمَّح الْعَافِيَة فِي الْعَاقِبة! فارفع ملابس المنن عن الدنيا، وما فيها مِن نَتن!

يَا بُنَي، اغتنم وجودك قبل عَدمك، واحْذَر زلَل قدمك، واسمع مني، ما دام بَاب الْعين موثقًا بالغضِّ، فالقلبُ سليم! خانت العينُ، فزلَّت القَدم! وإذا أذِنتَ ليدِ الغفلة، قَدَّتْ لك قميص العِصمة!

قال التلميذ: اللهم ارحم مَن شملته الخطايا، وغمرته البلايا، وظهرَت منه العيوب! يا سيدي، كيف يخلص القلب من عكره؟!

قال الشَّيخ: يا بني، إذا كان سراج قَلْبك بالخطايا مُظلمًا، فاطلب لَهُ زَيْت التوبة، وفَتيلَ العَزم! قل لنفسك: مع قلَّة البضاعة، إسرافٌ وإضاعَة. انهضْ إلى التلافي، قبل التلَف، فَرُبَّ شُروقٍ، ما له غُروب، ويومٍ، ما لَه ليْل، ولقد قَرُب الاغترابُ فِي التراب!

قال التلميذ: ما أعجَزنا!

قال الشَّيخ: كيف البقاءُ وَقد جرى قلمٌ فِي اللَّوْح، أَنّ الْخَلق لَا يبْقى، فاسأل نفسك، أموقنٌ أَنْت أم مُرتابٌ؟! ومَن آمَن بالسؤال، أعدَّ الْجواب!

يَا بُنَي، إذا غفر لك، وضعَ لك القَبول، ثمَّ كتب لك الوصول! وإذا أردتَ الكسوة، فالزم الخدمة!

يا بُنَي، اجْتَهد أَن تكون واصلًا، فَإِن عجزتَ، فَكُن سالكًا، ولا تكُن مُنقطعًا، ومَن يعتصم بالله، تكفَ محاذِره! قُل: اللهم قِنا آثَامَ الحسَناتِ، وشَهواتِها الخَفيَّة! فإنْ نَزعَ الشيطانُ يا رب حسناتِنا، حسنةً حسنةً وما أبقى غير سَوءاتنا، فاستُرنا بعفوٍ لا يَفضحنا! سُبحانه، لا يمنعُ برَّه، مَن لَزِم بابه!

يَا بُنَي، في هَذه الليلة، (داوِ جُرحك، لا يتَّسِع)!

النصير

اسْعَ إلينا بصدقِ المعاملة، تَر برَّنا جُودَ المواصلة، وإنَّما يُفتح للعبدِ، على قدر غَايته، وحَظُّك مِن الله، على قَدر وَلايته! (إنَّ لله عبادًا يُحييهم في عافيةٍ تَمُرُّ بهم الأهوال والفِتَن، كَقطعِ الليل المظلم لا تَضُرهم)، أولئك عبادٌ علَوا على أكدارها، فقضَى لهم ما أرادوا من أوطَارها، أعمارُهم مضتْ لله بأولاها، فدلَّت الخواتيم على أُخراها!

حبسَ الشيخ دَمعته، وقال: اللهُمَّ اجعلنا في جِوارك، وأَرِنا لطائفَ إحسانك.

يا أبنائي، كان «خُبيب بن عَدِي» أسيرًا عند المشركين بمكَّة وكان يؤتَى بعنبٍ يأكله، وليسَ بمكةَ عِنَبة! ما ذلَّهم، وقد ذُلَّ والله مَن ليس له ناصر، يَهبُهم ما يشاء، إنْ لم يمنع نصره مانع، وعلى قَدر إيمانهم، تكون الوقائع.

فإنْ خُذلتَ، فلا تُعدِّد الذرائع، إنَّما ردَّ عليك الله، ما استودعتَ من الودائع، ما الخُذلان إلا بعضُ ما للسيئات من توابع! أوَّاهُ يا أبنائي، أوَّاهُ! يا هيبة ما تطوى عليه السَّرائر، والله يُبدي للخلائق، ما كان العبد يخفيه.

يَا معرضًا عَنهُ، إِلَى من أَعرَضت؟! يَا مَشْغُولًا بِغَيْرِهِ، بِمن تعوضت؟!

قال تلميذ: اللهُمَّ إنَّك عفوٌ تحبُّ العَفو فاعفُ عنَّا!

قال الشَّيخ: أمَر الأسوَد العنسي بأبي مُسلم الخولاني إلى النار لما كفَر بنبوَّته، فأُلقي فيها، فوجَدوه قائمًا يصلِّي فيها، وقد صارتْ عليه بردًا وسَلامًا! عباد نَصروا الله في البَواطن والظواهر، فخلَّصهم من المِحَن، وتفضَّل عليهم بالمنَن،

وقيل لهم: (هَذَا السرُور بِتِلْكَ الكُرب، وَهَذَا النَّعيم بِذَاكَ التَّعب)! أولئك عبادٌ لا هَمَّ لهم، إلا نُصرة دينه!

قال تلميذ: يا سيدي، زِدْنا، ويا قلبُ رَدِّد صَدى ما مضَى!

قال الشَّيخ: يا بُنَي، عامِر بن قيْس، يمَسُّه الأسَد، فيضعُ قدمه على عُنقه ويقول: إنَّما أنتَ كلبٌ لا أخافُك!

قال تلميذ: يا الله، أنَّى لهم هذا المدد؟!

قال الشَّيخ: عبدٌ، رُمحه مِن جُرحه، صانوا الله فصاهم، فكان غَرسهم، ممَّا قدَّموا مِن بأسِهم، عبادٌ لله كانت عذاباتهم!

قال تلميذ: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فلا غالِبَ لَكُمْ﴾!

قال الشَّيخ: عُذِّبت «زنيرة» على الإسلام حتى عُمِيت، فقالوا: أصابَ بصَرها اللات والعُزَّى، قالت كلا والله، فرَدَّ اللهُ عليها بَصرها!

عبادٌ لما نصَروا مَوْلَاهُم بألا يراهم حَيْثُ نَهاهُم، اصطَفاهم، فأعطَاهم، ولموالاته ارتَضاهم!

يا أبنائي، انصروا الله في مَيادين أنفُسِكم!

قال تلميذ: علِّمنا!

قال الشَّيخ: مَن صبَرَ على مخالفةِ نفْسه، بلَّغه الله مقامَ أُنسِه.

يا بني، كيف يقبضُ الثمن، مَن كان بنفسه مُرتَهنًا!

يا بُني، لا أذاقكَ اللهُ طعمَ نفْسك، فإنَّك إنَ طَعمتها، لنْ تفلح، ثم ليكُن شُغلك تَرك الذنوب ظاهرها وباطنها، فإن استَقبلَتك الفتنة، كنت فيها محفوظًا ومَحمولًا! يحملُ عنك مُؤونتها، من غير خُذلانٍ في عاقبتها، ومَن لم تهضُ الشهوات جناحَه، رأيتَ له في الصالحين قَدمًا!

يا بُني، إنْ ينصُرك الله، فمَن ذا الذي يخذُلك؟!

قال تلميذ: كأنَّنا بلا ناصِر!

قال الشَّيخ: لا ناصِر له، كأنَّها كلمةُ الله (لا) للتوفيقِ والسَّداد! فيا لِنَسجِ الأكُفِّ المحكمات، إذا انفرطَت خيُوطها، ويا لصعود الأقدام، إذا كَتب الله سُقوطها.

لا ناصر لَه، أن تَعجل عليك الخُطوب، فما تَرى لها دافِعًا!

قال تلميذ: عَفوك يا الله، حتى تَعفو!

قال تلميذ: يَا سيدي، والله كأنني ما لي من الله ناصر، وكأنَّ حظِّي من الدنيا مَتاعبها، لماذا كُلَّما هدأتْ أحوالي، (هبَّتْ مِن البَلوى رياحٌ رَواكِد)؟

قال الشَّيخ: مَا جرَّ الشؤم، مثل المال الفاسِد، ما يَحْجُب العبد عن نُصرة الله، مثل لُقمةٍ حرام، فإياك إياك، إنَّ الحساب عَسير على الذَّرة! وَإيَّاك وَالْحرَام، وَانْظرُ

من أَيْن الكَسرة، قبلَ أَن تَلقى سَاعَة الحَسرة، وتُلقى بعْدهَا فِي ظلمَة الحُفْرَة! ومَن ترك لله شيئًا، لمْ يجِد لِما تَرك فَقْدًا، فمالِ مَهر المنى، ما لها دافِع!

يَا بُني، إنْ عَجزتَ عن الحسنة في ميزانك، فلا تَجعَل السيئة لَها بَديلًا!

قال التلميذ: عَلِّمنا بم تكون النُّصرة؟

قال الشَّيخ: مَا في الكَون، إلا مَقصُودٌ وقاصِد، فإنْ شئتَ المَحامِد، فليبقَ القلبُ لله ساجدًا، هو القائل، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾!

يا بُنَي، اقسُ على نفسِك يُنبت لك غرسك، وحينها ما أبهَى عُروجك في معارجه! وما أبهى شِعارك!

لله أنا في كل الأحايين! اعْرُج إليه، سَيرتَبكُ الشيطان في خَطوك، اعرُج إليه، فليسَ القَيدُ شأنك، إذا رعَاك، سيَّرَكَ! وتلك نصرته للمقبلين، قُل يَا الله، ودع عنكَ كل ما يُهوِّلون عليكَ مِن الأسباب! تقول الأحداث: ايْئَسْ، ويقول الدعاء: بِيد الله يُفلَق البَأس!

يا بُنَي، كُف أذَى الظنِّ عن يَقينك!

قال التلميذ: يَا رب، أرِني عظيمَ فَضْلك، مُوقنٌ بك أنا، ﴿ولكن ليطمئنَّ قَلبي﴾! هَبْني طُمأنينة، تُهشِّم كُلَّ وسواسِ اليأس، افْتح لي يا خيرَ الفاتحين، وانصُرني يا خيرَ النَّاصِرين!

المنتقم

إذا آثرك الله بالإجابة والعطاء، ماذا أنت فاعل؟! إذا آثرك ورأيت الحُلْمَ حقًّا واقعًا، وأنت تطيرُ مِنْ فَرح البشَارَةِ ضَاحكًا، إذا آثرك الله ورأيت اللطائفَ دانية، ماذا أنت فاعل؟! إذا آثرك الله احمده وقل: يَا رب، مِنك كُلُّ أمنيةٍ جِذعها وغُصنها، وما تَساقَط مِن ثَمر!

قال التلميذ: والله هو حسبي، وحَسبي بأنَّ الله يبعث المنى الموءودةُ مِن فَقري! حَسبي بالفاتحةِ أتلوها وأشتهي ما شئتُ مِن أمَلي، حَسبي بأنَّ الله يَدري وهو واهِبي عونًا يُقيلُ الخَطو مِن عَثرَاتي، حَسبي بأنَّ الدُّعاء يَخصِفُ على ما نقصَ مِن سَتري.

قال الشَّيخ: يا أبنائي، ما تهجَّى القلبُ مِن فزَعٍ، فالدُّعاء له رَصْد، وإنْ حلَّت الإجابة في جَدبٍ، صار خَصْبًا، وخَزائِن الله أوسَعُ مِن حَوائِجنا، تأتيه مُستجيرًا ماشيًا، فيأتيك بالجُود هَرولة.

قال التلميذ: إي والله، يا سيدي، هأنَذا أَقِفُ على بابه، لكن مَعي من الذَّنبِ مَا ضَاقَتْ بِهِ الصَّحُفُ!

قال الشَّيخ: قل له: أَرْجُوكَ عفوًا عَمَّا كُنتُ أَقْتَرِفُ!

يا بُني، على قدر الخُروج من الذنوب، تكون إفاقة القلوب، اخشَ ربَّكَ كما أنه المعطي فهو المنتقِم، فإياك إياك وقواصم النعم، سبحانه قال: ﴿لا تَمَسُّوها﴾،

فمَن أبَى ﴿فتعاطَى﴾، ومِن المحرَّماتِ دنَا، رأيتَ أحواله ﴿كأنْ لمْ تَغنَ بالأمْس﴾، فقد أصابها البَأس، إيَّاك أن تكون في شِكاية ﴿إنَّهم عَصوني﴾، فتَكون في عذابِ ﴿قِيل بُعدًا﴾!

يا بُني، إذا وقعَ السَّابح في البَحر، فكَم عسَى أنْ يَسبح! فَقُل: يا رب، فُكَّ وثاقَنا مِن المعصية، ورهاننا بمواهبِ المنّة، ولا تُعاجلنا بالنِّقمة!

قال التلميذ: دون الله، لا أمَان لِخَطواتي!

قال الشَّيخ: يا بُنيَّ، لِقاء الله مِيعادك، فما هو إعدادك؟ ويَومك ذاهِب كَذهاب أمْسِك، فأمْسِك عن الذَّنب أمْسِك! وإيَّاكَ وإيَّاك، أن تُسقِطك الفتنة على جُرفِ انكسارك، ثمَّ يؤتى بك وكِتابك يَسارك!

يا بُني، حينها ما يغني عنكَ ندمك، والخطايا إزارُك، والأيمانُ عاجِزةٌ عن اعتذارك، تُجَرُّ إلى ريح السَّموم وَيعلوك غُبارك، ذاكَ وربِّي زمَن انهيارك!

تداعى المجلس حُزنًا، وقال تلميذ: والله لولا خَطيئتي، ما تنكَّبَ القلب عن الرَّكْب!

قال الشَّيخ: كيفَ تنسَى، أنَّه ما بَعد عُود الثِّقاب إلا الحَريق كله، ومن خاضَ في غَمراتها، نالَه، وما الإنسانُ إلا سِتَارٌ مُنسدلٌ على سريرته! إنَّ العبد إذا استخفَّ بِستر الله عليه، أنطقَ اللهُ لسانه بمعايب نفْسه، ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾! فإنْ تَردَّى في هاويةِ الخَطيئة، فسُنَّة الله: أنَّ عاقبةَ المخادع مفضوحةً قبيحةً، ولو كانت بدايته مَستورةً مَليحة، ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾! سبحانه،

يُدنيك بِستره، فتأمَن، فلا تُتبِع الذَّنب بالذَّنب، فَيُثيبك غمًّا بعده غم، ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾!

قال التلميذ: اللهُم جنِّبني استدراجًا بالخَير للشَّر، بَعده فضِيحة السُّوء!

قال الشَّيخ: يا بُني، اصطِبارك هو بَلاؤك وابتِلاؤك، فلا تأتِه والمعاصي مِلء تَوسُّلك، فَيُقال: عبدٌ تعثَّر في خُطاه! ويسألكَ، كيف بَعثَرت حصَادك وَجِهادك واجتِهادك؟!

تأوّهَ صوتٌ من آخِر المجلسِ، فقال الشيخ: إن أوشكتْ الفِتنة تُلامِسك، امْدُدْ وصْله بِخُطى انسحابك، إنْ كُنتَ غريبًا باغترابك، فمن هُنا بدء اقترابك!

يا بُني، لا تهجم على الرُّخص، إني أخاف عليكَ سوءَ عاقبة الهُجوم! ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾!

قال التلميذ: سِنيني أضغاثٌ، وفي الرُّوح نَشيجٌ اللهُ يَعلَمه، والله صَار اليقين عُراكًا، والظُّلم يجمعنا في ضِيقه، ليسَ منه فِكَاك!

قال الشَّيخ: لا تَترك الدَّربَ، ولو أينعَ قَمعًا، هو المنتَقِم، فلا تَخشَ منه نَقصًا! سُبحانَه، ليسَ المراد مِن الابتلاءِ أنْ نُعذَّب، بَل نُبتلى، لِنُهذَّب، يَمِّم خَطوتك إليه، فالأمرُ كلُّه إليه!

مَن قال: ﴿قَد أوتيته على علمٍ مني وقوة﴾، جعله الله في قَدَر ﴿كأنْ لَمْ يَكُن﴾، ومن استغنَى فقال: ﴿سَآوي﴾، سلَّط اللهُ عليه إرادةَ ﴿لا عاصِمَ﴾.

ماذا جنَى مَن جنَى مِن وعد ﴿فمَا أغنَى﴾، وإذ قال الله ﴿ألا بُعدًا﴾، فما يَملك أحدٌ له قُربًا، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالمونَ﴾، فقل: اللهُم أنت المنتَقِم إنْ ألقَوا حِبالهم، فاجعَلنا قَدر ﴿تلقَفُ مايأفِكُون﴾!

قال التلميذ: الأسْرى، المظلومون، الشباب الملقَى في عَتمة القَهر!

قال الشَّيخ: هؤلاء مَن رفَعوا سبَّابة الثبات، مِئذنة، ومَن كانوا في الغَيب مُصحفه، وكانوا في الفِتَن صَوت الحق وأحرُفَه، اكتَملوا، فكانوا كَونًا وأزمِنة، وكانَ الصَّومُ عن رشفةِ الإغراء، أعذَبه!

يا بُكرةً وعَشيًّا إذا جَاء الحِسابُ، ﴿إنَّا مِنَ المجْرِمينَ مُنتَقِمُونَ﴾، وفي الدنيا، لا تَعجل، ستَرى نِعَم الله -عَزّ وجل- تنسخها آثَار نِقَمه، اللهُمَّ آوِ شُجون المستضعفين، وحَرِّر قَيدهم!

قال التلميذ: إلهي، ما أضيقَ الطريق على مَن لم تكُن دَليله، وأوحَشه على مَن لمْ تكُن أنيسه!

قال الشَّيخ: يَنثر الشيطان فِتنته، ويزيِّف لنا المعنى، حتى نُخطِئ الرُّجعى! سُبحانَه، يُعطي ما يشاءُ لِمَن يشَاء، فإنْ شَاء، جعلَ السَّير إسراء، وإن لم يشَأ، غَدا السَّعي غُثاء!

قال التلميذ: لا تُعاقبنا بالسَّلب بعد العَطاء!

قال الشَّيخ: يا بُني، أَوحيتُ إلى القويِّ، أَثْبِتي وثبِّتي، وأَوحيتُ إلى المعصية، تَزلزلي وزَلزلي! العاصِي في وهْمٍ وتَقييد، والواصلُ في فَرحٍ وتأييد!

يا بُني، لولا مَعيَّتهُ العَظيمةُ بيننا، تَعِبَ الفُؤادُ وكَلَّت الأكتافُ.

العفو

قال الشَّيخ: (ربُّ العباد إذا وهب؛ لا تسألَن عَن السبَب)، اسم هو مفتاح المواهب، فإذا حدَّثوك عَن الأسباب، فحدِّثهم عَن الله! يا قوم، لا خَيبة مَع الدعاء، سِهام السَّحَر تُعانق الإجابة نبالها، حتى يقال لك: سبقتْ سِهامك سِهام القَدر!

إنَّ الله لا ينقص لأهل السَّحر من أحلامهم أملًا، وفي السحر سقَى الله بالفَرح مَن أنهكته الجراح، وقد تُدرَك الحاجات بالدعاء؛ وهي بعيدة!

يَا رب، لا أسبابَ تحملنا، لكنَّنا بالدعاءِ إلى أحلامنا؛ نَصِل! ادخُل من باب اليقين، فإذا بأسوار المنع تهدَّمت، وأبواب الضيق اتَّسَعت! وإذا وقَع القبول، فلا شيء من الأمنيات في مَهبِّ الريح، وحاضر القلب في السجود؛ لا يعرف القُنوط!

يَا بُنَي، المنغمسون في روائع السحر لا يشتَهون بزوغ الفَجر، بِساط، يَعُجُّ بأصوات السابقين، فلا تكن على بساط العَجز قَائمًا! ورُبَّ ليلةٍ تنبتُ لك على ضِفاف الفردوس حَقلًا، وإنْ تولَّى القوم فَقُل: هذه غنيمةُ السَّبق!

كان الشيخُ الليلة قد أطَلَّ على التلاميذ بملاءةٍ بيضاء، ليس فيها إلا نُوره، ضوء المحراب كان خافتًا، لكن صوته بالدعاءِ كان مُشرِقًا!

قال تلميذ: فِي داخلي يا ربُّ لهفةُ يوسف يدعوكَ غوثًا حين أظلمَ جُبُّهُ، وبداخلي أيوبُ يغزلُ صبرهُ، مُذْ مسَّني ضُرُّ الزمان وكَرْبُهُ.

قال الشَّيخ: يَرحم اللهُ السَّلف، ما زالوا يقولون: ربَّنا ربَّنا؛ حتى استجَاب لهم!

توضَّأ باليقين، فوالله باليقين لي بالله آمالٌ أراها قُرب كَفِّي، وَقُل: أَعُوذ بالله من العَجزِ، فَـ (العجزُ مَرْبط إبليس)، وأسرارُ الروح، إنما يكشفها الدعاء!

قال التلميذ: يَا وَلِيَّ قلبي، أحسِن وِفَادته عليك!

قال الشَّيخ: بَلِّل يَباس قلبك بالدمع، وأحسِن الاعتكاف!

قال تلميذ: كَيف؟

قال الشَّيخ: الاعتكاف قَطْعُ العَلائق عَن الخلائق، حتى تُحسِن خِدمة الخَالق، فامضِ إلى ربك، وقُل: عَفوك يَا الله إذا صَار للجَوارح لُغَة وفَم! يَا ربي، عَفوك عَن لهيب الذنب في قلبي، إذا أجَّجَته شَهوة الدَّرب!

قال تلميذ: مُتعَبٌ يا رب، لَستُ أُنْكِرُ خطئي، أنتَ الغفور لَه، حاشَاك ردُّ كسير القلب يعترَف!

قال الشَّيخ: أُسْدل عليكَ الليل، فَفي الأستار تُدَّخَر المكاسب، فَقل: نَعُوذ بك يا الله مِن كَرب الفَوت! اللهُم ارزقنا أرائك ﴿السَّابقون السَّابقون أُولئكَ المقَرَّبون﴾!

حَنانَيْك، نحنُ العابرون إليك! عَفوك، نحنُ الماكثون بين يديك، مَا نكون إنْ لم تَشأ لنا أنْ نكون!

يا ولَدي، يُطَهِّر العَفو مِن الأعمال ما عكر، انظُر إلى فِقه السَّلف الصالح، حيثُ يقول أحدهم: خَتمت ثمانية وعشرين ألفَ ختمةٍ؛ عساها تكون عَفوًا عن الزَّلات!

تَعلَّموا كيفَ تُبادرون السَّيئات القديمات بالحَسنات الحديثات، فـ ﴿إنَّ الحَسنات يُذهبنَ السَّيئات﴾.

يا بُنَي، قَد تأتيك الحَسنةُ كالرِّقعة في الصحَيفة، لولاها لظَلَّ عَملك مَثقوبًا!

قال التلميذ: يَا سَيدي، لديَّ أمكنة في ذاكرتي أخافُ الذهاب إليها، اللهُمَّ فَأمِّنَّا بالسَّتر، واجعَل بعد السَّتر يا مَولايَ عَفوًا!

قال الشَّيخ: قُل: اللهُم عَفوكَ؛ لكلِّ ذنبٍ بلا حَولٍ مِنَّا ولا قُوة، عفوك لكلِّ تلك الخبيئات، عَفوك إذا سَقط الذنبُ عليَّ وتمَادى، عَفوك ليومٍ تجمعُ الذنُوب اللهيبَ على اللهيب، فلا ترى المصائِر إلا سَعيرًا! يومٌ تتحرَّك فيه قوافلُ الأعمال، ويبدو المشهد أسطوريًّا! تَغورُ الأعين، والوجوه شاحبة، يكادُ يلتهمها شُعور الفَجيعة! يتآكلُ الناس في أغلالهم ويشتَدُّ العَذاب، وتَرى جِراح الذنوب غائرة!

عَفوك، مَن يستُر الشواهد يومَ الحِساب! عَفوك، إنْ أوقَفْتَني على كُل هَمسة، وسألتَ عَن نبضِ الفؤاد فيما أنفقناه! عَفوك، إنْ أوقَدتَ الذكريات وناقَشْتَ تاريخ الخطوات! عَفوك، إنْ سألتَني: لماذا يَا عبدي لم تكتمل؟

أجهشَ الجَمْع في أنينٍ خافت، وكان لكلِّ دمعةٍ صوتُ دعاء يُعتَق مِن طول الأسْر!

قال التلميذ: اللهُم امحُ بعفوك من الصحائف ما ينقصنا، نعوذ بك من قَترة الذنوب على الملامح، اللهُم عافيةَ الصحف يوم العرض عليك!

قال الشَّيخ: مخلوقون نحنُ لموعدٍ لن يفوت! هو العَفُوُّ، لكنه يريد منك جَلال الخَوف، ذُبول الروح إذْ تعترف، أنين التَّعب من مُراوغَة النَّفس، أسْرِج تَوبتك بدمعة، فإنَّ ربَّك يسمعُ الدمع! قُل له: ثاوٍ إليك ودمعُ القلبِ مُنهمرٌ، عفوك، فحتى النار في اشتعالها تَشتهي لو مسَّها المطَرُ!

أنت مَن يبدئ الفَرج وَيعيد، أنت مَن يبدئ عُمرًا مِلؤه النَّدى ويُديمه!

قال تلميذ: يَا سيدي، كيف بَدأت؟

فقال الشيخ: (خَلعتُ على العتبات أوحالي)! اجمَع قلبك على الفَرائض، وعزيمة تَرك الذنُوب، وقُل: اللهُم إنكَ عَفُوٌ تُحب العَفو فاعفُ عنا! إذا عفَا فقد كتَب لكَ الأثر، وما نحن يَا رب إلا (عابِرون ونَرجو الأَثر)!

الرؤوف

قال الشَّيخ: هو الرؤوف، يمنحنا القرب برحمته، والرأفة هي الرحمة إذا تناهَت، واشتَدَّت، واستوت على سوقها! فَقُل: امْدُدْني اللّهُم بالعُروج إليك، واسقني ماءَ اليقين من كوثر ما لديك!

قال تلميذ: يا الله، أنت الرؤوف، صوتي انحبسَ وليس في القلب إلا الغُصص، يا رب، تعِبتُ من ضَعف ضَعفي، يا رب، خَطوتي عالقةٌ في طين المسافات، فألقِ على خطوتي قُوة الأَوبَةِ!

قال الشيخ بصَوت جَليل: هو الرؤوف، يُنبِت في أعتاب الدعاء غيث الإجابة، فَقُل: يَا الله، اطوِ عنَّا بُعدَك! إنه إن أقبلتَ عليه، أقبل على إصلاح شأنك، (واستَعن بالله على التوفيق لمراضيه، فإنَّه إنْ أرادكَ، هيَّأك لما يُرضيه)!

تراه مَع عبده، (يأخُذ بيده إنْ عثر، ويمنعه من الفتنة إنْ هَمَّ، ويستُر عمله عنه، حتى لا يقع في فتنة الوهم، ويُرَقِّيه إلى مزاحمة الكُمَّل، ويجمع الله له الكُل)، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾!

قال تلميذ: ما الفرق يا سيدي بين الرحمة والرأفة؟

قال الشَّيخ: الرأفةُ أخَصُّ من الرحمة، وهي خيرٌ في جميع الأحوال، وفي الظاهر والباطن، والعبرة في النهايات! فإنْ جَفَّ نَهرُك، وغابَت الأمنيات، فقد أرادك لأمر، (وإذا أرادكَ لأمرٍ هيَّأك)، فإذا بالابتلاء مدارج التَّرَقِّي، وإذا بالمحَن أسباب

الوُصول! تأمَّل خَرْق السفينة، وقتل الغلام، ألا تَجده رؤوفًا رحيمًا؟ عُدَّ مَنْع الله إياك عَطاءً منه لك، إنَّه لم يمَنعك بخلًا، بَل منَعك رأفةً ولُطفًا! يتوحَّش العبد لفَقد غرضه ولا يفهم المصلحة، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾! فلا تسأل شيئًا إلا وَتقرنه بسؤالِ الخِيرة، فَتُثاب وتجاب فيما ينفعك! ربما أراد عَزْلك، و(العزلة عَن الشر حِمية، والحمية سبب العافية)! والعبدُ (مُمتَحن بالبلاء، ومُتَعبِّد بالدعاء)! فسَلِّم أقدارك لله؛ تسلَم، والاستعجال مُزاحمة للتَدبير! (فلئن يجري القَدر عليك وأنت مأجور؛ خير من أن يجري عليكَ وأنت مَأزور)!

تأمَّل يعقوب لما ضُمَّ فَقدُ بينامين إلى فَقد يوسُف، اشتَدَّ أمَله، فقال: ﴿عسَى اللهُ أنْ يأتيني بِهم جَميعًا﴾!

والله إنَّ مِن رأفته ألا نَفْقد الطريق إليه!

قال تلميذ: اللهُمَّ امْدُدْنا بأسباب الوصل!

قال الشَّيخ: الحَذر الحَذر مِن كل ما يوجي بين يديه بالخجَل، يا بني (كَم من مواسمٍ ضيَّعتها الذَرائع)!

قال التلميذ: مُنهَكٌ يا رب بفعلِ نَفْسي، غارقٌ يا مَولاي في الفَقد، غارقٌ يا مَولاي في البُعد، غارقٌ يا مَولاي في زمن القَيد!

قال الشَّيخ: اليقظةُ رأفته بنا، في عُمقنا صمت مُسجَّى على الكثير من تفاصيل الذنوب، فالبِدار البِدار إلى التَّنظيف، ليكون القدوم على طهارة!

قال التلميذ: يا الله، كيف لكلِّ هذا الخَواء أنْ يَغمُرنا؟ وكيفَ نَفقد كُل هذا البَياض؟

قال الشَّيخ: هيَ النَّفْسُ، إن تركتَها لهوَاهَا تَضاعَفَتْ قُوَاهَا، فإن ألقى الهوَى في القلب ما ألقى، فلا تسَل عن شُؤم ما ألقى! وإنَّما تدوم الأحوال بدوام التقوى، ولا يبذُر الشيطان بذره إلا في هَشيم الروح!

قال التلميذ: فمَاذا أصنَع؟

قال الشَّيخ: (ارفَع يديك إلى الله ثم فَرِّج بينهما لاستلام الجوَاب)!

يَا ولَدي، إنَّما (الأعمال بالتوفيق، والتوفيق من الله، ومفتاح التوفيق الدعاء)! قُل لِرَبك: هَاك يدي، تسألك أنْ تَردَّ علَيَّ رُوحًا شارِدة. هاكَ يَدي، تسألك مفاتيح قَبولك. هاكَ يَدي، تسألك كمَال محَبَّتك. هَاك يَدي، قد تقطَّعت في الصوت أنَّاته!

بكى التلميذُ، فقال الشيخ: تحصي الملائكة الدموع، وتحصي الكلمات المبتَلَّة في الدعاءِ: إلى الذين أفاضُوا الدمعَ؛ مِن وجَل، إلى الذين أفاضوا الدمعَ؛ مِن حزن، إلى الذين أفاضُوا الدمعَ؛ مِن تعَب، لا نصب مع الرؤوف الرحيم، ولا مشقَّة يا بُنَي، وعلى الله غَسل الجِراح وَمحو الوجع، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾!

يَا ولدي، في كُل باحَة خلفية من الروح، ثمَّة الكثير من الحزن، فرَدِّد على وجعك: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾!

يَا ولَدي، إنَّ الدعاء لا يمكث طَويلًا في خلد المتردِّدين، وللإجابة؛ طَرق اليَقين! فقُل: قَد عيل صَبري مِن سِنين العِجاف، فعَجِّل لي العام الذي فيه أُغاث وأَعصِر. اللهُمَّ لا تَحرمني الدعاء، فهو رُوح الأمل وسعَة الانتظار. اللهُم هذا زمنُ ثَوران الشهوات، وإغلاق الأبواب، وعَصف الغرائز، ثمَّ صَوتُ الإغراء ينادينا: هَيتَ لَك!

اللهُم هذا زمنُ الأخبار، والأخبارُ صَارت محَرقةَ الأعمار، ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾! نتوسَّل إليكَ ستْرَك في الختام، وأنْ تُلقي عَلينا في هذا الحَريق منك السلام! يَا رَؤوف يَا رَحيم، ارحَمنا رَحمةً تَبلُغ بِنا مُنتَهى النَّعيم!

الجميل

قال الشَّيخ: إلهي، جئتكَ مَن فسحة الحُب، أشتاقُكَ، ودَمعُ الشَّوقِ مُنسابُ، لدربك هَذا القلبُ يحبو، أعِدني مِن ضَعفي إليَّا، حملتُ اليقينَ في نبضي، فلَم أخشَ جَدبًا أو بلايا، الليلُ يمضي بي إليكَ، فأراكَ جَميلًا في الحَنايا، وأنَّى ارتحلتُ، رأيتُ يديكَ شاهقةَ العطايا! يَا مَن يَمُدُّ يَده في الأسحار لِمن استجَار، هذه ليالُ القَدر، فَهبْنا فيها الجَبر.

يَا ربي، أنت السَّبيلُ، إذا القلوبُ توقَّفت أنفاسها، وإذا غاصَت في الضَّنى، فتعثَّرت أقدامها، وإذا الربيعُ تأخَّر، وباحت الرُّوح بأحزانها! إن ترضَى عنِّي، فلا أُبالي، رجائي أنتَ، إن قَطعوا حِبالي.

يَا أبنائي، دعوةٌ تبثها لله باليقين، تأهَّبْ لها، وانهض من حُزنك، فإنَّ الإجابة على مَرمى يقينك، واهدأ في محرابك، ودع قلبك يلتقطُ أنفاسه.

يا بُني، أنت محمولٌ، فلا تكُ حاملًا، أراد راحتك، فلا تكُ مُتعِبًا لنفسك، فقُل له: هبْني دُروبِي وأرني الغيث النَّديَّ، وبفضلٍ منكَ ربِّي، فاهدِني وانظُر إليَّ! مَن دبَّرك في ظُلمات الأحشاء، وأعطاك بعدَ الوجود ما تشاء، لا ينبغي لكَ أن تنازعه فيما يشاء، فقُل: رضِّ فؤادي بالذي تقضي!

قال التلميذ: يَا رب، ما شئتَ شَاء قلبي، ولكنْ ظنِّي فيك جَميل!

قال الشَّيخ: إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ، رزقَ مَن غَفل عنه وعصاه، فكيف لا يرزق مَن أطاعَه ورعَاه؟! سبحانه، هو الجميل في ثوابه، فيا دَهشة القلب والنَّعيم ينساب، والجنَّة تهمسُ للمؤمنين، حديثَ مشتاقٍ لمشتاق! تعبقُ ألوانُ النَّعيم وتمضي، حسنةً نحو حسنة، وترى الحُقول نديَّة مُحتشدة بنورٍ يفيض! تتَّقد دموع السَّحر أنوارًا مُشتعلة، وتسقى بها رياحين الجنة، وتنثرُ بذور الحسنات في تُربة القبول!

قال التلميذ: يا ليتني أفني عُمري سُقيا لذاك الوعد!

قال الشَّيخ: يا أبنائي، طوبى لمن عرِف الهوى، فثبتَ على الهدى وما انثنى، طوبى لمن اتَّخذوا الدنيا طريقًا، فرحلوا بها عنها!

قال التلميذ: يا ويحَ قلبي لو كان قَصاص الذُّنوب، أن يُحجَب عنك!

قال الشَّيخ: ﴿تِلك الدَّار الآخِرة﴾، لا تصلُح للمفاليس، فإيَّاك أن تخرُج إلى الآخرة أعزل!

قال التلميذ: يا رب، تَسمع قلبي قبل صوتي، يا رب، أراكَ في لغةِ الوجود، وروحي تُبدي لك شوقًا، والحُب حُبُّك ما حييت، وحنيني إليك يزيد، فاجعل الجنَّة موطن شهواتنا، والميزان عِزَّنا، والقَبر راحتنا!

قال الشَّيخ: سبحانه جميلٌ في عطائه، فادعُ دعاءً يُزعزع ما ترسَّخ من ظنُونك، واهدم به ما تَماسك مِن شكوكك، واعبُر به منك إليه، وقُل: اللهُ اللهُ ربِّي لا أُشرك به شيئًا، اللهُ اللهُ ربِّي له الصِّفات الحُسنى!

واللهِ، بعضُ الدعاء تتزاحم فيه أيدي الملائكة كَي تكتبه، فإذا أتى أمر الله، جثا الفؤاد تبتُّلًا وسُجودًا.

قال التلميذ: يَا رب، اجعل فقري إليك شَفيعًا، اللهم انقلنا من الحيرة إلى اليقين، اجعلنا من أهل الوهْب، لا من أهل السَّلب، فأنت للقلبِ أمانُهُ، تحفظُ من تشَاء وأنتَ حسيبه!

قال الشَّيخ: يا بُني، «مُخالَفة الهوى، تُقِيم العبد في مقامِ من لو أقسمَ على الله لأبرَّه، فيقضي لهُ مِن الحَوَائِج أضعافَ أضعافَ ما فاته من هَوَاه»! سُبحانه هو الجميلُ في إحسانه، وإذا رزقك الوصول، فقد أكرمك بالدخول، سبحانه بِالْجُوْدِ مَعْرُوفٌ، وَالْعَبْدُ بِالفقر مَوْصُوفٌ، فقُل: جُد علينا يا الله ودًّا وحُبًّا!

يا بُني، إن ذُقت الآخرة، فاح فيك نعيمها من حيثُ تدري ولا تدري، تصلك بركاتها، وما لم يكُن مُمكنًا أمكنا، تأتي مَشيًا، فيجيءُ سَعيًا، ويجزي خَطوة المضطَّر باعًا! ولو كانت ذنوبُكَ مِلْءَ وادٍ، سيغفرُها الذي قالَ: ﴿نَبِّئْ عبادي﴾، فألقِ إليه سَمْعك، يأتِك منه المزيد، وأصغِ إليه بقلبك، فهو عنكَ ليس ببعيد! سبحانه هو الجميلُ في أقداره، قدَّرها عليهم شَدائد، فشاءها لهم فوائِد، والمصائب هِبات، ﴿وأيَّدَهُم بروحٍ منه﴾، فقُل له: إنِّي أريدُ ما تريد!

هو الجميلُ يريد بكم اليُسر، ولا يُريد بنا العُسر، «وإذا أتتك أيام المنن، فلا تغتر، وإذا أتتك أيام المحَن فلا تفتر»!

هو الله الجميلُ تجري به سفينةُ النَّاجينَ مِنْ وجَع، يا بني، ربما تبدو العاقبةُ غائبة، والأقدار غالبة، لكن ألا يكفيكَ منه ﴿قَد نرى تقلُّب وجهِك في السَّماء﴾؟! ومن صدقت سريرته، صفتْ بصيرته، فيرى الشِّدة منه للعبَد، كالمسك تسحَقه الأكُفُّ فيعبق!

بكَى تلميذٌ وقال: يا غاية السُّؤل والأماني، قرِّب لنا الوصل والتداني!

فقال الشيخ: دع الدَّمعة، فاللهُ أعلم بِمَجراها، وعلى أيِّ الهُموم مَرساها!

يا بُني، حفظكَ الله على كُل جنب، وفرَّج عنك كل كَرب، وغفر لك كُل ذنب، وجعل الله ما أهمَّك مفتاح ما تُحِب، هو الجميل لأوليائه، وإذَا صَحَّ الافْتِقَارُ إليه، صَحَّت الْعِنَايَةُ منه!

قال التلميذ: اللهُم اسقِني ودًّا، وحنانًا، وعطَاءً!

قال الشَّيخ: يا بُني، ابحثْ عن بعضك المدفون في العَجز، وإذا دَنت لحظة الرَّحيل، وتَلتْ أعمالك الصَّحائف، فلتكُ عبدًا أتمَّ صَلاة الثبات، وأسقطَ عَصر الهَزائم، قلبٌ معقودٌ على الطاعة وفي دَرب الرِّسالات، قادَ القَوافل!

ثمَّ نظر إلينا الشيخ، وقال: مَن جَدَّ، أدرَك، والعافيةُ تُستَدرَك، فأدرِكوا زمَن العطَايَا!

قال الشَّيخ: يا بُني، ابحثْ عن بعضك المدفون في العَجز، وإذا دَنت لحظة الرَّحيل، وتَلتْ أعمالك الصَّحائف، فلتكُ عبدًا أتمَّ صَلاة الثبات، وأسقطَ عَصر الهَزائم، قلبٌ معقودٌ على الطاعة وفي دَرب الرِّسالات، قادَ القَوافل!

ثمَّ نظر إلينا الشيخ، وقال: مَن جَدَّ، أدرَك، والعافيةُ تُستَدرَك، فأدرِكوا زمَن العطَايَا!

ذو الجلال والإكرام

قال الشَّيخ: سُبحانه ذو الجَلال والإكرام، إذا أعطَى أسبَغ، وإذا بَذل أوسَع، وإذا نَوَّل مَوَّل! أَلِظُّوا بـ ﴿يَا ذا الجَلال والإكرام﴾، فلعلَّه الاسمُ الأعظَم، واعلَموا أنَ الإكرامَ أخَصُّ مِن الإنعام، فتنبَّهوا!

يَا أبنائي، كُل مَن ولَج دَرب الأسماء الحُسنى، عبت قدَماهُ مِن خيرٍ لا يَنضب، تلك بركة الأسماء وتيَسيرها، وعجائب مَنحها، ﴿فادعُوه بها﴾! وَواللهِ، لو امتطى العبدُ الدعاء بـ ﴿يا ذا الجَلال والإكرام﴾، ما طاقَ القومُ به لُحُوقًا، فاطْرق ليالي العمر بها!

قال التلميذ: يا ذا الجَلال والإكرام، انْشلني مِن البَلوى، إلى واسِع المنى، ومن انهدامي، إلى اكتمالي، ومن نُقصان كُل شيء، إلى المنَّة بكل شيء!

قال الشَّيخ: يَا رب، اجعل أوَّل لقائنا بك ﴿الحَمد لله الذي أذهبَ عَنا الحَزن إنَّ ربنَا لغفورٌ شَكور﴾، هناك تسيلُ الحروف نعيمًا، ويتلألأُ الأجرُ، ويَشِفُّ القُرب، ويتناثَر ثَواب الحَسنات سلامًا وريحانا! تسمعُ حنين الجِذع في الجنة، فالله يكتُب الحُب وَيُعطي عليه!

يتوافَد الصَّحب على مطايا النور، يُبعَثون مِن البَقيع تحفُّهم أسرارهم، يصعدون في مَلكوت المنتهى، كُل خطوةٍ لا يتَّسع لها الخيال، يتلوهم الشهداء والعُلماء، وتَتَّسع الجنة، فالجَنةُ لا تشكو الزِّحَاما! يَفيضون بأحزانهم لله، ويقولونَ ما كان لا

يُقال، تلك خواتيم مَن حَرسوا دينه، وللخواتيم إيقاعها! ومَا في الغيب للمُقرَّبين، غيبٌ لا يُكْشَف، يُبصِرون دَهشة المجهول، ويرحلون في خَفايا العَطاء، وهُناك هُناك، يفهمون معنَى ﴿تبارَكَ اسمُ ربِّك ذي الجَلال والإكْرام﴾! فَلا حُزن لا ﴿قبل﴾، ولا ﴿بعد﴾، ولا ﴿في﴾!

يَا بُني، ناجِه وَقُل: يا رب، ألبَستني قميصَ سترك، ثم قَبِلتني بين يديك، ثم جَعلتني محَلًّا لهباتك، أنتَ ذو الجلال والإكرام وَحدَك، أنتَ أنتَ، وأنا كنتُ في عَدم ﴿لمْ يكُن شَيئًا مَذكُورًا﴾، ثُمَّ مَاذا؟ ثمَّ وهَبْتَني مَعرفتك، ثمَّ وفَّقتني لعبوديتك، فإذا انتقلنا إلى ما تَعلم ولا نَعلَم، فأكْرِمنا ولا تهنَّا، اللهُمَّ واجعَل عُمرنا زادًا للمَعاد، أعتِقنا مِن أنفسنا ومن الدنيا، حتى نبلُغ العتق من النار. اللهُمَّ أحاطت بنا الشَّقوة، فأخرج أرواحنا من هذه الرَّقدة، واعصمنا مِن كل سَقطة. نعوذ بك في الدنيا والآخرة من الفَضيحة.

يَا بُنَي، جَعل الله ما أظَلَّك من هذا الصوم، مقرونًا بأفضلِ القَبول، مؤذِنًا بِدَركِ البُغية وَنجحِ المأمول، ولا أخلاك مِن برٍّ مَرفوع، ودعاء مسموع.

قابل الله تعالى بالقَبول صيامك، وبعظيم المثُوبة جدَّك وقيامك!

قال تلميذ: ذنوبي لا تَضُرك يا إلهي، وعفوك نافعٌ وبه تجود، فَنِعم الربُّ مَولانا، وإنا لنعلمُ أنَنا بئس العَبيد.

اللَهُم فأسْمِعنا: أنتُم الطُّلقاء!

قال الشَّيخ: أوقد الليلة فَتيل الترتيل، وادلُج في السحَر، وقُل: يَا ذا الجَلال والإكْرام، يَا مُحرِّك الهِمَم، ويا واهِب النِّعم، يا أهلًا للكَرم، أسألُك بِصنوفِ الكَلم، أنْ تفرج عني ما أنا فيه، يَا ذا الجَلال والإكْرام، جُد عَلينا بسُؤلنا! بك وُجِدنا، فَجُد علينا، ومَا تعسَّر مِن المنى، فيَسِّر له دُروبه!

يَا رب، يا واهبَ الأسباب بلا سبَب، كلَّت الأيدي عن الحيلة!

قال التلميذ: اللهُمَّ آمينَ لكلِّ همس الابتهالات المستورة، آمينَ لِما نخشَى أن نَبوح به!

قال الشَّيخ: وإذا أرادَ لكَ الإجابة، قالت لك الأسباب: لبَّيكَ لبَّيك!

يَا بُني، معَ الله تَضيقُ حِلَق الوَجَع، وكُل رتْقٍ بدون الله، انْفتَق، ومَن لَم يذُق لَذَّة الوصل، فلَم يَذُق! والله، إنَّ قلبًا لم يَسَلْ مَولاه، أجدَبْ!

يَا بُني، ضَع جِراحَك الليلة كلَّها، وَقُل لله: يا رب، مَن لِهائِل الجُرح إذا نَزف؟! يَا رب، مَن لِغاشية الألم؟! يَا رب، إذا انفجَر الكَرب لظى، وسعى الحُزن في مَرابعنا، بألفِ قَدم، يَا ذا الجلال والإكرام، نسألك ألا نُضام!

قال التلميذ: يَعثر لساني في البَوح، فلا تَعرُج إلا الآهَات!

قال الشَّيخ: يَا بُنَي، هذي أسماؤه الحسنى، ومِن ورائها أرباحٌ وأرباح، فاطوِ بِساط التراخي، وتزوَّد، فما أيام العمر إلا راحلٌ عَن راحل! وعسَاك إنْ بَلغْتَ قبول الإجابة قلت عَن همِّك: قَد كَانَ وكان، وقَد مضى مَا كَان!

ذو الطَّول

قال تلميذ: يا رب، هبنا أبوابَ عَفْوٍ على الجنَّاتِ نَمُرُّ منها مُلبينا، نسعى إليك زمرًا وفي الجناتِ للأفراحِ مُتسع، الغيث ينهمر وفي الجنات لا همٌّ ولا كدر، ويخلفُ الله خيرًا لمن صبروا، يا رب، إنَّ الصُّبحَ موعِدُنا، فأذهب الحُزن لا يبقى لهُ أثَر، يَا رب، ضاقَت مخارجها والحمل يثقلني، مَا لي ثِقةٌ بأسبابها، ولكني بالذي يَهَبُ المنى أثِق، أنَا لَستُ أهلًا غيرَ أنَّك أكرَمُ!

قال الشَّيخ: «الخيرُ في أقدارنا مأمول، وكلُّ شِدَّة بالدُّعاء تَزول».

يا بُني، أنتَ مُعتَكِفٌ مُقيمٌ على ضامِنٍ كريم، والكريمُ ذُو الطَّول إذا ضَمِن، لم يُخلِف!

يا بُني، إِذَا مَا أَرَادَ الله إِتْمَامَ حَاجَةٍ، أَتَتْكَ عَلَىٰ وَشكٍ وَأَنْتَ مُقِيمُ، حينها يَخْضرُّ من الأمَل ما كان هَشِيمًا، فَقُل: يا رب، أنت ذُو الطَّول، اجعلْ خُطى الإجابةِ واسعة، افتَح بابا أعيا مِفتاحه، وَحُلَّ عُقدًا تولَّت الأيامُ شدَّها!

قال التلميذ: لكنِّي أتوقُ لأمنيةٍ مِلء المستحيل!

ابتسم الشيخ وقال: اللهُ وليُّ التَّيسيرِ والتَّسهيل، وهو حسبُنا ونِعم الوكيل، فقُل: اللهُمَّ اجعلْ أمرَك نونًا، تسبقها كافٌ كافية!

يا بُنيَّ، الأمورُ تابعةٌ للمقادير، ومفاتيح أغلاقها بِيَد التَّيسير.

يا بُنيَّ، التَّيسير مِفتاح كُل فَتح، فَقل له: يا رب، هذا الدعاء طَارقٌ، وبابك المطروق، وأنتَ مَن تَملك أنْ تقولَ: هذا الباب قَد فُتح! يا ذا الفَضل، هبنا فتحًا يتبعه مَدد!

قال التلميذ: اللهُمَّ أُنسًا لا كَدر فيه، وأمنًا لا خَوف بعدَه!

قال الشَّيخ: الفتحُ بركةَ اللجوء إلى ذي الطَّول، سبحانه ذو الفَضْل والقُدرة والغِنَى والسَّعة، فتمسَّك بالدعاء بالاسم، كأنَّك لا تعرف فرَجًا سِواه، فَقُل: يا ذا الطولِ، أوقفني على بساط رحمتك، وغطِّني بردِاء عافيتك، وأغنِنا بلا سبب، واجعلنا سببَ الغنى لعبادك!

قال التلميذ: على بابِ فضلك نحن اليتامَى، آتِ إليكَ مواجعي أعبَاء، آتٍ إليكَ أنقُش دعائي فوقَ المنتهى، بأنَّ لي ربًّا يفتح كُل المغلَقا!

قال الشَّيخ: الدعاء وَتَرُ قَوسٍ لا يُرى، فارمِ سَهمك تبلُغ هناك. بالدعاء يحلُّ ما اشتهيته حتى تقول ها هو ذا، وَيرحل ما أهمَّك حتى تقول، كَان ذاك!

قال التلميذ: منذ زمن وأنا أنامُ مُزدحمَ الحَوائج، وأنزِف وجَعًا، والله إني لَذو مِحن!

قال الشَّيخ: يا بُني، هذه الحياة سَفر، والسَّفر مظنَّة المشقَّة، فلا يَهولنَّك السَّحاب الأسود، ما تراكَم إلا لِيُمطر! وإنَّ للمِحَن أوقات وغايات، فاستعِن عليها بالاستغفار!

قال التلميذ: أستغفر الله، اللهم يا الله، اعتِق صَوتي مِن حِرمانه!

قال الشَّيخ: يا بني، الدعاء زمنُ العَطاء، ومَا بَلَغَ أَحَدٌ حَالَةً شَرِيفَةً، إلَّا بِمُلَازَمَةِ المُوَافَقَةِ، فوافِق ربَّك في أمرِه ونَهيه!

يا بُني، يا سعادَة (مَن ينقطعُ مِن أسباب نفسه، إلى أسباب ربِّه)، ومِن هواه إلى هُداه، فقُل: يا ذا الفَضل والغنى، إنَّا نسألُكَ العناية التي تبلِّغنا الولاية! وما بعد الولاية إلا الرعاية.

قال التلميذ: اللهم عنايتك، واللهِ إنَّا لنُفتَن في كُلِّ عامٍ مرَّة أو مرَّتين!

قال الشَّيخ: وفي المحنة، (تشتدُّ قاماتٌ إذا اشتدَّت العواصف)، يَمتحنك بالمنع، ويختبرك بالعَطاء، ﴿وَنبلوكُم بالشَّر والخَير فِتنة﴾، فكُن عبد الله في كُل الأحوال!

قال التلميذ: صدقت والله، أنا، مَن أنا؟ أنا المنعُ أنضَجني، فلمَّا بُسِط لي ما انقبضَ، خَشيتُ بعدَ الذَّوق انقطاعَ مَا مُدَّا!

قال الشَّيخ: يا بُنيَّ، البلايا وشيكة الزَّوال، وعُقد المصائب سَريعة الانحلال، سُبحانه، قادرٌ على إزالةِ عُسرك وقلَّة يُسرك، وأنْ يُنجيك مِن شَدائد أمرِك! فاخلَع ما في قلبك، ترَ البِشارة على ما في الأسباب مِن عِوَج، فلا تَثق في المفاتيح، ولا يُفنيك صمتُ أقفالها!

قال التلميذ: يا شيخي، منذ أمد وأنا أدعو، وما زلتُ أنتظر حُلمًا، فرشتُ له صَلاتي تسابيحَ، «إِلىٰ الله أَشْكُو حَاجَةً، تمرُّ بهَا الأيَّام وَهي كَمَا هيَ»!

يَا رب، هَأنذا على حافَة الحُلم، وأمامِي مَزارع النُّجوم، واقفٌ دون الموج، وما أملِك خَطوة الغَوص، ما زلتُ رهنَ الانتظار، وقلبي بَينَ وبين.

قال الشَّيخ: قل: اللهم لا تدع أقدامنا عاثِرة، واجعل ما أصابنا من المصائب آخِره!

يا بُنيَّ، الدُّعاء أقدامُ ذوي الحاجات، وللرزق أبواب اللطف الخَفِيِّ. استغنِ عن، كيفَ مع أنّي، ومَن كان بالله غِناه، أذهَبَ الله عنه عَناه، اسقِ رزقك دمع توسُّلاتك، يَنبُت!

قال التلميذ: يا رب، أهرولُ إليك مِن حَولي حافيًا، أنسجُ مِن آهاتي قَوافي دُعائي، وأقول: إنَّا للهِ، ولله الأمر!

قال الشَّيخ: يا بُنيَّ، تَرى الهموم مقبلةً، كأنها أقسمَت ما فيها مُدبرة، فقُل: وحدَك ياذا الطَّول قادِرٌ أنْ تجعلَ مِن كُل لاءٍ، نَعم، وأنْ تجعل أيدينا نِعَمًا تَعُمُّ!

رفع التلميذ رأسه للسماء وقال: لأنَّك ذو الطَّول، تطاولت أحلامي كثيرًا!

قال الشَّيخ: حاشا له أن يُبصر عَينًا مُترعة بالدَّمع، وصوتًا مُثقَلًا بالهَمِّ، ثُمَّ يقولُ لَه: ثَمَّ!

كان المكانُ يتنفَّس السَّكينة، فقال الشيخُ: السَّحَر مِعراج الدُّعاء، والله منتهى المنى! فقل: يا مَن بيدك صَباح الفَرج، يا طُمأنينة الجِراح، يا رب، إنَّك تسمعُ قلبي، احفَظ على قلبي لهفةَ الانتظار لِغَيثِك، وأسعِدني بإجابةِ الدُّعاء! يا بني، ما أتعسَ الأحلام لولا الدُّعاء، فقل: يَا رب، اجعَل غَيْبك إدهاشًا لأحلامِي، إنِّي بألطافِ ذي الطَّول الكَريم مُتعلِّقٌ!

الغني

قال الشَّيخ: هَيِّئ له القلب، فَصمتُ القلبِ صَوتُك، وأتبع الصَّوت مَداه، واحذَر دعاءِ العجَلة، فلله حكمةٌ كأنها غُرفٌ تُفضي إلى غُرفٍ! وقرِّب مياه غُسلك مِن ذَنبك، فللدموع لحظتها الجارفة، ونعيمُ الدعاء في بشائره المرتقَبة، والزمْ عُرى التوفيق، فإنَّ للقبول دلائلَ، وأولها تيسير الإقبال، وما زالَ -بحمد الله- في الوقت بقية.

قال التلميذ: يَا رب، ذنبي يحرقني، وما غادرتُ عنك!

قال الشَّيخ: يا فالِق الحَب والنَّوى، أعْطِ لكلِّ عبدٍ ما نوى.

ثم دعا الشيخ: يَا رب، نحن لديك، وكل الأكُفِّ ظمأى إليك. يَا رب، أنتَ أنتَ، وأنا أنا، أنت الغنيُّ ونحن الفُقراء، فأغْنِنا غنًى تغنينا به، وتغني بنا!

أنتَ المغْني في كلِّ حال، وأنت المغني إذا مالَت بي الحَال! يا ربَاه، لا تَدع الفقر يرتَع في أحوالي، هذا أنا، أنتَ تملكني، وتملك الرُّوح والبَدنَ!

قال التلميذ: يَا رب، اربط على قلبي، إذا تمادى سَراب الحُلم في عيني.

والله يَا سيدي، بعضُ أُمنياتي، تَهوي في عُشِّي صَرْعى!

قال الشَّيخ: يا بُنيَّ، حَرِّك خيل دعائك، حتى تثير لك الأرض نقْعًا، حرِّكها، حتى تبلُغ ما تُريد، وتتوسَّط بينهنَّ ﴿جَمْعا﴾! لا تَكُن لليأس مأسورًا، وكُن أنت لِما تريد الآسِر! خَصمنا، هو القنوط، إن ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم

بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾، يوسوس لك في وَحشة الخوف، ويشقيك في (شَوط الهَواجس) طَوافًا وسعيًا، يُنسيك الجِدار، ويُريك الصَّدعَ!

يَا بُنَي، مَن (له كفٌّ تعوَّدت القَرعَ)، لن تكون إلا بفضل الله مَلأى، فَقُل: يَا رب، اجعل جَدبنا زَرعًا.

هو الغَنيُّ، فألزم السِّر هذا الاسم وهذا المسعى! هُوَ الغنِيُّ، فقل له: جُد لي بِعينٍ تُرضيك، وارزقني مِن سَمعك سمعًا، ومن بَطشك بَطْشًا! هو الغني، لا يَهبُ مَوجًا، بل يهَب بحرًا، وإذا أغناكَ جعل لك السَّعة مرعى!

والله، إنَّ لله شبابًا، إذا أطلَّ غُروب البقاء، تَنْبت سطورهم في ﴿لوحٍ مَّحْفُوظ﴾، أغناهم، فما أفناهم وأبقاهم!

يَا بُنَيَّ، ربك إذا أغنى أقنى، وإذا أقنَى، أبقى، أبقى ذكْرك، فلا يجعله فُقاعة من زورٍ سُرعان ما تَفنى! أبقى أثرك، فلا يجعل سَعيك نشوةً سرعان ما تطفى، أبقى ثوابك، فلا تراه أُفولًا! ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِف مِنْ بَعْدِكِم مَا يَشَاءُ﴾، فاسأله ثباتًا، لا يكشف لك عَورة!

يا بني، هو الغَنيُّ، يغنيك بالمدد عن السبب! امْدُدْ قلبك إلى الرغَبات القَصيَّة، وَاشْدُد على سرج الخيل الدعاء، واحمل غَيب ما تشتهي في كفِّك، وقُل له: أنت الغَنيُّ، فبَلِّغنا عطاء ﴿فامنُن أو أمْسِك بغيرِ حساب﴾!

أنتَ الغَنيُّ، فأعطنا ما لا نحسن أن نتَمناه، مِن رفيع ما تعلَم، زدنا انغماسًا في نعمتك، واجعل نجاتنا بِعصمتك، واجعل كِفايتنا ولايتك، إنَّا بكَ فلا تُلهنا عنك، ارفعنا بلا غاشيةٍ ولا حاشية!

قال التلميذ: يا سيدي، ما نفعَلُ إذا الفَقر امتدَّ امتدادَ السُّور؟! يَا رب، و(مَن لدمعةِ الفُقراء إلاك يا كَهف الرَّجا)؟! يا رب، يكفي الفُؤاد ما يُكنُّ وَيضْمر!

قال الشَّيخ: يا بُنَي، قد قيل: (قلبٌ طَرح الأذى عن نفسه في رِزقه، لما تيقَّن أنَّه مضمون)! فقل له: يَا رب،

أنت أولَى بنَا منَّا، قد كَددنا، فأرحنا بك، جُد بفضلك علينا، ونحن سائرون إليك، وبالإحسان تَمِّم، أنتَ الكريم، والكريم خَصَّ وعَمَّ!

يَا بُنَيَّ، اجعل لك قبل الدعاء سوابق كريمة، ﴿فلولا أنَه كان من المسبِّحين﴾. ومع التسبيح، زوال الشِّدة! وإن أعياكَ من دائك الدواء، وضاق الدهر بالبلاء، فَقُل: يَا رب، أنت أهلٌ للسخاء، مَا كتب القلمُ في اللوح أنت تعلمه، تمحو ما تَشاء، وتثبت ما تَشاء!

يَا بني، افهم عني: هو الغني (ومَن بثوب خدمته تدرَّع، فللعطايا فَليتوقع)، ثم إن الشكر غرس الغنى، وإذا أُودِع سمْعَ الكريمِ أثْمر الزيادةَ!

يا بني، الشكر يزيد النعم السوابغ، وموقِع الشكرِ من النعمة: موقِع القرى من الضيفِ، ومن شكر الله، جَرى في ميدان الزيادة، ﴿هوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، فالزم طريق الغنى.

قال التلميذ: اللهم اصنع لنا، وفُكَّنا من أسرنا، وحوِّلنا من عسرنا إلى يُسرنا، فَحكمك نافذٌ، وعليك دلَّ فعلُك، وأغْنِنا بحلالك عن حرامك، وبفضلك عَمَّن سواك!

قال الشَّيخ: (اطرُق بدمعات الحوائج بابه)، وقُل: يا رب، ممدودةٌ كَفِّي بعجزي، فهَبْني ما يسَع الظَّما، فإن وصَلك، رأيت الفَيض من عالي الذُّرى يتحَدَّر! يا رب، هب الدعاء مُراده، (مُسافرون إليك، وما أحلاه من سَفر!)، تلَقَّ عنَّا كُل جُرح، إنَّ الجِراح ثِقال!

يا بُنيَّ، هَمٌّ مَسَّته الأسماء الحسنى، ما عَاد همًّا، ومَن يَستَغنِ، يُغنِه الله!

يَا بُنيَّ، اخفِض مِن نَشيج قلبك، واقصد في نَحيبك، وتوقَّف عَن يأسِك، فأنتَ الليلة على مَشارف الأمل!

الكريم

قال الشَّيخ: اللهُم أنتَ الكريم، فاجعَلنا في هِبَتك، (فإنَّ للمُلوك هِباتُها)!

يَا رب، إنْ امتلأتْ الآفاقُ بغبارها، وغاضَت الحَوائجُ مِن أسبابها، ورأيتَ في الأيدي فاقتَها، يَا مَن بيده خَزائن كُل شَيء، أنت الكَريم، فامنح الشاةَ حَليبها!

بكَى تلميذٌ ورَدَّد: وامنح الإجابةَ أسبابها، وامنح الأقفالَ مَفاتيحها، وامنح المنى غاياتها، وامنح قُلوبنا شِفاءَ أسقَامِها، هذي الدعوات، وأنتَ الكريمُ، فلا تَحرِمنا رَجع جَوابها!

قال الشَّيخ: ادْخُل إلى الإجابة مِن بابها.

يَا بُنَي، تقرَّب إليه باسمه، وافهمْ عَنِّي: إذا مَنحْتَ، مُنحْت، وإذا أردتَ مَا (هُناك)، فأنفِق مَا (هُنا)، ومَن ابتَدى بالمعروف، جنَى، وكُل مَالٍ لله تَلَفُه، كَان مِن الله خَلَفه، فإنْ فعلتَ، يَسُقُ الكَريمُ لأحلامِك المزنا!

يا بني، جاءت امرأةٌ بزيتٍ وقالت للإمام: أسرِجه في المسجد يُصعدُ نُورًا.

فقال لها: إذا صُبَّ الزيتُ في القنديل، صعَد نُوره إلى السَّقف، وإذا صُبَّ في طعامِ فقير، صَعد النُّور إلى العَرش!

يَا بُني، اسمع ما قال ابن الجوزي: (لُقمةٌ في بطْن جائِع، خَيرٌ مِن بناء ألفِ جامِع، وخَيرٌ ممن كسَا الكعبةَ وألبسَها البَراقِع، وَخير ممن صامَ الدَّهر والحَرُّ واقع)!

وكَانَ السَّلف يفعلون المعروف مَع الفُقراء، ثُمَّ يقولون: نَستعينُ بكم على غَمَرات

الموت! فيا الله، إذا صَارت الصَّدقةُ دنانيرَ الآخرة، تُشتَرى بها الجنَّة وثَوابها! يَا الله، إذا صارت النَّفقة كِباشًا، يُفتدى بها مِن النّار وَحريقها!

يَا الله، إذا وُضِعَت الهِباتُ وقالت الخَزنةُ أينَ أصحابها، فأكْرِمنا يَا كَريم برؤيةِ ﴿وَفُتحت أَبْوَابهَا﴾، أسمِعنا صَوت الخَزنة، ﴿سَلام عَلَيْكُم طبتم﴾، وهَبْنا بشارة ﴿فادخُلوهَا خَالِدين﴾، ونَعِّمنا بقولك ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾، وفض لنا خزائن ﴿مَا تشْتَهي أَنفسكُم﴾، وأسمِعْنا ﴿ولدَينا مَزيد﴾، وَأتمَّ التَّمام بوعدك ﴿وَمَا هم مِنْهَا بمخرَجين﴾، هذا الكريمُ، وهذه الجنَّة!

قال تلميذ: اللهُ أكبَر، ما أوسَع العَطاء!

قال الشَّيخ: هو الكريمُ إذا أعطَى، حمَلك مِن أقصَى الفَقر إلى أقاصي الغِنى.

يَا بُنَي، اشْدُدْ قامَةَ قَوْسِك، وأطلِق لله عَزيمَتك، واجعل عُمرك سهمًا للجنَّة. اطْرُق البَاب، وادخُل حافيًا مِن كُلِّك، وألبِس البِرَّ خُطاك، واسأله ولايته، إذا رزقتَ الولاية، فقَد رُزقتَ الكَرامة، إذا تَولاكَ، أدهَشَك!

قال تلميذ: عَلِّمنا مما علَّمكَ الله.

قال الشَّيخ: إذا كانت يَده، فقد نبتَ المستحيل! وإذا كانت رِجله، صارت المسافاتُ وَهمًا، وصارَ لإيقاعِ خَطوِك صَدى في النَّعيم! وإذا كَانَ سَمْعه، بلَغَت المعاني قلبك، وهيَّأ لكَ عِلمًا مِن لَدُنه! وإذا كَان بصَره، اكتظَّت لَكَ الرُّؤية، ثمَّ بيد الله تُصنَع! تلك ولاية الله، وولايته دَفْعٌ وَنفع؛ دَفْعٌ، إذا استفردتْ بك الظُّلَم، ونَفعٌ يُقدِّره بما كتبَ لكَ مِن الاصطفاء بالقلَم!

قال تلميذ: كيفَ الطَّريق؟

قال الشَّيخ: العابرون بالمشقَّة رغم بُعد الشُّقَّة، ﴿لقاهُم نضْرةً وَسُرورًا﴾، حتى ينهارَ خيالهم أمام ﴿إنَّ هَذا كَان لكُم جَزاءً وكَان سَعيكُم مَشكُورًا﴾!

يَا بُنَي، هو الكَريم، فاجعَل العُمر كلَّه مَوسِم هِجرةٍ إليه، واجعلْ هذا الاسْم خارطَة الطريق! إذا أعشَب الاسمُ في قلْبك، اتَّسَعت لَك السُّنون، انظُم عُمرك ثُمَّ انظُم على محابه، إنْ وهَبكَ كَرمه، فقد شُدَّتْ خيوطُ العُمْر بحبلٍ وثيق! قُل لَه: إني ألتمسُ في كُل اعوجاجٍ ما تُريدُ مِن استواء، امْدُدْ الخُطى واسبِق إليه!

آهٍ مَا أقصَر المدَى إليه! وإذا امتلأت المسافةُ بالرضا، جمعَ اللهُ لك المنى، وقُل له: (وَعجِلتُ إليكَ ربِّي لترَضَى)! فاجعلْ عَملي سُنبلة تَفيضُ بوعدِ ﴿يُضَاعِفُ لمن يشَاء﴾!

قال التلميذ: علِّمنا كيفَ نَبدأ!

قال الشَّيخ: اشْدُدْ خَطوك بالفَريضة، تلك العُروةُ الوثقى، ثمَّ أرِه هَوى الجَوارح بالتُّقى، وقَدِّم قَرابين الآخرة، وتمَسَّك بالحُبِّ بِوَصله! توَدَّد إليه بكلِّ نافلةٍ عسَاك تَسمع، (إني أُحبُّه)!

الحُبُّ، وِردُ القَلبِ كَيْ يبلُغ مصَافَّ القُرب، إذا قرَّبَك، فَواللهِ مَا تَقِفُ بك الخطوات إلا على أعتابِ المنتهى!

قال التلميذ: اشتَعلَ شَوقي، يَا ربِّي، اشتعالي في رِحابكَ، مَا أزكَى رَوائحه! لكن (طَغى على خَطوي الوَهن)، اللهُمَّ أوصِلني إليك!

قال الشَّيخ: مَا خابت أُمنيةٌ الله مُجْرِيها، انتبَذْ مَكانًا قَصِيًّا، وانثر حَالك بينَ يديه، وقُل: بِكَرمِك، امنَحني بدءَ الطريق، وامنحني المنتهَى، هَاربٌ مِن زِحام الهوَى إليك أواري سَوءة البُعد، آتٍ من المنفى، وليسَ إلاكَ لي مَأوى، وَرُدَّ عليَّ أُنْس النَّجوى يا مَولى، أنت الكَريم، إذا كَادَ البُعدُ يَنعاني يَغشاني!

قُل لَه: (مَسَّ قلبي التَّلَف)، يا بني، مَن جَاءَه مُتوسِّلًا، بلَغَ الكَنَف! هو الكَريم، سخاءُ يَدِهِ لا تَغيض، فاسْألهُ نَجَاةً، تبلُغ بكَ إليه!

النور

(تقول الفِتن: قَد أصَبته، ويقول الدعاء: بي نجَا)، وَمَن ألهمَك الدعاء كتَب لك النَّجاة، وكُل يَدٍ رفَعت كَفَّها للسماء، لا شَيء في عُمرها مُستحيل! فلا تُنصت لمن يعبَث بِيَقينك، والمبصِر مَن يَرى، ولا يَرى إلا مَن صفَا، ومن صَفا؛ صُفي له! فقُل: أعوذُ بنورِ وجهِكَ الكريمِ الذي أضاءَتْ له السماواتُ وأشرقتْ لهُ الظلمات أن يَنزِل بي غضبك، أو يَحلَّ عليَّ سَخَطك.

إنَّ الله هو النُّور، وإنْ خَلا المرء من نوره؛ استوحش من ذاته!

كان قلب الشيخ وهو يتكلَّم ينبضُ بحرقةِ الأنفاس، وتَغشاه مهابة الأسماء، وكان سرُّه في يَقينه! نظَر إلى الجَمْع وقال: نور الله، وما نور الله؟ نُور الله إذا بلغَك، أبصَرتَ أنَّ التَلاقِي على الذنوب أوَّل الفِراق، فترى المؤمن إنْ أصابَه الذنب ارتجَف، يصيح قلبه، رباه، ما الذي أسقَطني مِن عينك، أَقُلتَ ﴿هذا فِراق بيني وبَينك﴾؟ نُور الله إذا بلغَك، أبصَرتَ بوادرَ الفِتنِ قبلَ ظُهورِها، فتقطعُ أسبابَها قَبل بوادرِها! نُور الله إذا بلغَك، صَار الذنب في قلبك تَعبًا، وعلى قَدر الاجتهاد؛ تَعلو الرُّتَب.

النور من الله مَدد، والعَطايا على قَدر الاستعداد، (وعلَى قَدر الطلب يأتِي المدد)، ﴿يَهدي الله لنُوره مَن يشَاء﴾!

النور، أنْ يكون شِعارك: بقيَ القَليل، وتَفنى المواسم، فلا تكن ممن يخرُج من عَتمة القبورِ يصيح: ﴿انظُرونا نَقتبس من نوركم﴾، فَلا تسمَع إلا حسرة: ﴿قيلَ ارجعُوا وراءكَم فالتمِسوا نُورًا﴾، وهَيهات هَيهات!

النور، ألا تتعثَّر الخطوات في جموع الحائرين، إذ (النور منجاةٌ من العَثرات)!

النور، تكرار الاستخارة، حتَى يستبينَ في عُمرك الفَرض من النَّفْل، فلا تَرتبك وتَتوه ألفَ مرَّة!

يَا أبنائي، إنَّ (نصفَ الحَقِّ أشَدُّ إضلالًا من باطلٍ بَين).

النور، تهيئةُ الزاد قبل رَحيل القافلة، إذا نَادى المنادي؛ سنَرحل تَوًّا!

النور، أنْ تَرى الكَون أسبابًا للإجابة، ولو لم يكن بين يديك إلا الثرى!

أهل النور، من باعوا ما شانَهم، لإصلاح شأنِهم، قوم انتَبهوا من رقدات الأغْمار، وانتهبَوا للحظات الأعمار، وما رأوا العُمر إلا غنيمةً تُغترَف!

النور، أنْ تلمح الثَّواب في الحسنة خيالًا، كأنَّه حوريةٌ تشتاقُ ثوابها، وتلمح العذاب في الشهوة، كأنَّه لهيبٌ ينتظر حُطامه، ولا تَرى الفتن إلا مَراقي، كُلَّما غَلبتَ واحدة قيل لك: مَا بقي على مقعد صدق إلا بضع فِتن، فتَشبث!

النور، أنْ ترى الغَيب ودائع، فأودِع غيبك ما شئت، إنَّ الودائع مُستردَّات!

وأهل النور، مَن ملؤوا مراكب الآخرة متاعًا من سوق العزائم، فلمَّا هبَّت رياح الرحيل أسفرت الجنَّة لأهل المغانم!

نُور الله إذا بلغَ قلبك، تَرى الحُور نُورًا، والولدان لؤلؤًا مَنثورًا، والحَسنات قَد وُزنت لك نعيمًا! ثُم إذا رأيَت المزيد في حَواشي المخبوء إليك يتجلّى؛ كلَّما تحرَّكْتَ على الكثبان سَيرًا. ورأيت معنى: ﴿دانية ظِلالها﴾ حتَى رُويت من ماء الكَوثر ريا! فاعلَم حينها، أنَّ الله قد قَذف في قلبك من نُوره نُورًا، ﴿فَخُذ ما آتيتكَ وكُن من الشاكرين﴾.

يا أبنائي، إنَّ القُلوب إذا صفتْ رأتْ!

قال تلميذ: طوبى لمن تَغلغل النور في بصيرته.

قال الشَّيخ: إذا ألقى الله في فؤادك نورًا، فلا مشقَّة في العَتمة، وإذا ألقى اللهُ في فُؤادك نُوره، (فقُل للظُّلمات: مَا تشائين فافعَلي). إنما يتعثَّر في الظلمات مَن لم يُجعَل له نُور، فقُل: اللهمَّ أرِنا بركَةَ الأسماء!

يَا ولَدي، مَن ركن ظَهره لغير رُكن الله سقَط، فقُل: أعوذ بنور وجهك من كَشف ستْرك! (وإذا وجدتَ في قلبك ظلمةً بعد المعصية، فاحمد الله، فلولا النور، ما استَوحش قلبك من دخول الظُّلمة).

قال تلميذ: وما نفعلُ بالشهوات إذا همَست همسًا خفيًّا؟

قال الشَّيخ: لا يُبتلى بحبِّ الشهوات إلا مَن خَاض في ذنُوب الخلوات! ويَحك، تتَضلَّع من إبريق الفتنة ثُم ترجو ثباتًا، ثُم ترجو نُورًا! (حرامٌ على قلبٍ أنْ يدخله النُّور وفيه شَيءٌ مما يكره الله)! ومَا أنتَ إلا خيَارات قَلبِك؟!

جاهِد كل ما يسلبك حَال: ﴿يسعى نُورهم بينَ أيديهم﴾! تأمَّل آية النور؛ كيف اكتمل الإناء ﴿الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دُريٌّ﴾، فأسفَر النور، فلا يكُن قلبك اعوِجاج الإناء، فيتَشتَّت النور! تعبَّد بسورة النور، وافهم منها المعنى ﴿وليستعفِف﴾!

يَا ولَدي، ماجَت الفتن، إذ غَاب عنَّا:﴿قل للمؤمنين يغضُّوا من أبصارهم﴾، تلك أحكامٌ يُراد لها أنْ تغيب كَي نَغيب! المصابيح للأُمَّة، يسرج الله لهم أنوارهم، فاسمَعوا عَنِّي: رابَط أحَد العُلماء في ثُغور الشام مُعَلِّمًا، ثُم نَوى العُزلة للعبادة، فحدَّث بذلك طلابه، فجاءَه تلميذه في اليوم التالي يقول لَه: قَد رأيتُ النَّبي – صلى الله عليه وسلم – وعَن يمينه أبو بكر، وعن يساره عُمَر، وأنت تسير بين أيديهم، ولك قناديل معلَّقة في المسجد النبوي، ينطفئ بعضها في إثر بعض، فلمَّا جَزع لذلك أبو بكر وهمَّ بإصلاحها، أوقَفه النبي – صلى الله عليه وسلم – وقال: دعه، إنَّه يُطفئ مصابيحه بيده!

أنِر الزاوية التي أنت فيها، ولا يسلبنَّك الشيطان قِنديلك! وكُن زيتونة الأمَّة؛ يكَادُ نورها يُضيء ﴿ولو لمْ تمْسَسه نار﴾، وَقُل: اللهُمَّ اجعلني نُورًا، واجعَلني ﴿نورًا على نُور﴾!

العالم

خزائنُ الله تُحصي مواجعنا، ولا يُحصي الخزائن أحَد، كَم حَزانى على أبوابها طَرَقُوا، فغَادروها ما مسَّهم رَهق!

مَن يتَّقِ، يُكفَ القَلق، ومَن سَقى بالله قلبه، سُقي بالفتح غَيبه، حتى يُرزَق جريان الغَدق، رغم ضيق الأُفق!

يا أبنائي، إذا انطوتْ القلوب على صَلاح القلوب، استحقَّت خبايا الغُيوب!

قال تلميذ: يا رب، هذي الضلوع بها ما طوَينا، حاشاكَ ردَّ دُعائنا حاشاكَ!

قال الشَّيخ: القلبُ إذا أشرقتْ بَواطنه، فاضتْ على صفَحات ظواهره، وإذا اعشَوشب السر، اهتزَّت سنابله، هو عالم السر وأخفى، لا تخفَى عليه خافية! هو العالم، إذْ يغشى القلب ما يَغشى! هو العالم العليم، إذا القلوب تجاوَزت شَهواتها، واستعصَمت بالله فوقَ ثباتها! العالم العليمُ بِرباطك على المحن، في زمنِ الفِتن! هو العالم العليم، بمن ﴿أسَّس بُنيانه على شَفا جُرُفٍ هارٍ﴾، ونَسيَ أنَّ ما يُخفيه العبدُ في نفْسه، يكشفه الله في غَرسه!

قال تلميذ: أعوذ بك مِن سعيٍ مَردود، ودعاء مَخذول!

قال الشَّيخ: هو العالم العليمُ بمن وقَفوا على أقدام الثَّبات، فما زلَّت لهم قَدم!

يا بُني، من لم يَهتك أستار التقوى، حماهُ الله من الشدائد والبلوى! هو العالم العليم، بكلِّ مَن ضاقت به الحِيَل!

قال تلميذ: يا رب، بعضُ الوجع ليس يُحتَمل، نعوذ بك من دربٍ مسدود!

تنهد الشيخ، وقال: هو العالم العليمُ بكلِّ مَن عاثَ بك، حتى ذوى قَمحك، بكلِّ من طغَى عليكَ، حتى هَوى صَرحك!

قال التلميذ: اللهُم اكتُبها هُمومًا راحِلة!

قال الشَّيخ: هو العالم العليمُ بـ ﴿الذين ابتَغوا الفِتنة﴾ في الأمَّة، وبالذين ﴿ارتابتْ قلُوبهم﴾، وتحتَ عباءَاتهم كُفْرٌ بواح، ابتلاهم بعلمه، فظَهَرت مُخبآت الصُّدُور على صفحات الْوُجُوه رقمًا مَسطورًا! هو العالم العليم بـ ﴿الذين يَقبضون أيديهم﴾، وأيدي المؤمنين عَن غزَّة! هو العالم العليمُ بمن ﴿فَرِحوا بِمقعدهم﴾، ودين الله يَثخُن بالجراح، بمن ﴿يحلِفون إن أردنا إلا الحُسنى﴾، وما دَروا أن ما كان منك سرًّا، فاضَ لك عند العليم جهرًا! هو العالم العليم، بكلِّ قلبٍ مطوي على شجَن! هو العالم العليم، بمن أعمارهم في السِّجن تَنْسَحِق!

قال تلميذ: وَحْدك يا مَولاي، تعلَم ما تَساقط منَّا!

قال الشَّيخ: يا بُنَي، ليس تعبًا مَا بلغَ بك المقام، ليسَ همًّا ما أزاحَ عنك الظلام!

قال التلميذ: والله، مُبَعثَرٌ أمرنا في كل حَتْف.

قال الشَّيخ: رُبَّ دعاءٍ مَقبول، غلبَ ألفَ تدبير، قُل: يا عليم، افتح لنا ما أغلقوا من الأبواب والطرق، اجعلْ لنا ما يُشرق به الفلَق، اجعلْ أُمَّتنا بلا خوفٍ ولا مَلق! يا ريحَ الأسحار، هذا أنيننا، فَأرِنا اللهُمَّ الإجابة كأنَّها، آمينا!

لو أخلَصنا، لرأينا لُغة الإجابة ﴿تنزَّلت تنزيلًا﴾!

يَا بُنَي، إنَ الله لَيعطي الدنيا على نيَّة الآخرة!

قال التلميذ: اللهُم إني قلبٌ متعثر ﴿يحذَر الآخرةَ وَيرجو رحمةَ ربه﴾، أنا أنَا، وأنتَ أنت، لا يَسعني إلا دَمعي، وأنت العليم!

فقال الشيخ: اللهُمَّ هذا صَدى الحُب! هو العليمُ، إذا الأقدامُ تشقَّقت في صلواتها، وإذا القلوبُ انفطرتْ في دُعائها، وإذا الحوائجُ طَرقت كل أبوابها، سُبحانه هو العليمُ بما بين الدَّمعة والدَّمعة!

قال التلميذ: قد أرْهَقوا دروبنا!

ردَّ الشيْخ: إذا القلب في الدعاء حَن، رأى المن، مَن دخلَ بالذُّل على الله، اتَّسعت له السُّبل!

قال تلميذ: وهو العليمُ بـ (الذين في الفِتنة سَقطوا)، وبدَّلوا تبديلًا!

قال الشَّيخ: يَا بُنَي، دعك منهم، كيف بكَ لو رأيت طلائع الصِّدِّيقين فِي أَوَائِل الْقَوْم، أَو شاهدت ساقةَ المصلحين فِي مُقَدِّمة الرَّكْب؟!

قال تلميذ: كيف ثبَتوا؟!

قال الشَّيخ: ساءِلْ نفسك، لماذا سَار المتَّقون، ورَجعنا؟ ووَصلوا وانقطعنا؟ وَأَجَابُوا الدَّاعِي وامتَنعنا؟ ونَجوا من الْإِشْرَاك وَوقعنا؟! هُو العليمُ بكل مَن ﴿شَربوا منه﴾، فقُل: اللهُم بلِّغني قليلًا منهم، واجعلني كما تُحب أينما كنتُ وكيفَما مِتُّ!

قال تلميذ: زِدنا يا مَولاي عنهم!

قال الشَّيخ: سَافرَ الْقَوْم على رواحل الصدْق، فَقطعُوا أَرض الصَّبْر، الاجتهاد دَأبهم، والإعراضُ عن اللغو سَبيلهم! تتبَّعْ آثَار الْقُرب فِي خُطوات الأحباب، اقْترِب منِّي يا بُنَي، سأهْمس في قلبك بكلماتِ ابن الجوزي: (هؤلاءِ عبادٌ شيَّدوا بُنيان العزائم، بِهَجر ما يُقيم في الآخرة المآتم، قومٌ تمكَّن الخوفُ من قلوبهم، فَمنهمْ مَن قضَى نحبه وَمِنْهُم من ينْتَظر)!

يَا بُنَي، تعاهد قلبك، فَإِنْ غلبكَ الْهوى، فاستغثْ بِصَاحِب القلب!

فدعا التلميذ: اللهُم حنانيك، لا غائبًا عنك إلا رَددته، وبالقَبول وصَلته، وما اعوجَّ منه أَقمته، هَبْنا في جِوارك مَنزلًا، أعوذُ بك مِن مَوطئ قَدمٍ، هو في عِلمك زَلَل!

قال الشَّيخ: إيه مَن انحسَر عنه طُوفان الفتنة، ثبتت له دعوى المنحة!

يَا بُنَي، على ماذا اتفقنا؟ إذا ضاقتْ عليكَ فمُن تُنادي؟ تُنادي مَن يُنادي: يا عِبادي.

الرشيد

قال الشَّيخ: يا بُني، وكُلَّ بَنِيَّ، ارْقَ مَدَارِجِ الْحُلم، وَلَامِس خيَال المنْتَهَى، وتَمتم الليلة: أرِنِي أنْظُرْ إِلَى عَطَائك، قَد دَقَّ قَلْبِي، مَا رَفَّ طَرْفِي، يفِيض الْقَبُول ونرحل إلَيْك، تَهْتَزُّ الْجَنَّة جوابًا وشَوْقًا، وَتسْمَع لِلدُّمُوع هديلًا، وَالْحُبّ فِي أعَالِي الرُّوح صَلَاة وترتيل!

قال التلميذ: دُمُوعِي تُصَلِّي فِي مِحْرَابِ الشَّوْق، وَتَحْت مَجَارِي الدَّمْع، مَا الله يَعْلَمُهُ!

قال الشَّيخ: إنَّ الموَازِين تُقَدِّس بُكَاءُ التَّائبِينَ، تَوْبَةً لَا تَنبُتُ مِنْ الدَّمْعِ، لَا تَتِمُّ، فَأقْبِلَ عَلَيْهِ بِدَمْعِك، فالدمع لُغَة الرُّوح، وَغدًا، مَا على السُّطُور، إلَّا ما في الصُّدُور!

يا بُني، نَعِيْم الجِنان، لِمن أصلَح الجَنان، فَتعَالوا ننسج خُيُوط الْعَهْد، وَكَمْ مِنْ مُتَأخِّرٍ سَبَق مُتَقَدِّمًا، وَإِنْ شَاءَ، سَخَّر سَعْد الْكَوْن لَك!

يا بُني، اجْعَل طلَّك وَابِلًا يَسْقِي أُمَّةً ظمأى حَدَّ الجَفَاف، قُلْ لَهُ: أنْتَ الرَّشِيد، أعَد بِنَا زَمَن الرَّشِيد!

قال التلميذ: أتَرَاه يَكُون ذَاك؟

اقْتَرَب الشَّيْخ، وَأمْسَك بِيَد التِّلْمِيذ، وَقَال: ألْقِ الْأنَا، يتَّخذك عَبْدًا، ويُنلك مَقَام ﴿سُبحان الَّذِي أسرى﴾!

يا بُني، فَرِّق بَيْنَ مَنْ هُمْ فِي ذَوَاتِهِم أسْرَى، ومَنْ إلَى الْقُرْبِ أسْرَى، قُمْ إِلَى اللهِ، وَاتَّبع سَبَبًا مُوصِّلًا!

يا بُني، لَا تَكُنْ عَبْدًا أتَى ومَضَى، كَأنَّك بِلَا مَعْنًى، غَادَر إلَى آخِرَتِه مُقتَرِضًا، وما فِي كَفِّه انْقَرض، كَان سَعْيُه غَمْضَة جَفْن وَانْقَبض، لَئِنْ كَانَ بَعْضك مَهْزُومًا، فَاصْنَع سياجك، حَاشَاك أنْ تَمْضِيَ هَباء، لا شَيْء مُوحِش، مِثْلَ أنْ تَكُونَ فَلَا تكُون!

قال التلميذ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّك قَلْب الْقَلْب، وَثَبِّتَه حَتَّى لَا يَنْقَلِب!

قال الشَّيخ: هو الرَّشِيد، فقُل: أرْشِدنِي إلَيْك، وَصِلنِي بِكُلِّ مَا يوصلني إلَيْك!

سُبْحَانَه، قَطَع الْعَلَائق عَن الْمُنْقَطِعِينَ إلَيهِ، ووَهْب الْحَقَائق للمتصلين بِه، وَمَنْ كَانَ سَعْيُه لِلْخَلَائق، بُعِثت حَسَنَاته عَوائق، وَكُلُّ عَمَلٍ خَلَا مِن الزَّبَدِ، يَرْتَفِع، فَلَا تَغِب فِي الضَّوْضَاءِ، وَتفقد بِضَاعَتَك إلَيْه!

يا بُني، نَفْسك نَفْسك، أمْ رَبُّك رَبُّك! حَذار مِنْ نِيَّةٍ تنقلك مِنْه إلَيْك!

تَنَهَّد الشَّيْخُ وَقَالَ: ﴿إنَّ مَعِي ربِّي﴾، مَقَامٌ لَا يَبْلُغُهُ مُلْتَفِت!

قال التلميذ: أنْت الرَّشِيد، فَهَيِّئ لَنا مِنْ أمْرِنَا رَشَدًا، أكْمِل يا سيدي!

قال الشَّيخ: تَمْتَدُّ حلْمًا لِلْأمَّة، تجتاز أسْبَاب النِّهَايَةِ، وتَرْتَفِع فَوْق تُخُوم الْأسْبَابَ، إنْ كَانَ خطوك مِعْرَاج السَّمَاء!

يا بُني، أوْقِف النَّظَر، يَفْتَحْ اللهُ لَك الْبَصر، غُضَّ بصَرَكَ عَمَّا لَيْسَ لَك، تَنْفَتِح بَصِيرتك عَلَى مَا هوَ لَك، فيريك الله غَائبَ الْأشْيَاء، تُبصِر بِه، فَتَشْتَد! إذا

وَهَبَك نُوره، أبْصَرْت الشَّهْوَة، وَرَأَيْت مَآل الْخُطْوَة، وَإِن نَازَعَتك نَفْسك الثَّبَات، ورَوادتك الْفِتْنَة، فَعُض عَلَى الْأنِين وَلَا تَخْسَر الرِّهَان! وَإِذَا وَقَعَت الْفِتَنُ، فادفعوها بِالتَّقْوَى، ومَن لَم يتحقَّق بِحَقَائق التَّقوى، كَان تَدَيُّنه مُجرَّد دَعوى!

يا بُنيَّ، حذارِ حذارِ، لَا تذْهبْ إلَيْهِ وَأنْت تَعرُج!

قال التلميذ: لِلشَّيْطَان شِباكٌ لا ينتهي ارتكابُ المسِّ فِيهَا، فَمَاذَا أفْعَل؟

قال الشَّيخ: عَيْنٌ كَثُر نَظَرُها لِلْحَرَام، فَقلَّ بُكَاؤهَا.

يا بُني، إنْ جَفَّ الْقَلْب، مَنْ ذَا يُعِيد لِلْأعين دُمُوعَهَا؟! وَمَن خاضَ الماء العَكر، نَاله أذَى البَلل، لَا يَعبُر المحَالَ، إلَّا منْ كَانَ لله فِي كُلِّ حَال!

قال التلميذ: إنَّهُم يتناوشوننا عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَال!

قال الشَّيخ: اشْتَغِل بِصَرْف الْعَائق واستعذ باللهِ مِنْ شَرِّ الطَّارِق، وَتَيَقّظْ، فَإِنَّهُ لَا يمتطي الْإِثْم إلَّا مُوغِل فِي التَّلَفِ.

يا بُني، اعْرِف كمائن نَفْسِك، فَرُبَّمَا هُوِّنْت لَك الصَّغِيرة، حَتَّى تَقَع فِي الْكَبِيرَةِ، هُو الرَّشِيد، فَاسْألْه الْهِدَايَة وَرُشد الطَّرِيق!

قال التلميذ: يَا رَب، هَيِّئ لَنَا مِنْ أمْرِنَا رشدًا!

قال الشَّيخ: أوَّاهُ، مَنْ يَرِثُ فِتْيَة الْكَهْف! شَتَّان بَيْنَ مَنْ كَان عُمره زيتونة ما بعثَرتها الرِّيح، أقْدَامه لله مَجْرُوحَة وَثَبَاته يَمْتَدُّ فِي عُمْر الْأبَد، وَغَيْره عَاش مُحتَضِرًا!

يا بني، انجُ بذاتِك لِذَاتِك، وسافِر مِن نفْسك إلَى نفسِك، وَابْحَث عَن القَبول فِي قلبِك، وَلَا تَكُنْ مَعَ الخَوالف، وتَعجز فِي قُيود الشَّواغِل، ذَاك مُشَيَّدُ الْبُنْيَانِ فِي مَدارج السُّيُول!

وإنَّ مَن رزَقه اللهُ الصَّبر فِي الاخْتِبَارِ، كَانَت عَاقِبَته الْعَافِيَة!

قال التلميذ: يا رب، أنت الرشيد المرشد، قَلْبِي فِي يَدِك، فَاكْفِنِي تقلُّبي، يا رب، اجْعَلْنِي بِك، حَتَّى أكُونَ لَك!

قال الشَّيخ: وَفِي الغثاء، يُثَبِّتُ الله مَن يَشَاءُ!

يا بني، كُنْ أنْتَ العُدَّة، إذَا شاؤوا للأجيال الرِّدَّة، وَجَبَلًا يعصمهم مِن الطُّوفَانِ! اجعل عمرك رهنًا لله، فقد آن الأوان!

يا لهفة الرُّوح، إنْ رَفَعَتْ قَوَاعِدَ الْبَيْتِ بَعْدَ انْتِظَارِ!

يا لهفة الرُّوح، عَلَى مَنْ جَعَلَ خَارِطَة الجُرْح مِيلاد الْأمَل!

يا لهفة الرُّوح، عَلَى مَنْ خَطوُهُ حُقُول قَمْحٍ وشلَّال سَنَابِل!

يا لهفة الرُّوح، عَلَى عُمرٍ كله آذَان، وَالصَّدَى كُلُّ المراحل!

يا لهفة الرُّوح، عَلَى مَنْ كَانَ ﴿عسَى﴾ فِعل الرَّجَاء!

قال التلميذ: اللَّهُمَّ احْفَظْ قَلْبِي مِنْ نَشْوة الْهَوَى وَاخْتِيَال الْفِتَن!

قال الشَّيخ: يا بني، احْفَظْ عَنِّي: ما كان الانْتِهَاء مُخَالِفًا لِلابتِدَاء، إلَّا إذَا كَانَ أَوَّلُهُ الْتِوَاء، إيَّاكَ أنْ تَدُلَّ النَّاسَ وَتَفقد الطَّرِيق، فَقُلْ: أنْتَ الرَّشِيد فَدُلَّنِي عَلَيْك!

وَمِن تَوْفِيقه، أن يهديك لِوَظِيفَة الْعُمْرِ، بَعْدَ دعاءِ بالأسماء صادق! فاسأله هداية ورشدًا لا تضل بعدها أبدًا.

يا أبنائي، قبلَ الوداع اسألوه عُمرًا، هو ميراث الأنبياء، وحياة تغاثُ بها الأمة، وادعُوا لنا! مَا أَكْرَمَه! تَدْعُو لِأَخِيك، فَيُعْطِيك وَيُعْطِيه!

ثُمَّ انثنى الشيخُ، وفي عينيه بشارة ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

علام الغيوب

مَن انفصلَ عن معَاصي الخلواتِ؛ وصَل، ومن وصل؛ اتَّصل! واللَّهُ عَلَّامُ الْغُيُوبِ.

ثُم قرأ الشيخ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

قال الشَّيخ: عَلام الغيُوب؛ وليس الغَيب، لأنَّ الغُيوب طَيَّاتٌ وأسرار، نَسترُ خَفايانا بالحُجب! كُل حجابٍ؛ غيبٌ في غَيب في غيب، ولكنَّ الله علَّام الغُيوب، وعنده السِّر علانية، عنده الخفايا علانية، لذا، ما أبعدَ المنح منه عمَّن تُغريه الذنوب! عمَّن تُغريه شواغل الهوى! أما التقطت المعنى من قوله تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾؟ لذا (خلِّ الشواغل وتَوجَّه)، وقُل: هاربٌ منِّي إليكَ، أيقِظ قَلبك، وتفقَّد خَرائب الشيطان فيك، واذكر أن كل فراقٍ للذنبِ فتح!

قال تلميذ: ثَمَّة آهاتٍ في فَمي!

ثُم تَنهَّد، وقال: أوَّاه من خطيئةٍ شَهيَّة؛ صارت النار أنفاسها!

فما تَمالك الشيخ دَمعه، وانهمَر الجَمعُ في البُكاء، تَهدَّج صوت الشيخ ودَعا: أنت علام الغيوب إذا ما بُعثنا وزلزلت الصحائف زلزالها، وبِتنا نُداري سوءاتنا، وما ثَمَّ إلا النار أو حسراتها، وصاحَت بنا أعمالنا، وأيقظَ البعثُ أسرارنا، وانزوى

عيسى في خوفه، وقال لله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، ذاك يَومٌ، تخصفُ البشرية فيه على عوراتها من حسَناتها، فلا يدري الناسُ أيتّقون النار بالحَسنات؛ أمْ يسترون العَورات! فيا للفقر يوم القيامة، ويا للحسرات!

يا أبنائي، ما الذنوب في القيامة؛ إلا سُجون، وما القلوب إلا؛ سَبايا!

أنْهى الشيخ كلامَه، فما تَسمع في المجلس إلا أنينَ الأصوات، تماسَك الشيخ ثمّ قال: رَبنا ولكَ ما نبضَ به القلب، ربنا ولك ما سالت به العين، فتقبّلْ أوبَتنا يا علام القلوب والغُيوب!

التقَط التلميذ حرارةَ التنهيدة، وتوحَّد مع قلبِ الشيخ، فقال: اللهُم حل وثاق قلوبنا، اللهُمَّ فُكَّ الجوارح من قيودها!

فأكمَل الشيخ: اللهُم وفرِّغ نُفوسنا اليوم من باطل إثمها، واجعلْ مَتاع الآخرة غايَة المشتهى.

يا أبنائي، هذا البُكاء يقظة، ولا خَير في عبادة لا توقِظ القلب، ولا تنضجُ في المآقي دُموع الخَشية!

صمت الجمع، فقد كان المجلس غارقًا في سَكينته، فلا ترى بين قلبٍ وقلبٍ إلا خُشوعًا مَهيبًا، فأكملَ الشيخ حديثه، فقال: إنَّ الله علام الغيُوب في النِّيات، علام الغُيوب في المطويِّ من السيئات، فطوبى للمُهرولين يبحثون عن أعالي

الأُجور، مُشمِّرين قلوبهم عَن كُل ما يلوثها، إنَّ الله بهم عليم، هُو علام الغيوب..

عَلامٌ، بمن استَعصموا بالحبال الموصولة إليه، حتى نزَفت أيديهم!

عَلامٌ، بمن قبَضوا على الجَمر، حتى اشتعلتْ حرائقُهم، والناس يَنعمون في الهوى!

عَلامٌ، بمن هَرولوا إليه؛ رغم المعاذير!

عَلامٌ، بمن أعَدُّوا العدَّة، وخذلتهم الرَّواحل أن يكونوا في صُفوف المجاهدين!

عَلامٌ، بمن أيقَنوا بالوَعد رغم الهَزائم!

عَلامٌ، بمن اتقَوا الله في الليلة الظلماء؛ ودَبيب الشهوات يجري حَولهم!

عَلامٌ، بمن في غَيابات الجُبِّ يُرابطون على يقين الفَرَج.

وعنده وحده غيبُ القَبول!

فارتجف تلميذٌ للمعنى وكادَ يبكي وهو يسأل: أمَا مِن إشارةٍ للقبول يا سيدي؟

قال الشَّيخ: يا بُني، لا تخف؛ لا يجعل الله عبدًا أسرع إليه؛ كعبدٍ أبطأ عليه!

اركُض بقلبك إليه، فمغتَسلُ الإثم بين يديه، وعلِّق قلبك بعالم السِّر وأخفى، و﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾!

قال تلميذ: علام الغيوب، السر عنده عَلانية، فدُلَّنا يا سيدي كيفَ ننجو يوم القيامة بينَ يديه!

قال الشَّيخ: يا بُني، ابدأ بالنِّية؛ فتلك عنده أول غيبك، وَقد تكون العَوائقُ مما عليه النيَّة، وتُمنعُ المقاديرُ؛ مما عليه الطويَّة! وقُل: اللهم أطلق منَّا الجوارح، واجعل النِّيات لك!

يا بُني، إن بعض النِّيات تُمَهِّد الطريق للسالكين، والنية نواة القبول، ثُم تَجافى عَن الشُّبهات في الحَرام، فإنَّ العبد إذا خاضَ في الشُبهة؛ بلغَ حافَة الزَلَل! وانشغِلْ بذاتك، إنَّ التقيَّ عَن الخَطَّائين مشغول! (وإذا عزَم العبدُ على ترك الآثام؛ أتَته الفُتوح)! ثُم اكتُم حَسناتك أشد مما تَكتم سَيئاتك، فالله علامُ غيوب الباحثين عن الشهرة!

اسمَع السلف وهُم ينادون: لا نَعلم رجلًا أحبَّ أن يُعرف، إلا ذَهب دينه وافتَضح، ووالله ما صدَق عبدٌ إلا سَرَّه ألا يُشعَر بمكانه!

يُقال للعبد يوم القيامة: عَملك قِشرٌ أم لبٌّ؟ ولا يُثقِل الكَفَّة إلا اللبُّ! لذا قال السلف: إذاعةُ الحسنات؛ بَريدُ سلبها!

صَمت الشيخ، ثُم رفع رأسه والدَمع يكاد يَفضحه وقال: يَا أبنائي، الروح إذا عَوَّدْتَها الاغتسال؛ طَهُرت، لكنْ المصاب إذا قَلَّ الماءُ أو أصابته نَجاسة! طَهِّرنا يا علام الخَفايا والنَّوايا والغُيوب مِمَّا اقترفنا، طَهِّرنا بلطف منك!

الوكيل

تلا الشيخُ بصوتٍ فيه رَفيفُ الملائكة: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ منَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لم يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾، ثُم نظُر إلينا وقَال: ما خذل القُرآنُ أهله!

فكبَّر الجمعُ كلُّه، وقال تلميذ: آمَنَّا بوعْد الله!

فقال الشيخ: اللهُمَ أخرِجنا من مَضايق الحُزن، إلى فَسحة المنَن، وأخرِجنا عن تدبيرنا، إلى تَدبيرك!

يا أبنائي، (إِنَّ المقَادِير إِذا ساعدتْ، ألحقتْ الْعَاجِز بالحازِمِ)!

التوكُّل، هو وثوقك بالمضمون، وأن تستبدل بالجَزع السكون، حتى يرى الله منكَ يقين الظامِئ بالهُطول، وما فَوقه خالٍ من الغَيم!

المتوكِّلون، تَراهم في أوقاتِ المحَن، كأنَّهم في أزمانِ المنح!

قال تلميذ: حنانيك، إنَّا مِن الأوجاعِ نحترق، حنانيك، إنَّا مُحاصَرون نختنق، حنانيكَ، (مَزَّقونا مِثلما شَاؤوا، وما رتَقوا)! حَسبُنا إلهنا، أنت فداك الروحُ والقلبُ، لكنَّها شكوى مَن مَسَّه الرَّهق!

قال الشيخ وعيناهُ تذرفان: يَا بُني، هُش بالدعاءِ على الألم، وإن فاحتْ روائحُ الحريق، فلا تَهُن!

يَا بُني، لِيَرَ اللهُ منكَ صَبْرَ الجُذور على جَفاف السَّواقي! هو حسبنا لو هيَّؤوا ما هيَّؤوا، هو حسْبنا على كِفايته نتوكَّأ، هو حسْبنا وما كادوا بالله يُدْرَأ!

قال تلميذ: (اللهُمَّ جفَّت عُروق القلب، حتى شِغافها)!

قال الشَّيخ: تتبَّعْ أوجاعك، وقُل: الله يَكفيني ارتجافها، تتبَّع سَنابلك وقُل: اللهُ يكفيني جَفافها، تتبَّع كُرُباتك وقُل: للهُ يكفيني هُمومها! قُل: حَسبي الله وَنِعْم الوكيل، بيقينِ إبراهيم.

يا بني، إذا ضجَّت أحزانك فقُل: قد دنَا والله انكشافها، إذا شاخَت أمانيكَ انتظارًا فقُل: قد دنَا والله قِطافها،

وإن تلبَّد غَيمك بالأسَى فقُل: قَد دنا والله انذِرافها، ذاكَ يقينُ إبراهيم لما رأى النار فقال: وَحقُّكَ إنِّي لا أخافُها!

إنْ يَبستْ روحك وعَشْعش الحُزن في نواحيها، ورأيتَ الموت أوشَك، فاصْرُخ بقلبك: غيرَ طريقِ إبراهيم لنْ أسلُك!

فبكَى تلميذ، وقال: اللهُمَّ هذا أنا، وذاكَ إبراهيم، اللهُم امْدُد لنا مِن يقينه يَقينًا، اللهُم يَقينًا تهوِّن به علينا مصائب الدنيا!

قال الشَّيخ: إذا كَان الله هو مَطلوبُ القلب، بادَرَهُ المعطي بالمواهِب والعطَايا!

يا بُني، مَن يَحتمل إلى الله، يَصِل، يا الله يا حسْبنا، إنَّا إليكَ نبتهل!

يَا بُني، اشتَدَّت الضَّائقات على إبراهيم، فما عافَ اليَقين، ولا توسَّد الشَّك، وظَلَّ يُردِّد: حسبيَ الله ونعم الوكيل!

قال تلميذ: اللهُم عُدْ بنا إليك، والله كأنَّنا بكلِّ سِهام الشَّك رُمينا!

قال الشَّيخ: بدأ المصاب، يوم وقَفنا مَعَ الأسْبَاب، يَوم عبَدنا الأسباب، فقُل: يا رب الأسباب، بلِّغْنا مقام ﴿يَا نارُ كوني بردًا وسلامًا﴾! لو شاءَ، جعلَ المستحيلات سَببًا. لو شَاءِ الله، فتح ما أوصدوه حُقبًا. لو شَاء، لا يُعجزه الكَون بما رَحُبَ. فاغْمس يَقينك في قَلبك، لَنْ يَلمسوا منكَ كَفًّا ولو أشْعَلوا الحَطَبَ! قُل: أنتَ ربي وعِلمُك حَسبي، وَنِعم الحَسب حَسبي، فتولَّ أمري، ولا تَكِلني لنَفسي!

يَا بُني، لا تركَن لغير الله يومًا، فَيقطع عنك نفَحات الغُيوب.

قال تلميذ: أوَّاهُ أوَّاهُ، أنَّى لنا بهذه المقامات؟!

قال الشَّيخ: مَن كان سُلوكه بالشَّرع مُقيَّدًا، كان من الله مُؤيدًا، فَفتِّشْ أحوالَك!

يَا بُني، مَن وُفِّق أن يكونَ للآخرة حارثًا، كان لميراث النبوة وارِثًا، فادْخُل عليه بالذِّلة، ﴿ولقد نصرَكم اللهُ ببدرٍ وأنتُم أذلَّة﴾!

قال التلميذ: يا رب، هَبْنا إرثَ النَّبيِّ!

قال الشَّيخ: بَلغَ مَن بلغ، كُلٌّ على قَدر إرْثه، وإرْثه على قَدر نُوره، ونُوره على قَدر فتْحه، وفَتحه على قَدر صفَاء قَلبه، وصَفاء قلبه على قَدر قُربه!

قال تلميذ: اللهُمَّ هبْنا مِن حُلَل التُّقى أعلاها.

قال الشَّيخ: يا بُنَي، قُل: اللهُم ضَع فِي ضعْفي قُوَّة مِنْك، اللهُم نرجو مَعيَّتك في الدنيا، في لأوائِها ورَخائها!

يا بُنَي، العاكفون على وصَايا ربهم، العاكفون، وأجرُهم يتَعاظم، العاكِفون، وهُمومهم تتَزاحم، سبحانَ مَن أعانهم في حَمل البلايا، ثُم أكرمَهم بِهبات العَطايا!

قال تلميذ: اللهُم عَونك!

قال الشَّيخ: الجأ لِربِّك، إنْ ضاقت بِك السُّبُلُ، واسقِ الدُّعاء بِما جادت بِه المِقَل!

يا بُني، سهمُ الدعاءِ إذا أطلقتهُ يصِل، إذا أعطاكَ السؤال، فقَد كتب لك النَّوال، فهيئ المحل للقَبول! وإنْ فتحَ للروح في نَجواها، فتلك وربي عاجل بُشراها، ما ضَرَّ الأَكُفَّ المرفوعة انتظارها، إنْ كان وعْدُها ﴿إنَ ربِّي قريبٌ مُجيب﴾! فاستَرزِق الله من خزائنه، فإنَّ ذلك بينَ الكافِ والنون، وما العطاءُ بعدها إلا مَواسم فرَجٍ ضاق عنها خَيالك!

قال تلميذ: والله يا سيدي، في عُمري قافلة مِن الجُروح، وأملٌ ما له أُفق!

قال الشَّيخ: كلَّما أوغَلْتَ في الحُزن قال اليأسُ: آمينا، فأسمِعْ قلبكَ: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾! لكنْ، أخلِص النية، تتحقَّق لك الأُمنية.

يَا بُني، صَلِّ الليلة رَكْعتين على خُطى إبراهيم، على خُطى يَقينه، وَسلِّمْ كُلَّك لله، وقُل: أنتَ الوكيل، قَد فوَّضتُ إليكَ الأمْرَ كُلَّه، فَدبر لي، فإنِّي لا أُحْسنُ التَّدبير!

الشافي

يَتعدُ الموتُ وتُغَلُّ يَداه إذا قُلتَ: يا شافي يا الله!

يُهزَم المرضُ، وتَستيقظ العافية إذا قُلتَ: يا شافي يا الله!

أفلَحَ مَن كان قُربُه من الله طِبَّه، وشِفاءه، ودَواءه!

أفلَحَ، مَن كان قُربه من الله يقينًا! وَمن عامَل اللهَ بحسن الظنِّ، وجَد الله هُو الله! تَهجَّد بالنِّداء، وأوقِد دُروب السماء بـ: يا شافي يا الله!

قال تلميذ: إن كُلَّ مُبتلى ليَدعو!

قال الشَّيخ: حاشَا لله أنْ يَنسى خُطى الدعوات، لكن للإجابةِ تَوقيتها! وقَد يَقضي اللهُ برَفع البلاء، وَما يكون بين الإجابة وانهمارها إلا أنْ ترى سُؤلك، فَلا تَفْقِدك المحاريب! ولو أعطَيته من كُل ليلةٍ ساعةً مِن السَّحر، لرأيتَ العَجب! نَحنُ نَفِر من أقدارِ المرض إلى أقدار العافية؛ بالدعاء!

لقد سمى نَفسه الشافي حتى لا تكتملَ لك العَثرات. سمَّى نفْسه الشافي، حتى يُبدِّل لك الوجَع تَبديلًا. سمَّى نفْسه الشافي، حتى إذا قال اليأسُ: لا عاصم اليوم، جعل لكَ الله العافيةَ أمرًا مَفعولًا.

هو الشافي، فتهجَّد بالاسم، ثُم تهجَّد حتى تُصبح العافية قَدرًا مَشهودًا. فقُل، يَا من لديه دَواء الدَّاءِ والسَّقَم، وكررها حتى تَستفيق لك العافيةُ في المواطن

الغافية، حينها إذا نَزل الشِّفاء، رأيتَ (دُموع البلاء تَجفُّ على بابِ الجَزاء)، على باب الفَرج.

قال تلميذ: سُبحان مَن قَدَّر المرَض.

قال الشَّيخ: (أقدارنا مِحنٌ، في جَوفها مِنَحٌ لسنا نَعلمها، فالله يُخفيها)!

يَا بُني، هذه الأقدارُ ليست دائمة، إذ الإنعام مُتواصل، والابتلاء فَواصل! لكنَّ العبدَ قليلُ الصبر، وما عَلِم أنَّ المرضَ اختبارٌ يكشفُ عَن تمكُّن الإيمان في سُموِّ صَبره، فلا تَجعل ابتلاءَك أفراح الشيطان، ولا تُمكِّن له في قَلبك!

قال تلميذ: سُبحانه، لماذا بلَغ بيد البَلوى فينا؟

قال الشَّيخ: ما يكونُ الابتلاء في الأرضِ البور، بل هو في كُل حصادٍ وَفير، لِيَرى اللهُ كَم تُعطي ربك من نَفسِك!

يا بُني: (سُبحان مَن يَراكَ تَميلُ، فيَبتليكَ كَي تَستقيم). وإنَّ (في العلَل لَنِعَمًا لا يراها إلا مُوفَّقٌ)! ربما من النعم أن (مَن تَعرَّض للمَصاعِب، ثبَت للمَصائب)! وهذا مَعنى (كَم في الصبر مِن انفتاحِ البَصيرة)! إذ لو قَلَّبتَ يا ولَدي حُروف الصبر، لرأيتها البَصر، لذا قالوا: أبْصِر تَصبِر، تَظفر!

قال تلميذ: كَم ينقصنا الإيمان يا سيدي؟

هَزَّ الشيخُ رأسه، ثُمَّ قال: ما الإيمانُ بالأسماء الحسنى إلا مَعنى (لا) النافية لليَأس، و(لا) الناهية لِريحِ المخَاوف العاتِية! إنَّ (مَن استَسقى من الله يياس الحلم

رغم جَدب الماءِ، تَولَّى اللهُ سُقياه)، لذا، دَثِّر وَجعك باسمِ الشافي؛ تنتهي المخاوف!

ارتَفعتْ أنفاسُ تلميذ بقَافيةِ اليَقين، فَأنْشَد: واللهِ مَا لجأتُ إلى ربي بِمُعضِلة.. إلا وَجدْتُ جَناب اللطف مُنفَسِحا!

فردَّ عليه الشيخ: يا مَن يُحبُّ أنينَ العبد في الظلَمِ .. اجعلْ شِفاءك في جَدبنا سُحبًا!

يَا قَوم، إنَّ الهمَّ يَعقُبه انفراج، فلا تَأبه لِهمِّك، بل اغلبه بالدعاء! إنَّ ظَمأ العافية يُسقى بماء الدَّمع، فهو وَحده مَن يملكُ طَيَّ الآلام، وَوالله ما تضايَق أمرٌ فاستَجرت به، إلا تفرَّج بابُ الضِّيق مُنفَتحًا!

يا أبنائي، الأسحار زمَن الأمل، إذا كادتْ يَد الآلام تَطول! مَن فَتُر فيها عَن الدعاء، فهو مَغبونٌ، فهَذا وقْتُ الحَوائِج، وَقت اليَقين؛ بمعنى (يأتِي بها الله)!

فَقُل: أَعوذُ بكَ من اجتماعِ الهُموم، وأعوذُ بك من وَساوس اليَأس والقُنوط!

قُل: إنِّي مَسَّني الضُّر وأنتَ أرحَمُ الراحِمين!

قال تلميذ: حتى وإنْ كانَت الهُموم كَثيرة؟

قال الشَّيخ: ثقْ أنَّ (الهُموم إذا تكاثرتْ؛ سقَطت كُلُّها)، تلك سُنَّةُ الله! وعَلى قَدرِ ما عنْدنا مِن يقينٍ، يَكُونُ العطاء! أمَا سَمِعت عنه: (وَيُنبِتك كأنَّك لمْ تَذُق جَدبًا قط)؟!

قال تلميذ: يَا رب، قَد هَتكَ المرض نُضْرَتهم!

قال الشَّيخ: أمارةُ اليَقين أنْ تَلوح في الوُجوه نُضرة اليَقين، فالمسافات إلى الإجابة؛ رَهن اليَقين!

ثُمَّ اعتَدلَ الشيخ، وقال: سَأُعلِّمكم أمرًا، إنَّ (الفرج مَعقودٌ على نَواصِي المسبِّحين)، فلا تَكلُّوا عَن القول: سُبحان الشافي! حِينها، ستَذوق دَفق الفَرجِ في خِضَم البَلاء! ثُمَّ مَا فُتِحَت مَغاليق الأُمور بِمثل قَولك: (لا حَول ولا قُوة إلا بالله). ولَو يَعلم صاحب الحاجة مَا في هذه الكلمة مِن العَون والتَّوفيق والسَّداد، مَا تَركهَا. ثُمَّ عَلَيكم بالحَلال، فَقد كَان السلف يَتحرَّون المال الحَلال للشفاء، فيجَعلونَه طعَامَهم وشَرابهم!

يَا قَوم، لولا الذنوب، مَا فَرَّت سَحابَتنا، ولا ابتُلينا بإجدابٍ وإعسار. ثُمَّ تَنبَّهوا، (ما أعطى اللهُ عبدًا مُكنةً، إلا بعدَ مِحنة)! هَذا العُمر مُكتظٌّ بالنِّعَم، والابتلاء وربي بشارة التَّمكين! (وكَم من مَغمُومٍ غَمُّهُ نجاتهُ وهو لا يدري).

رَدِّد اسمَ الشافي، وَمسَّ بها وجَعك، يجيءُ مُعافى غَدُكَ، ولا يَنتهي أمَدك، بَل تَكونُ لَك العاقبةُ تَمكِينًا!

الرفيق

قال الشَّيخ: هو الرَّفيق بنا، ﴿يُدبِّر الأَمْر﴾، آيةٌ إن سكَنتْ قلبَكَ، أسكنته!

قال التلميذ: إنْ قلتُ يَا الله، أطلَّ كُل كلِّي على مَدى إحسانِك، يا مَن خَفِيَ عن أبصارنا، رأيناك في كُلِّ فعلٍ مُحسِنًا، نجواي لكَ، وسِرِّي بين يديك، أُناديكَ إيَّاكَ إيَّاكَ ولا شَيء سِواك!

قال الشَّيخ: أنتَ الرَّفيق في الحِلِّ والتَّرحَال، وإذا افتقر العبدُ إلى الله، انفتحَ له الطريق، ومَن صَدق توكُّله على الله في حصول شيءٍ، نالَه! وهو الرَّفيق في أوجاعنا، تدعوهُ، فتسمعُ نبض الإجابة في راحتيك، فتشبَّث بالدعاء ولا تَهن، إنَّ أدقَّ خيطٍ مِن خُيوط توسُّلنا، هو أغلظُ حبلٍ مِن حِبال نجَاتِنا، فَزِد في الدعاءِ، يُنجيك مما لا تَرى مِن لظَى الأكدار!

قال التلميذ: أنت الرفيق الحنان الكريم، فاملأْ صَحني بخبزِ العافية، وأسكِنِّي العافية!

قال الشَّيخ: هو الرفيق، يحب الرفق ويعطي عليه، والرفق يصنعُ الفَرق، ويظَل التيسير بأمرك حتى يتَّسق، الودود يحب الرفق.

يا بني، الودُّ منه يبقيك في عافية التيسير! هو الرَّفيق الرَّحيم.

يا بني، ليلٌ يسري، وقَدرٌ يجري، وقلبُ المؤمن حِمى الله، فيصرف عنه ما يدنِّسه، وهو لا يَدري، فيَا ويحَ قلبٍ ما ذاقَ عِرفانَك!

قال التلميذ: تأخَّرتُ عن الوصل، ولم أصِل!

قال الشَّيخ: هو الرفيق يمدُّ يده بحبلِ الودِّ، فاعبُر به إليه، وقُل: يا رب، افتح بَابَ الرضا كيْ تطيبَ الحياة، إن آنستَ في قلبكَ نورًا، فارفع راحتيكَ فتلك آيةُ الوصل!

قال التلميذ: يا رب، يأسِر عيني زَهو المتاع، أعنِّي كَي أعبُر إليك!

قال الشَّيخ: يا بني، إنَّ الله إذا كلَّفَ أعَان، هو الرَّفيق في الفِتَن، وإذا أرادَ بك خَيرًا، ألهمَك الاستعانة!

يا بني، إذا وقَعت الفِتَن، فلا تخضْ فيما يخوضُ فيه الخائِضُون!

قال التلميذ: كيفَ فُتِنُوا؟

قال الشَّيخ: لِكُلِّ قلبٍ فِتنة، وقَد رأينَا مَن باعَ دينَه بدِينار، وضَاع في تِيه الغَنائِم!

يا بني، مَن اشتغلَ بالدِّين لَنفسه، خَذلناه، ومن اشتغَلَ بالدِّين لنَا، رفَعناه، ومَنْ عَزَّ عليه دينه، تورَّعَ، ومَنْ هَانَ عَليه دينُه، تَبرَّع! فَقُل: اللهُمَّ إذا أطلَّتْ عَتمة الفِتن، فاجعلني لدَسائِس شَيطانها شِهابها!

قال التلميذ: اللهُمَّ أقِمْ قلبي على ما يُرضيك!

قال الشَّيخ: أشرَفُ الرِّباط، أنْ تُرابط على ثَغر قلبِك، فلا يؤتى مَقامك منه!

يا بني، التَّنازل في الفِتَن، لا يَدعَك حتى تَنتكِس!

قال التلميذ: أيُّ الفِتنة أشَد؟

قال الشَّيخ: أن يُعرَض على الإنسان الخير والشَّر، ولا يَدري أيُّهما يَتبَع! فقُل: يا رب ذَكِّرنا بِك قبلَ هُجوم خَطراتها، واحمِلنا على النَّجاة منها ومِن طَرائقها! كُن ممَّن جَعلوا الشَّيطَان يَحيا في مَخاضِ اليَأس!

قال التلميذ: اللهُمَّ إنْ لمْ يقَع عمَلي مِن قَبولك مَوقعًا، فاستُر ما ردَدتَ!

قال الشَّيخ: اللهُمَّ أنتَ الرَّفيق في الحيَاةِ وعند الموت، فارأفْ بنا عند الشَّدائِد ونُزولها، وأرِحنا مِن هُموم الدُّنيا وغُمومها، بالرَّوح والرَّيحان إلى الجنَّة ونَعميها، واجعلنا عند الموت حسنةً تفوح ثباتًا وسيرة!

قال التلميذ: عَفوكَ، لستُ أرى مأوى يُواري خَطيئتي!

قال الشَّيخ: يا بني، حسنةٌ حديثةٌ لِسَيِّئةٍ قَديمة، ثُمَّ قُل: نسألك التوبة ودَوامها، ونعوذُ بك مِن المعصية وأسبابها!

قال التلميذ: اللهُمَّ إنَّه غَشِيَنا مِن الهَمِّ ما غَشِيَنا، يا رب، يرحَلُ سُؤلنا خِماصًا، فلا تَردَّه علينا إلا بِطانًا، يا رب، عالِقٌ عَبدك في يَبس يَومِه، ارفق بنا ولا تحملنا ما لا نطيق.

قال الشَّيخ: واللهِ لولا مَصائب الدُّنيا، لوردنَا الآخِرةَ مَفاليس، فقُل: يا رب، أذهِب اليَبس وأذهِب البَأس، وبالدعاء نواري سَوءة البُؤس!

يا بني، إذا زادَ الجُرح وَسِعَ، آنس في دُجَى القيامِ أمنًا!

قال التلميذ: اللهُمَّ الدعاءِ الذي لَزِمَ المآقي، فأحرَق، وكَربٌ تربَّص بالأعينِ، فأرَّق! أنت الرفيق فارفق.

قال الشَّيخ: إنْ سَالَ في قلبك ليلُ الغَسق، تعوَّذ منه بِرَبِّ الفَلَق، وَردِّد: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾! إنْ كَانَ معكَ، فمَا كَان هُناكَ، بِقُدرته صَار هُنا!

المعطي

سَلامٌ سَلامٌ سَلامٌ، فَاشْدُدْ ظُهور السِّهام، واصطَدْ بالدُّعاء المنى!

قال التلميذ: (إني أتيتك والدموع تدلُّني.. فخُذني ببابك بالتَّلهُّف سائلًا).

يا رب، عجِّل لنا ما لا نحتملُ أن يؤجَّل!

قال الشَّيخ: بُحْ لله، واجعلْ حديث السر، إعلانًا، قُل: يا رب، أذهِب الغَمَّ، فصَدري صدر ذي النُّون!

يا راكبًا لا تَنِ، واطوِ على متْن الدعاء، يا مَن إذا شَاء ﴿كن﴾، قال للشيء فكان ما شَاء، فاسأل الله الليلة ما تشاء من أقدارك!

يَا بُنَي، والله لو اطَّلعتَ على الأقدار قبل الدعاء، لملئتَ رُعبًا، فاعتكف على الدعاء بالأسماء الحسنى، واكتُب بالدعاء ما تُريد، ثم التفتْ بنيتك إلى الدنيا، وقُل لها: ما أنتِ إلا هباء منثور.

يَا بُني، هل ثَمَّ فقرٌ إذا صارت العطَايا ميزابًا تنهله؟! هل ثَمَّ جَدبٌ، إذا أجرى الله في كفَّيك جَدوله؟! هل ثَمَّ يُتمٌ، إذا قال الله: عبدي؛ وأنا أكفُله؟! هل ثَمَّ جُوعٌ، إذا الله وهبَ السنابل قَمحه؟! هل ثَمَّ نقْصٌ، إذا الله يسَّر السَّتر وأسبَله؟! هل ثَمَّ بؤسٌ، إذا الله أعطى الثوب ومغْزَله؟! وهل ثَمَّ رفعة، إذا هَوى العبد مِن أعلى منازله؟! وهل ثَمَّ حَرْثٌ، إذا منعَ الله عن العبد مِعولَه؟! هَل ثَمَّ قَحْطٌ، إذا

سكبَ الله الغيث وأنزله؟! (لا بَاب للفَقر، إذا الله أغلقَه، فاجعل اللهَ أوَّلَ النَّبض وآخره)، وَقُل: اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ!

قال تلميذ: يا رب، هَأنَذا ألقي إليكَ الحوائج، ولن أبرَح الأعتاب، حتى أُمْنَحَ!

قال الشَّيخ: يَا بُني، والله إن أوثقَ اليَقين، في أَكفِّ المصَلين، ومَن أسلَم له القِياد، ساقَ له المنَن، ودفعَ عنه المحن! سبحانه إذا استخلصكَ لنفسه، أخذ وأعطى بِيدك، وجعلكَ محلًّا للرضا، وليسَ محلًّا للمَنع! لذا، يا بني، إذا أردتَ وُرود المواهب عليك، فصَحِّح الفاقَة لديك، ترَ الإجابة تَشُدُّ الرِّحال إليكَ أسبابُها، وترَ المسافةَ للأمنيات، مطوية أسفارها! وكرائم الحاجات، تُطلَب في كَرائم الأحوال، فهيِّئ للسُؤال حالًا، وَقُل: اللهم اغفر ذنبًا منعَ العَطاء، وكشفَ الغِطاء، ورَدَّ النَّعماء!

يا بني، آثر بِعَملك مَعادك، ولا تدع لِشهوتِك، زِمامك، واحبِس هواكَ عما يمنع عنكَ العطاء، وأطلِقه في المكارم! ولو ألقى العبد الزِّمام لربِّه، لوطئتْ به راحلته مُنتهى دُعائه!

قال تلميذ: يا رب، (هل ذات ألواحٍ تَحملنا ولا عاصِم اليومَ، والطوفان يقترب)؟!

قال الشَّيخ: نعَم، قُل: اللهم إنْ علَتِ الزَّفرة ولظَاها، وبلغتِ الكرُوب مَداها، ودارتْ بنا المحنة في رحاها، فأسألكَ إجابةً كَالشمس فَجْرُها وضُحاها!

يَا بُني، اقرأ على وَجعك الدَّامي: ﴿ولَسوفَ يُعطيكَ ربُّك فترَضَى﴾. اقرأ على اللَّحظات الدَّاكنة: ﴿ولسَوفَ يُعطيك ربُّك فتَرضَى﴾! قل: يا مُعطي بلا سَبب، أعطِنا فرحةَ ﴿وآتاكُم مِن كُل مَا سَألتُموه﴾!

والله يعطي، فما أعظَم مَا يهب! ولو منعَ، لرأيت مفاتيحَ قَارون تُستَلب، لو منعَ، لجفَّت الأقلامُ ولا سطر ينكتَب، لو منعَ، ما جفَّ الدمعُ وظلَّ القلب يَنتحب! مكسورةٌ كُل الجرار، ولو (مُلِئت بِشهد المنى)! تتَحاشى الطرق خطواتك، لو مُنعتْ عنك نهاياتها، وتصدأُ المفاتيح، لو شاء الله إغلاق أبوابها! فإن أعطى، فلا تسأل عن المنَح، فقد جاءت بلا سبب! فاسأله أقدار العافية، لا يمنع المرض سواه، وأقدار الرزق، لا يردُّ الفقر سواه، وأقدار اليُسر، لا يَكُفُّ العُسر سواه، وأقدار الفَرح، لا يبدِّل الحُزن سواه!

قُل: اللهم أعطنا ولا تحرمنا! هو المعطي، فإن جَمعتَ ليالي السحر والأسماء، فقد أويتَ إلى ركنٍ شَديد!

يا بُني، إن جمعَ الله لك الأسماء في أوقات الإجابة، فانتظر دهشة وانبهارًا!

يا بُني، ألفُ هَمٍّ، يكفيه اسم، ومن حازها، خاض بها البِحار، ورأيت فَيضها أنهارًا!

ردد الاسم، واعقد على القلب حبال الأمَل، واحلُل بالله كل العُقد، قُل له: أنت المعطي، أَبغي النجاة من القلّة، همُّها ولأْواها!

يَا بُني، شيِّع في سجودك جنازة الهمِّ. واللهِ، لو كانت كف الدُجى فوقَك، فقُل: ليس فوقَ يد الله يد!

يَا بُني، تَمور الرجفة الصاخبة، فوَّارةً باللَّظى! لكن دمعة بالدعاء لاهبة، تُطفئ كل هذا الحريق، فلا تجعَل دُعاءك من عينٍ ناضبة، ولا تخف، حاشا لكفِّ الحزن أن تطوي عُمرك!

يَا بُنَي، اطلُب أقدارك بالدعاء، حاشَا أنْ يُنقضَ لك ما غَزلَتْه أقدارُ الله العليا!

الحَييُّ السِتير

قال الشَّيخ: إن لم تَصُم الخَطيئة في العُروق، تَظلُّ الروح مُفطِرة، يضيقُ أثر الطاعة، ويخنقها القلب إن كان مُعتِمًا. يا مَن قُلت ﴿لوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، فجعلتَ العفوَ له سِترًا، فكان الأجرُ؛ ﴿فأنبَتنا عليه﴾، انفُض عن قُلوبنا ما علِق بها من غَيب الغواية ومما عَلِمت.

قال تلميذ: من أينَ، (مِن أينَ إنْ لم يَرأب اللهُ العُيوب تُرأبُ)؟

قال الشَّيخ: ذاكَ سِتره، أكانت تبلُغ المراكب مراسيها؛ لو نزَع سِتره؟!

قال التلميذ: لا والله ولا أضاءَت الحَسنات في المقابر؛ لو كُشِف ستره!

قال الشَّيخ: فقُل: اللهُم جِئتك بالقليل ممَّا سَلِم من سَعيي وأنت السِّتِّير، فاغزل لي منه يوم القيامة سترًا وكنفًا! اجْعَلني مَستُورًا بسترك، إذا طَفَقَ الناسُ يَخصفون على مَا بَدا مِن حَسراتِهم، ولا تجعَل عُمري مَوطنًا للخَطايا! قَد رأيتَ مَا فِيَّ، وبي، فأسْدِل علَيَّ سِتْرَك الذي لا تخرقه الرِّماحُ، ولا تزيله الرِّياح!

يا أبنائي، غيبُ كُل امرئ في صَدره، واللهُ به عليم، نحن عُراةٌ في سفر الآخرة مع الحَسنات المتعبة، عُراةٌ في رحلةٍ أحوالها مُبهَمة، فاستُرنا يا مولاي بالقَبول، وجنِّبنا فُضوح الدنيا، وفضوح الآخرة، جنِّبنا خَيبة الذَّنب وخيبة الفُضوح! بل يَا رب، جنِّبنا كُل خيرٍ فيه فتنة الفُضوح! سترك يا مولاي غاية المنى، يا جَميل

الصُّحبة، نسألك سِترًا لا تَرفعه الفِتن، وثباتًا لا تَهُزُّه المِحن، وعَزيمة لا يهزُّها الوهن!

يا أبنائي، لولا سترُه؛ ما أحبَّنا أحَد، لذا؛ ترى العارفين بالله لا يَغُرُّهُم المديح، تمتَدُّ في صلواتهم تعويذةُ الخَوف؛ ألا يُرفعَ عنهم السِّتر!

قال تلميذ: سُبحانه سمى نفسه الستِّير وليس الساتر، فترى الاسم يستُر عَوراتنا، يحنو على سَوءاتنا، فلا يُكدِّر صورتنا نقصٌ ولا خَلل!

قال الشَّيخ: الستير، والستير برحمته (يُغيِّر ولا يُعَيِّر)، يَلُمُّ بِستره السرائر، وذنبًا أرخَى فِتنته، ويَجعل الستر أصْلًا، فيُنسي الناس مَا مَضى. واللهُ وحده مَن يعلم، كمْ أوصَدنا الظلام على الخُطى!

ولولا سِترُ الله، لاحتَشدت السرائر على الملامح، وفاحَت روائحنا!

يا رَحمة الله إذ يَسترنا؛ فنَنتشي وهمًا!

يا رحمة الله ما أشَدَّ جَهلنا؛ إذ ننسى أنه لولا فضله ما أتتْ الحَسنة، ولولا سِترُه؛ ما دامت الطاعة!

الله ستِّير حَيِيٌّ يحب الستر، فتَقرَّبوا إليه بالستر!

قال تلميذ: ما فهمتُ يا سيدي!

قال الشَّيخ: يَا ولَدي، كان في المدينة قومٌ لا عُيوب لهم، تكلَّموا في عيوب الناس، فصارَت لهم عُيوب! وكان قومٌ لهم عيوبٌ سكتوا عن عُيوب الناس، فنَسي

الناسُ عيوبهم! لذا قال النَّخعيُّ: (إنِّي لأرى الشيء أكرههُ، فما يَمنعني أنْ أتكلَّم في أهله إلا مخافةَ أن أُبتلى بمثله)!

قال تلميذ: كيف نبلُغ هذا الأدَب؟

قال الشَّيخ: إنَّ دوام المزاولات تعطي الكَمالات، و(إذا صَحَّ للعبدِّ بالله التعلُّق، تمَّ له بكمالاتِ الله التَخلُّق)!

لو ابتُليت بمعصيةٍ، فاسترُها بالتوبة ولا تجاهر، فإنَّ السيئة لا تكون في عَلانيتها؛ إلا وقد سبقَتها زلاتٌ في خَلواتها! وحَسْبُ الخَفايا أنَّها تَطلب علانيتها يوم القيامة، فيكشفُ الله منها ما كان مَستورًا! لِذا، لا تحقرنَّ الصغائر إذا طَرَقتْ بابك، وَوالله لو أرادَ اللهُ بعبدٍ فضيحةً، أخرجَه من تحتِ كَنفه، فتَبدو للناس عورات ما كانوا يَعلمونها!

واستر حَسنتك، وتصَدَّق دون ضَجيج المنِّ والأذى، واحفظْ وديعَة السِّر بينكَ وبين الله، ولا تُعرِّضها للرِّياء، فإنَّ التحدُّث بها يَهتك سترها!

يَا وَلدي، ما القَبولُ إلا خَبيئة الآخرة! تَحمل الملائكةُ في الألواح الحَسنات الصامتة، تلك التي يُغرَف لها الأجر غرفًا.

ألا تَشتهي صدقةً، يُجمع لك بها أطراف الأجر فتَثقُل بها الكَفَّة؟!

يَا ولدي، والله إنَّ خَفق النِّعال خلفَ قلوب الرِّجال في المجالس، يهتَزُّ له الإخلاص، فحاذر شهرة الحسنات، ثُمَّ استُروا أوجاعَكم، فزَكريًّا في وصْفِ القُرآن، لَم يَزِد على أن ﴿نادَى ربَّه نداءً خَفيًّا﴾، همَس فيه بأرَقٍ؛ خَبَّأه في كلِّ سنوات

عُمره، ﴿وكانَت امْرَأتي عاقِرًا﴾! لقدْ كان الهَمْس ليلًا، في مكانٍ قَصيٍّ عن سَمعِ النَّاس، وفُضول النَّاس! همَس بِحاجَتِه الفِطرية، لِمن بيدهِ مَقاليد الأمر، ومفاتيح الفَرَج! ﴿فَهبْ لي من لدُنك وليًّا﴾، همَس بها لله وحده، دون أن يَهتِك سِتر ما بينه وبين زوجِه! بلْ قدَّم في أول الدُّعاء ضَعفه، فهو الذي ﴿وَهَن العَظم﴾ منه ﴿واشتَعل الرَّأسُ شَيبًا﴾، كأنَّما يعتَذر عن زوجته، ويَحمل العِبء عنها! ثم ها هو ذا يَصف ضَعفه، ويسأل ربَّه مَخرجًا، لا ينقض العَلاقة العَتيقة!

سَتَر النَّقص، فأشرقتْ له الأُمنية، وأتمَّ اللهُ له الأمرَ على أجمَلِ ما يكون، إذْ جاءه يَحيى ﴿بَرًّا بوالِديه﴾! كلاهما، فقدْ استحقَّ الزَّوجان برَّ الولد، لبرٍّ خفيٍّ بينَهما! وبثَّ الشَّكوى لربِّه، فجاءَته البُشرى؛ ﴿لَم نَجعل له مِن قبلُ سَميًّا﴾! إذْ لا يَليق بموقِفه الذي ليس له مثيل، إلا طفل ليسَ له مَثيل!

الستر سنُن الأتقياء، وعَادات الأبرار!

قال تلميذ: مَا أرقَى هذا المقام!

قال الشَّيخ: يَا ولَدي، إنْ لم تَستطع أنْ تُنافس الصالحين في أعمَالهم، فلا أقل إن تنافِس المذنبين في استغفارِهم. الزم الدعاء: يَا ستير، أتوسَّل إليكَ ألا يَبيت قَلبي في العَراء، ألا تبيت صَحائفي دون سِتْرك! قُل، يا ستير، سَترك لو هُزَّت الصحائف، وانسكَب المخبوءُ فيها!

قال تلميذ: يا ستير، هَبني سترًا فوق الأرض وتحت الأرض ويوم العرض لا فضيحةَ بعدَه!

قال الشَّيخ: يَا بُني، إنَّ للاسم بَركةً تَستدعي بَركَات خفية، فاشْهد ميثاق الفَضْل، إذ يَعقِد اللهُ لِعُمْرك به مَواهِبَ جَليَّة!

الكافي

مَدَّ الشيخ بصَره فلمْ يرَ إلا جُموعًا تَنادت لأجلِ سرٍّ خَفِيٍّ في مجالس الأسماء الحسنى، فتَلا الشيخُ بصوتٍ نديٍّ: ﴿أليسَ اللهُ بكافٍ عَبده﴾، ثُم قال: تعبُر بك الآية إلى الغَيب، وتَكفيك كُل هَمٍّ! هذه الآية فاتحةُ الليلة، فهَل يرى قلبك المعنى؟ هُو الكافي لعبده، واللهِ ما يومًا أراد بك الرَّدَى، فقُل: يا كافي، وَدَعِ الظَّن لمن يشاء.

تحسَّس جُرحك وقُل: يا كافي، اكفِني ما أهمَّني بما شئتَ وكيفَما شِئت، مَا قالها مسلمٌ موقنًا إلا ورزَقه الله المراد وما فوقَ المراد.

يا أبنائي، هذا الدعاء طَوق نجاةٍ، كُلَّما أوشَكتَ على الغَرق! الكَافي، لكُلِّ الجفَاف الذي أصَاب انتظارك. الكَافي، رَدِّدها ثُمَّ ألقِ السَّمع لما هُو آتٍ.

الكَافي لانهيارِ القلب، رغمَ كُل الاحتمالات الباهتة. قُل: مِنِّي الدعاء ومِنك الكافُ والنُّون، مِنِّي الرَحيلُ إلى الكافي بملء قلبي، ومِن الله ما وعَد. كُل النِّداءات أحرُف التِّيه؛ إنْ لمْ تكُن يا الله يا كافي.

يَا أبنائي، دون الله لا شيء يُغترف!

قال تلميذ: لله كُل الكَلام الذي نخشَى بثَّه، أنتَ يا رب من يُبدئ الأمَلَ ومن يُعيد.

قال تلميذ: كيف هي كفايته؟

قال الشَّيخ: اللهُ يرى العَواقب ونحن لا نَرى، وأمرُه من حيثُ نَدري ولا نَدري. إنْ تولاك بالكِفاية سخَّرَ الكَونَ لك سِياجًا، فإن قُلتَ يا كَافي؛ فُرجتَ، حتى كأنَّ الغَمَّ كانَ عتبَةَ نعمةٍ مخبوءة، سبحانه، شديد القُوى كَافٍ لذي القَهر قَهَّار.

يا أبنائي، كان قَتادة يقول: (وإنِّي لأعلمُ من إحسانِ الله إليَّ ما يُوجِب حُسن ظنِّي).

قال تلميذ: اللهم اكفنا كل ما أهمنا.

قال الشَّيخ: للكفاية شَرط، (مَن كان همُّه إرضاءَ الله، كفَاه الله كُل هَم). لذا تولَّ الجَوارح، واللهُ يتولَّى لك الأمر، واعلم أنه (لا تَصحُّ لَك عُبودية ما دامَ لِغير الله في قَلبك بَقيَّة).

قال التلميذ: اللهم باسمك الكافي اكفنا كفاية تليق بك.

قال الشَّيخ: يا بني، لِتُحدِث شرخًا في جدار الهم، تحتاج إلى الكَثير من معَاول الدعاء بالأسماء الحسنى.

قال التلميذ: فإنْ أردتُ هدم الجدار كلِّه؟!

قال الشَّيخ: لا بُدَّ أنْ تبلغ مقام (وكنتُ يَده التي يبطشُ بها)، وتلك سبيلها: (لا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه). والنَّافلة، كُل مَا زاد عمَّا افترَضه عليك، كأن ربك يجعلُ طوَق النَّجاةِ مِن معصَمك، من محرابك، من سعيك وحدك، حينها سترى (كُل ذرةٍ فيك محميَّة).

قال التلميذ: تولنا يا ولي الصالحين، واكفنا ما أنت به عليم.

قال الشَّيخ: كُلما أوجست خيفة، بَدِّدها بعُبودية، وقُل: أيتها المخَاوف، اللهُ وحده هو الكَافي.

ردِّد على قلبك إن اضطرب بالهموم: ﴿فسَيكفِيكَهم اللهُ﴾. ووالله (لو صدَقناه، لعجَّل لنا عواقِب صدقِنا).

يا أبنائي، افهَموا عَني: أليسَ اللهُ بكافٍ عبده، أتدرون ما المعنى؟ المعنى، إنَّ الذين يحبُّهم الله لا تتوقَّف اختباراتهم؛ لكنَّ الله يَكفيهم السقوط، الذين يحبُّهم الله يكفيهم الانتكاسة، فقل يا كافي، يَخفُّ حِملُكَ حينها، إذا كفَاك الكافي مؤونةَ الطريق، ومشقَّة المسير.

قال التلميذ: كيفَ لنا أنْ نُصلِح ما فسَد من أمر ديننا؟

قال الشَّيخ: اعرِض نفسَك على كتاب الله، ولا يَغُرنَّك مَن رَقَّقوا دينهم بالحِيَل. لا تُرقِّق دينك، فَيرِق سِياجك!

لا يكُن أحَدٌ أطوع لله منك، تتم لَك الكِفاية، ودَعْ عنك مَن دخَل الفسَاد دينهم.

يَا ولَدي، مِن رأسِ العَين يأتي الكَدَر، وإذا صفَت العَين، صفَتْ السواقي، فإنْ كُنت لَه عبدًا؛ كَان لكَ كافيًا. أنِر قلبَك، واللهُ يتولَّى مَن يَقعُد لِهَمِّك بشَهابٍ رَصَدًا. ولما سَألَ أميرُ العراق الحسن البصري عن إنفاذِ مَفسدةٍ أمَرَ بها الخليفة، قال الحسَن: (إنْ تَكُ مَع الله في طاعته، كفَاكَ يَزيد، وإن تَكُن مَع يَزيد على

المعصية، أوكلَك الله إليه). وكُل مَن أرادَ غيرَ وجه الله، أقصَاه الله، ومَا الآخرةُ إلا مَنافي المنقَطِعين، فتنبه! ثق بوعده ﴿أليسَ اللهُ بكافٍ عبدَه﴾، اعتَكِف على إيمانك، لا تمهر الدنيا دِينك، لا تطلُب الدنيا بآخرتك، فإنَّ الله يُعطي الدنيا على نِية الآخرة، فإنْ تَمَّ لكَ ذلك، خُذْ لنفسِك الأمان مِن ربك، ثُمَّ أسْدِل الستور على المخاوف، وَقُل: سَارٍ، أَمُدُّ للكَافي كَفِّي وأُمنيَتي، مِن مَطلع اليَوم حتَى مَغرب العُمْر!

يا كَافي، وحدكَ الكافي، اكْفِ عبدَكَ مَا أهمَّه، بما شِئتَ وكَيفما شِئت!

يا بُنَي، لا يهُمُّ كَم الأماني، إن عُقدت بالكافي! تكون الأماني خيالًا، فإذا سقاهَا الدعاءُ ﴿اهتَزَّتْ وربَتْ وأنبتَت مِن كُل زَوجٍ بهيج﴾. فادعُ، إن تلاوة القلب للدُعاء يَدٌ تَهُزُّ عنْك جذعَ الهُموم هزًّا. وكُلما زادتْ أَقفال الهُموم، اكسِرها بالكَافي، كُل الهُموم، الله يَكفيها، وإنْ أعجزَتك أمنية، فلا تترك تمنيها، فَالله إن شاءَ إليكَ يُدنيها! وما بعدَ الهمُوم، إلا نِعَمٌ مَخبوءة!

يا بني، ادعُ دُعاء مَن يَلمس الإجابة بيده، حتى كأنه يجد بَرْدَها في قَلبِه. (وكُن بالدعاء لَحوحًا، لَحوحًا، فقَد أوشَك السَّهمُ منك أن يُصيب).

يا ولدي، لماذا نتعلم الأسماءَ الحُسنى؟ لأنَّها تُعلِّمنا أنْ نصمد أمامَ اليأس، وأمَام الشتَات، وأمام القَلق. فلا تعتَصم بغير دافع، ولا تمتَنع بغير مانِع، وعند الله خزائن؛ ما ضاقت بمطلب طالب، فلِيسبق قلبك لسانَك في السؤال، والله، تُصَفَّد الأبواب بأقفالها، فلا يفتَحها إلا الدعاء، فلا تيأس وتَذكَّر: (إنَّ البشَائِر قَد يطرُقن أسحارًا).

الملك الدَّيان

جلسَ الشيخُ حاسِرَ الرأسِ، خافِيَ الصوت، مسكونًا بهيبةِ الاسم، فلمَّا تكَلَّمَ كَان صوته مراثي، فقَال:

أناديكَ يا ربي لهفًا للتوبة، وما كنتُ ناسِيًا!

أُناديكَ، عفوَك قبل أنْ تغدو الآخرة لنا منافِيًا! أنت الملك الديان، نجِّنا قبل أن نَرى الأعين كُلَّها بَاكية!

واحسرتاه، إذا سألَ الديان يوم الدين عَن الوَهن في دُروب السعي، عَن جراح الحسنات، عن تَذبذُب النيات، عَن خطوةٍ واقفة، وكان ينبغي أنْ تكون هِجرَة!

واحسرتَاه، إذا سأل الديَّان، وصارت الآخرة سُجونًا، فلا نملكُ يومها أنْ نفدي أغلالَنا، ذاهلين، إذ أرخى الديان ستُورنا!

يَمَمَ الشيخُ بصوته شَطْرَ الآخرة، فكأنَّنا نَرى أحوالَنا، أطْرَقَ الشيخ هيبةً وهو يقول: ومَن يُجيبُ، إذا سأل الديَّان عن أرضِ الشامِ كيفَ تَولَّى رَبيعها؟ وعَمَّن كتبَ الموت لأحلامِ الأسرى في سجون الاحتلال؟ وعَن طَعم الصَّمت في أفواه المعتَقلين ظُلمًا! مَن يُجيبُ الديَّان، إذا سَأل عن أطفال اليَمن؛ صاروا في ضَمير الغَيب، وما غَدا لهم أمَلًا! وإذا سَأل عَن العِراق؛ يَغصُّ بالموت، (والموت فيه أسهَل مَا يُنال)! وعَمَّن خَذلوا الأقصى، واشتَروا صَوت الرِّجال! عَمَّن شيعوا الأُمَّة في أكفانها، وجعلوا الأوطَان لها قَبرًا!

ذاكَ يَومٌ، يُعيد الديَّان فيه ما شَاخ من الدهور، كأنَّها ثَوانٍ، فتَرى البشرية تُلملم مَا فَرط منها، ومَا ثَقُلت به سُطور الصحائف! وتَرى الحُقوق وقد اكتمَلتْ حطَبًا تَنتظر وَقُودها!

فإذا تنفَّس الجَحيم، ويَبِس الناس من الهلَع، وصَار زفيرُ النار ألمًا على ألم، وتأجَّج الخَوف في الأكباد، وغلي الحَشرُ بِصُراخِ الناس إذا عايَنوا مَقاعد آثامهم في النار، وتَغامَس الناس في جَحيم ذُنوبهم!

ذاكَ يَومٌ للمَلِك الديان وحدَه، والموعد مَع الملِك الديان، فإذا سمعتَ صوت الهواء حولك يتأوَّه، ورأيتَ الناسَ تغرق في لُجَّة الذنُوب من شدَّة العرق، وَوُضعت الموازين القِسط ليوم القيامة، حتى يُوزَن إيمان الكلمة، ويُوزن صوابها وخَطؤها، ويُوزَن خيلاء ما فيها، ذاكَ زمَنٌ، يَصحُّ أنْ يُقال فيه: (مَحكمةُ السَّيئة والحسَنة)!

تَرى القيامة مَأهولة بروائح الحَسنات أو السيئات، وما الدار الآخرة حينها إلا صُورة الحَقيقة!

كادتْ دُموع التلاميذ تفِرُّ من ذُعرها، وتحجَّرت المآقي؛ فلا تسمعُ إلا زفَرات القُلوب تجيش!

فقَال تلميذ: يَا سيدي، كأني هناك ألوح عاريًا!

فتنهَّد الشيخُ وقَال: يا بُني، فتفقدْ صحيفتك، ولا تلقَ الله بآثامٍ مركبة، فلا تخلص مِن حساب إلا لتلج في حساب آخَر، حتى كأن يوم الحساب نصبٌ لكَ دون سواك!

هو الديَّان، فلا يمتَدُّ بك ظلامُ المخبوء من الذنُوب، حتى يفجَأك نهار الحِساب!

هو الديَّان، لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرة، والعذابُ يتعَدَّد على تعَدُد الآثام، فليته كَان مَوتًا واحدًا، بَل هو مَوتٌ كثير، بعَدد معاني الذنُوب، فتَنبَّه!

يَا ولَدي، بعضُ الناس يوم الدين صارت النِّعم لهم مَهالك، حتى كأنَّها تتساقط لهم ذنوبًا في صحائفهم، وتبعثُ لهم يوم القيامة عذابًا!

كُل نعمةٍ لا تبلِّغكَ الله؛ نَقمَة، وكُل ذنبٍ يُزرَع في القلب يحتاج سقيًا، الذنُوب تَطلُب جزاءها، وتَستدعي أخواتها، حتى تتداعى الذنُوب علينا، فإذا بها يوم القيامة إصْرنا والأغلال، وليس لنا إلا عَفوُ الله!

قال تلميذٌ من أقصَى المجلس: دُلَّنا على سَبيل النَّجاة!

قال الشَّيخ: النفْس إنْ لم تجتهد في الحسنَات، أهلكَتها الحسرَات، والدفع يا ولدي أسهَل مِن الرَّفع، وكُل هَدمٍ إنَّما يَبدأ بِثُقب! احذَروا المعاصي، فإنَّها تَحرِمُ المغفرة في مواسم الرحمة! وإياكم والتذبذب في الهِجرة إلى الله، فإنَّ المتَذبذب أخو المنقطع، كلاهما لا يَصِل! والمتَّصِل مَن أدرك أنَّ الغياب عن الله طرفة عين؛ خسارةٌ وانقِطاع، ورابطَ على فَرضَي الباطن والظاهِر ما دامت أنفاسُ الحَياة!

إنَّ فَرْضَ الظاهر مُحافظةُ الحُدود، وفَرض الباطِن صلاحُ النِّيات، والديَّان سائلُك عن الباطن والظاهر؛ سَواء بِسواء! واحذَر النوايا الفاسدة، فإنَّ النوايا العجفاءِ لا تَلدُ الخَصْب! وليحافِظ قلبك على الوضوء، فإنَّ الوضوء لا يحافظُ عليه إلا

مُؤمِن! ويَوم القيامة، تجِد السرور في طهارة الصحُف، وخِفَّة الرَقبَة مِن حُقوق العباد! فَقُل: اللهُمَّ هَبْنا صحائفَ بيضاء؛ على أرضٍ عَفْراء!

قال تلميذ: اللهُمَّ عَونَك!

قال الشَّيخ: استعن بالله ولا تصحَب مَن لا يُنهضكَ حاله، ولا يَدلُّك على الله مَقامُه! يا ولدي، صحبة أهل العزيمة نجاة!

قال التلميذ: قَد استطَال شَوك الذنوب، حتى عَاث في قلبي فسادًا، وعُمري مُذنِبٌ؛ تغويه نِداءاتُ الهوَى!

قال الشَّيخ: مَا شغلك عَن اللحاق بالله إلا قَيدك، فتَحَرَّر!

قال تلميذ: والله إنَّا لَنحاول ونَستغفِر!

فَردَّ الشيخ: لا ينتشلُ الحزنَ من عاقِبَتك استغفارٌ بالذنُوب مَثقوب، اعزِم على التَّرك؛ وقُل: عفوكَ يا مَولاي، لَكَم رَعت الجوارح حَول الحِمى، وأوشكتْ أن تقَع فيه! و(طُوبَى لمن ترَك شَهوةً حاضرةً لموعِدٍ خَفيٍّ)!

إنَّ المؤمن بلقاءِ الديان مُتَفرِّد وسط الزِّحام، لَحوحٌ في الدعاء، خَفِيٌّ في العَطاء، قد أهمَّته نفسُه عَن عُيوب النَّاس، والبِرُّ خير حقيبَة العَبد يوم الدين!

قال التلميذ: أعوذ بك مِن مَوطئ قَدمٍ هو عندك زلَل، (نعُوذ بك من عُمْرٍ نتاجه فُتات)!

يَا ولَدي، إنَّ يومًا للمؤمن هو عُمْر، فكيفَ إن كَان يومًا مِن القبول والتوفيق؟! ولقد سمَّى العُلماء الدعاء: باب التوفيق الأعظَم! مَا لَزِمَ أَحدٌ الدعاء

فَخُذِل، مَا لَزِمَ أَحدٌ الدعاء فَحُرِم، مَا لزِمَ أَحدٌ الدعاءِ فشَقِي! فَقُل: يَا مالِك يوم الدين، إياك نعبُد وإيَّاك نَستعينُ: على آخِرَتنا، وصَلاحِنا، وثَباتنا، حتَى نلقَاكَ وأنتَ راضٍ عنَّا! أنت الملك الديان، ارزقنا صلاحًا قبل يوم الحساب.

الخبير

مَن أهمَل نَظر الله في الخَلوات، محَا الله محاسِن ذِكره في الجَلوات! الله الله في الخَلوات، فإنَّ الله بها خَبير.

البواطِن البواطِن، فإنَّ الله بها خبير. اجتَهِدوا في مَحو الخَطايا، فإنَّ ميزان عَدله تَبين فيه الذَرَّة! وللآثام خَواتيم الشؤم، ومَن تقلَّب في الذنوب الباطنة، تَعِب من حيثُ لا يحتسب!

هو العَليم الخَبير، والخَبير؛ مَن يعلم الخفايا الباطنة، وما خصَف العبد عَن أعين الناس مِن عوراته!

خَبير، بكلِّ ما يَهدر في شِعاب النَّفْس ويعتَلج.

خَبير، بما تحتَ أجنحة الأشجار يَختبئ، لا تَضِلُّ عليه في ظُلَم الخَفِيَّات ضالَّة.

خَبير، بمن كانَ سِرُّهُ وعلانيتُهُ سواء!

هو العَليم الخَبير، يَرى الحَدَّ بين الهُدى والهَوى، بين الشُّبهة وخَفِيِّ الشَّهوة، وبيَن زلَّة القَدم وثُبوتها! لا يَخفى عليه ما تحت بَهرجةِ الثياب وما أخفى، ولا تخفى عليه خافية!

قال تلميذٌ شَبَّ المعنى في خَلجات قلبه: عَفْوك من كُل ما مَرَّ في العُمْر، عَفْوك حتى نَصِل إليك!

قال الشَّيخ: (مَن أحَبَّ تصفيةَ الأحوال، فليجتَهد في تَصفية الأعمال)، فإنَّ الله خبيرٌ بمواطن الاصطفاء، ومَن قارَب الفتنة، غادَرته السلَامة، فإياك إياك من المقاربة، فما بعدهَا إلا الزَّلل!

يَا وَلدي، رُبَّ شخصٍ أطلق بصره، فَحُرِم بصيرته وما دَرى. آثَرَ شُبهةً في مطعمه، فأظلَم سِره! هو العَليم الخَبير، بالقابضين على الملح في الجِراح، بالواقفين على الجَمر في خطواتهم! وهو الخَبير، بمَن إذا مسَّته نفحةٌ من البلاء سقَط!

يَا ولَدي، الناس يتساوون وقْت النِّعَم، فإذا نَزَل البلاء تبَاينوا!

قال التلميذ: والله إنَّنا لنتعثَّر في هَمسٍ فاتنة، والله بنا عليمٌ خَبير، وتجري في دَمِنا الفتن، فما تَزيدنا غير تَخسير، وتَستنزفنا أوجاع الدروب؛ مُنذ أن عَرَّش الشيطان في شِعاب التَّعليم والإعلام والبيوت.

تنهد التلميذ ثم قال: كيف تكون إذن يا سيدي السلامة وكُل شيءٍ فينا شُجَّ مِن تَعب؟

قال الشَّيخ: لا تزال بخيرٍ ما لم تُصِبْ كبيرةً تغير عليك قلبك، وتهدم صَالح عمَلك، فاستَعِن على سَيْرك إلى الله بترك مَن شغلَك عَن الله -عزَّ وجَل-. وَوالله، مَا الدابة الجَموح، بِأَحوج إلى اللِّجام الممسك مِن نَفسِك!

يَا ولدي، هَذا زمنٌ: ﴿وقليلٌ مِن الآخرين﴾، فَلَئِن فَكَّ القومُ عُرى الإسلام، فَكُن أنت مَن يغرُزها، وامْضِ لله بجِراح يديك، وقُل لَه: قَد نَزفْت يداي، كَيلا يَفرُطَ نسيجَ دِينك!

قال التلميذ: يا رب، اجعلني كذلك، لكن كيفَ تكون العافية مِن الذَّنب؟

قال الشَّيخ: مَن سرَّه أنْ تَدوم له العافية، فَليتَقِّ اللهَ! والعَافيةُ عَافيةُ الدين، وعافيةُ الحياة مِن هُمومها! واحْذَر من نفار النِّعَم، ومفاجَأة النِّقَم، فذاكَ حُلمٌ عجَّلَ اللهُ انقباضه!

يا ولدي، كَم من شخصٍ زلَّت قدمه، فما ارتفَعت بعدها، وإنَّما يبسُط الله في العافية لمن حَفظها من ذُبولها! واسأل الله الثبات وانظُر إلى تقليب القلوب، فلربما دارت الدائرة، فَصِرت المنقَطِع ووُصِل المقطوع!

قل: ربَّاهُ، هذا الذنبُ يؤلمني، فامحُه من صَحيفتي! رَباه، هَذا الذنبُ يُؤلمني، فاكفِني آثَاره! ربَّاهُ، هَذا الذنبُ يُؤلمني، فَباعِد بيني وبينه، واللهُ عليمٌ خبيرٌ بالصادقين!

إنَّ الصالحين في المؤمنين قليل، والصادقين في الصالحين قليل، والصابرين في الصادقين قليل! (وإنْ صَحَّ منك العَزم، أُرشِدْتَ للسبل).

اجعَل كُل ليلةٍ في عمرك غُرزةً في نُورٍ يُنتَظم!

قال التلميذ: هو العليم الخَبير، فأينَ وُضِع القَبول؟

قال الشَّيخ: وضِع قَبوله في الخَفيَّات من الأعمَال، اقصُد سَبيلًا لا يراك فيه سواه!

يَا ولَدي، أتَقدِر أنْ تجعل عُمرك كلَّه خَبيئة؟ قف مكانك، فأنتَ وما اختَرْتَ لنفسِك!

قال التلميذ: أسمَاءِ الله تُعطي للبصير بصرَه؟

قال الشَّيخ: مَن لازَم التعبُّد بالأسماء، سَرت بَركتها إلى الجَوارح فَهذَّبتها. وَيُوشك البُعدُ أنْ يدنو فتقترِب، فانظُر ما حظك مِن كُل اسم!

قال تلميذٌ تناهَت إليه الكَلمات: لماذا نَتوه عَن الله؟

قال الشَّيخ: مَن وردَ المشرب الأوَّل، رأى سائر المشارب كَدِرة.

يا ولدي، الله أودَع السِّر في مَطَره، فلا تبحث عن الجَواب في غير طَريقه!

يا ولَدي، اتَّخِذ طاعَة الله تجارة، تأتِكَ الأرباحُ بلا بضاعة! ناجِ العليم الخَبير وقُل له: يا رب، أسرفتُ شاكيًا، فقلبي مجروحٌ وأنت تُبصره، أعنِّي لأقطف مِن سُؤلي ما ليس يَنقطف! أصُوم على زادِ الدعاء وأُفطِر، وليسَ لي إلى مُبتغاي مَعبَر! أنتَ السميع، الذي إنْ شئت أمرًا تَقدِر!

يَا رب، حَرفي الدموع، وحزني جَمْرٌ ليسَ يَنطفئ!

يَا رب، دمعي في الأعين خفيٌّ أنتَ تعلَمه!

يا أبنائي، افهَموا عني: (عكفَ محُمَّد بنْ واسِع في الميمنة على الدعاءِ الشديد في قتال المسلمين مَع التُّرك، فلما رآهُ الأمير قال له: أينَ كُنتَ؟ قَال: كُنت آخذُ لك بمجامع الطُّرُق)!

الدعاءِ هو مَن يأخُذ لك بمجامع الأمور كُلِّها! انظُر إلى يقين ابنِ الجوزيِّ، إذا بلَغ السبعين من عمره فَدعَا الله: اللهُم بَلِّغني آمالي من العلم والعَمل، وأَطِل

عُمْري لأبلُغ ما أُحِبُّ من ذلك. فعاش بعد ذلك عشرين عامًا؛ كلَّها في التأليف ومجالِس العِلم!

قُل: اللهُمَّ موطئ قَدَمٍ بينَ الأقدام المزدِحمة على باب الجنَّةِ وهو كَظيظ، مَوطئ قَدَمٍ بين صُفوفِ الرَبَّانيين، وأصلِحنا على مَا عَلمتَ مِنَّا يَا خَبير.

الهادي

قال الشَّيخ: هو الهادي فاستعن بالله وقُل للدروب المبهَمة، قُل للزَّلل في الطرقات المظلمة: ﴿إنَّ معي ربي سَيهدين﴾، ومَن هُديَ اتَّصل!

قال تلميذ: مَا أعظَم ما يُسأَل الله؟

قال الشَّيخ: هِداية الطريق، سل الله دَوام الهُدى، عسى ألا ﴿تَزِلَّ قدَمٌ بعد ثُبوتها﴾، وسَليم القلب يُرزَق فراسةً تهديه إلى ما خفي من الإثم!

قُل: يا هَادي، نَعُوذ بك مِن شَرٍّ يُبصِرنا ولا نُبصِره، ونخوض فيه بعمى القلوب! يَا هَادي، نعوذ بك أنْ يستوي لدينا الحَلال والحَرام، والشبهة والمباح، وألا نرى بينهما حاجزًا وبَرزخًا!

قال التلميذ: أصونُ الدعَاء بِ (آمِين)!

قال الشَّيخ: (مَن فرَّ بدينه مِن الفِتن، سلَّمه الله منها، وإنَّ مَن حَرص على العافية؛ عافَاه الله)!

يَا ولدي، (ثمَّة مرحلةٌ تَلي عزيمة السير قبل بلوغ القَبول؛ لا يقطعها العبد إلا بالثبات، وشدة الالتجاء إلى الله)، وفيها ضَلَّ أكثر الراحلين!

قال تلميذ: يَا سيدي، مَا غاية الفِتن؟

قال الشَّيخ: (إنَّ الفتنة لا تجيءُ تَهدي الناس، ولكن تَجيء تُقارع المؤمن عَن دينه)، وعلى قَدر ما في البواطن تكون الهداية والثبات! اسمَع أبا سُليمان الدَّاراني

يقول: مَا أوتوا مَن فُتِنوا إلا من أنَّ أصْلَ نِيَّاتهم على غشٍّ، فَرجعوا إلى الغشِّ الذي في قلوبهم، واللهُ أكرم مِن أنْ يَمُنَّ على عبدٍ بصِدقٍ، ثُمَّ يَسلبه إيَّاه، إنَّما رجعَ مَن رجَع مِن الطريق قبلَ الوصول، ولو وَصلوا إلى الله ما رجعوا!

فإياك إيَّاك، من كُل عملٍ نبضه رياء، إياكَ مِن كُل تعَبٍ عَرَقه رياء! إيَّاكَ أنْ تَحرِم نِيَّتك بثوابٍ عاجل! وقُل: أعوذُ بالله من محنةٍ تختبئ لي في النهايات، من محنةٍ تكشف العَورات! قُل: (أعوذ بالله مِن قِناع الفضَائل)، فإنَّ الفَضيحة بَعدَه!

يا ولَدي، لا تأمَن من الشيطان أن يغشاك في هُنَيهة مما بَقيت، فَالزَمْ: اهدِنا يا هادي. لا تَتهاون في دينك، فإنَّما يسهُل وداع الطاعة إذا توعَّر الطريق إليها بالمعاصي.

قال تلميذ: هَل يمْلكُ المقيَّد أن يدرأَ الفتنة؟

قال الشَّيخ: أنْ تُسبغ الثبات في وَقت المكاره؛ تلك عبادةُ المغالبة، وتشبَّث بالعلم، فإنَّه سبيل الهُدى! إنَّ الحق لا يَشتبه بالباطل، وإنما يموه على مَن لا عِلم عنده، فإنْ نقصَ العِلم، استقوَت الشُّبهة، ولا يزال العبد بخير ما عَلِم الذي يُفسد عليه عمَله! فَقُل: اللهُمَّ هدايةً تُنير لنا الفُؤاد، حتى نفهم عنك المراد! واستَعن بالهادي في كُلِّ حيرةٍ بلغتْ بكَ: هل أفعَلُ أو لا أفعَل؟! استَعِن بالهادي إن تشابهَت عليك السبُل، وقُل: يَا هادي، اهدِنا لما اختلف علينا، إنكَ أنت الحقُّ المبين!

هَل تَدري أنَ تكرار الاستخارة مِن الإلحَاح في الدعاءِ الذي يحبُّه اللهُ؟ فتأمَّل المعنى!

قال التلميذ: يَا لله، ما أقَل المبايعين في هذا الزمان على الثبات!

قال الشَّيخ: لذا تتبَّع سِيَرَ الصالحين، فإنَّها توقِظ البَصيرة، والنبضُ الحَيُّ لا يحتَاج إلى التنبيه، ومَن هُدي، جعَل الزِّينة كلها من الباقيات الصالحات، ما يفتننا إلا الزينة!

يَا ولَدي، (يُحشَر المرء مع هِمَّته، ولا تَدارُك بعد الفَوت! فكيفَ بك إذا قُمتَ من قبرك وقَد قُرِّبت رواحل النَّجاة لأقوامٍ وتعثَّرت، وأسرعت أقدامُ الصالحين على الصراط وتخبَّطت؟! كيفَ بك إذا نُوديَ عليك: يَا خاطبًا الحُور العين؛ وهو لا يملكُ فِلسًا من عَزيمة؟! فإنْ رأيتَ تثبيطًا من الباطن، فاستَغِث بعَون اللطف، وتنبَّه في الأسحار، لعلك تَركب رَكْبَ الأرباح، وتعلَّق بِقطار المستغفرين، ولو كَان الرِّبح خطوات)!

قال التلميذ: اللهم أنت الهادي، يا رب، جَعلتُ الدعاءِ مَنسأةَ حياتي، أهُشُّ بها على تيه الحياة!

قال الشَّيخ: كُل الهُموم إذا اشتَدَّت، فالفَرج مخبوءٌ في صَلوات السَّحَر! تسيل منك دمعةٌ، فتسمع أذانَ البدء في رُوحك، وتنطلقُ في القلب الإقامَة! وفي جوف الليل، يَرى الموفَّق نُدوب قَلبه!

يَا بُنَي، إنْ لمْ يكُن في قَلبكَ حديث القُرب، لَن تُصافِح! فإنَّ كُل إجابةٍ، هي دُنو من عُلوٍّ، هي كَرامةُ ﴿اسجُد واقتَرب﴾! وإذا أُلهمَ العبدُ رفعَ الدعاء، فَذاكَ السعيدُ من الراشدين!

يَا ولَدي، تَنتهي المسافَات بَيننا وبينَ الله إذا أقبَلنا، إذ الطرُق إلى الله هي لَحَظةُ صدْق!

الحنان المنان

يَا رب، أفضَى بين يديك القلبُ ما أفضى، مُنَّ عليه بالجِوار، عسَى الأحزان تهدأ! أنت الحنَّانُ المنَّان، وإنَّا إلى الله؛ مَا جاد منه وما منَّ، وفَوق دعائنا لله تدبير! فاجعل اللهُم دعاءنا كَادَ؛ بَل آمين، واجعل صلاتنا إسراءً إليك ومِعراجًا! بلِّغنا بها كرامة ﴿وَحَنَانًا مِن لَدُنَّا﴾، تلك رحمةٌ؛ لا يكفُّ غيثها!

تَعسر الأيام؛ فيشعُّ من الآية حَنانها، سُبحانك، ما أضيقَ الدنيا لو كانت الأمنيات كالمستحيل الذي لا يأتي ولا يَصِل! أنت الحنَّان المنَّان، بك تنبثقُ من شُقوق الجراح دهشة الأمَل! أنت الحنَّان المنَّان، و(لا قلَّةَ حين يغدقُ المنَّان)، فمُنَّ علينا مَرَّةً أُخرى!

قال تلميذ: ما معنى الحنَّان المنَّان؟

قال الشَّيخ: الحنَّان، الذي يُقبِلُ على مَن أعرَض عنه. والمنَّان، الذي يبدأُ بالنَّوال قبلَ السُّؤال.

يا بني، (امتنانُ العباد تكدير وتعيير، وامتنان الله إفضالٌ وتَذكير)! فقل: اللهُم ما مننتَ به فأتمه، وما أنعمتَ به فلا تَسلبه، وما سترَته فَلا تَهتكه!

قال تلميذ: أنتَ المنَّان، فمَا لكفِّي تَعافها الأُمنيات؟

قال الشَّيخ: أطلِق يقينك من دوَّامة القَلق، ومن يأوي لعَطاءِ الله لا يأوي لمنغلق! بركات الإجابة، لا يذوقها مُتردِّد، و(يا صاحب الأُمنية، تفقَّد أُسَّ

القَبول، ولَطيف الأسباب)! فإنَّ أيام الشِّدَّة، يرفعها الله بالسوابق الصالحات! يَا حَبيس الفَرج، تفقَّد حَالك!

قال التلميذ: قلبي على باب الغُواية يَزدحم!

قال الشَّيخ: أيَادي أهل الخطيئة خاليةٌ من كُل غنيمة، و(طالبُ السَّعة؛ كيف يغفل عن المعنى)؟ فيا الله، حرِّم اللهُم على جَوارحنا لغةَ العِصيان، وارزُقنا اللهُم غَفلةً عن طَرْق الحَرام، واكتُب أسماءنا في صَحائف الذين ﴿مَا بدلوا تَبديلًا﴾، ونَعوذ بك من الحَشْر تحت راياتِ إبليس! تُريد الحنَّان وأنت مأسورٌ في أسوار العصيان؟! قُل: أنت الحنَّان، أسلمتُ لك قلبي وعُمري، فحررني!

قال التلميذ: بين «اللهُم وآمين»؛ وضعتُ كل ما خفِيَ من حاجاتي، وفي منتصفِ «كُن»، تقفُ يا قدير أَمانينا!

قال الشَّيخ: الله يزيلُ عن المتوسِّل عوائق القَدر، كم مِن مُقيَّدٍ قد جلَّى الله عن عمره أعوامًا من الغَسَق!

تلك الأمَاني البعيدة، يجرُّها اللهُ إليك بالدعاء جرًّا، واللُّطف معقودٌ في معنى المنَّان، فتفقَّد رسائلَ الله إليك!

الدعاء، عِدَّة للشَدائد مَدَّخرة، وحُسن الظنِّ بالله مِن حُسن العَهد بالغَيب!

يا بني، كان الدربُ أبعد ما يكون، فلمَّا قال: ﴿ولقَد مننَّا عليك مَرَّةً أُخرى﴾، انتهى سَفَر البلاء!

هو الحنَّان المنَّان، وكُل ما أرهقَك صار معنى ورائي!

يَا بُني، كلَّما أنهيتَ الدعاء، تذكَّر ما وضَع الله في كفَّيك من شآبيب العَطاءِ! وكم مرة منَّ عليك.

قال التلميذ: اللهُم ابيضَّت أحداقُ القلب من أحزانها، حنانيك بلِّغنا ﴿ولقَد مننَّا عليك مَرَّةً أُخرى﴾.

قال الشَّيخ: يا بُنَي، قُل: اللهُم أسألك صَوتًا مَسموعًا، ودعَوةً مرفوعة! إنَّ طُرُق القضاءِ للحوائج، على الله تدبيرها، وإذا استجابَ الله طَرق الرِّزقُ عليكَ الباب! واعلم أنه (ليس مع الاستغفار للفَرج انقطاع)، فإنْ مسَّك طائفُ إبليس باليأس، فالقَطع القَطع للوسواس، واعلم أنَّ اليقين للقلب مكسَب!

قال التلميذ: كيفَ أستوهِبُ عطاياهُ تِباعًا؟

فقال الشيخ: لازِم الرِّفق، فالله يُعطي على الرِّفق ما لا يُعطي على ما سِوَاه! هو الحنَّان، عامِله بصفاته، فإنَّ الله له وهائب يمنحها لمن دنَا منه، لمن دنا من صفاته! فإذا منَّ بمنته عليك، فتأدَّب مع الخَلق بقوله: ﴿ولا تَمنُن تَستكثِر﴾!

يَا بُني، لا خيرَ في المعروف إذا أُحصيَ! مَا ضَاع إحسانٌ عند الحَنَّانِ سُدى، تلك الذَّخائِر عند الله ودائِع! وتعلَّم كيف (تتلقَّى نِعَم الله بامتنان، يكُن حصادُك وَفيرًا)! هو المنَّان، والموعود مَزيد المنى، ﴿وعِند اللهِ مغَانم كَثيرة﴾! واذكُر منَّته عليكَ بالإيمان، ﴿كذلك كنُتم مِن قبل فمنَّ الله عَليكُم﴾.

قل: يا رب، نحنُ المنتَهون إليكَ قَريبًا، وأنت الحَنَّان، فسلِّمنا مِن قِطَع الفتن المظلمة، واجعَلنا ممَّن لمْ يَغيبوا حال الرخَاء فلم يَخيبوا حَال الاضطرار!

يَا ولَدي، رَهقُ العُقوبة لمن استلذُّوا بالمعاصي، و(مَعاصي السَّعة، ليس لها إلا مضايقُ الجَزاء)! الخائضون في الحَرام تسوَّروا الحُدود، فما سَلمت عواقبهم، خَسروا الحنَّان المنَّان!

فاعلَم أنَّه إنْ كان لله زَرعك، ولله ثمَرك، ولله حَصادك، أقامَك في الأواخر بمقام مَن قامَ له في الأوائل!

والعبد إذا لزِم الفَرائِض، وحَاذرَ الكبائر، وانتصبتْ أنفاسُه لله قيامًا، فَلا تنحني العَزيمة لسواه؛ أُفيضَ عليه من الخير والتَّثبيت مَا لا يخطُر ببال! وإذا اختصَّ الله العَبد لمواهبه، واستخلصه لضيافته، غمَره بالتوفيقِ والغيث، فأدرِك معنى المنَّان!

قال التلميذ: اللهُم مَسَّنا العَدم، وأنت الحنَّان المنَّان!

قال الشَّيخ: اللهُم لا خَرائب في العُمر، إن رزَقتنا ضِفاف لُطفك!

يَا وَلدي، أسماءُ الله عَيشٌ ومُمارسة، والتجرِبةُ تُذيقك المعنى، وكُل اسمٍ إذا ذُكر على العُمر باركَه!

قال التلميذ: عالِقٌ يا رب بين ضَعفي وبينَ شوقي، (فتولَّ اللهُم سُقيا قلبي)!

قال الشَّيخ: الشوقُ برهانه المحراب، وعلى المحروم جَرُّ الذُّيول!

يَا بُني، (إنَّ الماء إنْ أزمنَ في العين ولمْ يُنفَق دمعًا صار للقلبِ حِجابًا)، فاغتَنِم الدمعةَ في الدعاء إذا سالت لله، والنبعُ مَا سالَ لولا كثرة الدَّفقِ، واغتَنِم الفتح في الدعاء، وأوغل في الطلب، فتلك أزمَانٌ استأثرَ الله بأهلها!

يَا بُنَي، ألقِ السمع من القلب، فإنَّ (نقاءَ التَلقِّي يُبلِّغك لطائف التَجلِّي)! خَلِّ شَواغلك، خَلِّ آثامَك، واذكُر: (ستحَزنُ في صبَاحِ العيد كُلُ عزيمةٍ كَلَّت)!

قَد قارَب السِّباق على الانتهاء، وأهلُ التوفيق في نهاياتهم أَشدُّ اجتهادًا مِنهم في بِداياتهم، واللهُ وليُّ لهفةِ العامِلين!

الصَّبور

دَخل الشيخُ فَرَأينا في عَينيه نَجوى الأسحار، فقالَ بصوتٍ يذوبُ شوقًا: إذا وجدتَ ريحَ الجنَّة، وفُتحتْ لكَ أبواب المنَّة، فقُل: هَبَّت رِيحُ المواهب، وبدأتْ ريحُ العطايا، وبيد الله المختَتم!

وإنْ رأيتَ بصيصَ الإجابةِ ولَج، فقل: (يا رب يا رب، بَرد الفَرج)، بدِّد به سَطوة اليَأس. وإذا تمَّ القَبول، حصلَ الإقبال، ومَن سارَع، كَان أسرعُ إلى الخزائن يَدًا!

بِيده الملك، وهو مَن قَال لنا: ﴿ألا تخَافوا﴾، ﴿ولا تَأسَوا﴾، ﴿ولا تهِنوا﴾!

يَا أبنائي، إنَّ الدعاء يُحرِّك الأقدار، فألِحوا!

قال تلميذ: إنَّ الوُعود طال انتِظارها!

قال الشَّيخ: يَا بُنَي، صَوتك يفيضُ قَهرًا، أمَا علمتَ أنَّ ودائع الدعاء مَطويَّة حتى تجيء أوقاتها،

فلا يَنقضُ اليأس جدار صَبْرِك!

هو الصَّبُور، لا يعجَلُ لِعَجلتنا! هو الصَّبور، يُحبُّ مَن صبَروا! هو الصَّبور، فناجِه بالاسم، قُل له: أنا عبدُك، فإنْ تثاقلَت الأيام وما في مَغزلي خيطُ فَرَج، فاشهَدي لي يا أيامي ﴿إنَّا وَجدْنَاهُ صَابِرًا﴾!

أنا عبدُك، فإنْ تلثَّمتُ بالصبر رغمَ انفراط الآه، فاشهَد لي يا وجعي بين يدي الله ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾! وإنْ التهمَ الألم ما نهشَه المرض في الجَسد، فاشهدي لي يا أنَّاتي بين يَدي الله ﴿إنَّا وَجدناهُ صابرًا﴾، ويا كُل الأحزان والهمُوم والآلام، اشهَدي لي بين يَدي الله ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾، عسَاني أبلُغ مقام ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾!

قال التلميذ: اللهم بلغنا ﴿نعْمَ العَبد﴾، يا سيّدي، بماذا يَثبُت القلبُ فَلا يَجْزع؟

قال الشَّيخ: اذكُر وَعْد نَبيِّك، اصبرُوا حتَى تَلقوني على الحوض، فإذا شبَّت النار في الخَلجات، واحتَشدت لَك الفِتن، فَقُل: مَوعِدنا الحَوض! فإنْ لَقِيته، فَقُل لَه: يا رسُول الله، كانَ (الصَّبر أقصى ما لَدي)!

يَا بُنَي، أوَّلُكَ هُنا، وآخركَ عند الحَوض!

قال التلميذ: مُشتاقٌ، سآتي أرتقُ بينَ يديكَ حُزنِي، وأَقُولُ: أَوَّاهُ أنا ذا آراكَ، وقَد مضَى زمَنُ التمَنِّي، ما أضعتُ الخَطوَ يا رَسُول الله!

قال الشَّيخ: فإنْ مَسَّ كفُّه كَفَّك، فَقُل: هذا مَآلُ ﴿إنِّي جزَيتهم بما صَبروا﴾، فَيَا جَلالة الوَعدِ!

ثُمَّ تنهَّد الشَّيخُ، وقال: لا يَبلُغ ظِلَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– مَن غارَت خَيله في وَحْل الشَّهوة، لله عبادٌ ﴿مَا وَهنوا﴾، وَهُم في أعالي الجُرحِ، و﴿مَا ضَعفوا﴾، وَهُم يَحمِلُون ثِقال الدمعِ، ﴿وَما استكَانوا﴾، ومَا أفلَوا ﴿والله يُحبُّ الصابرين﴾! ولا

يُحبُّ مَن حمَلوا المصاحِفَ وَهنًا على وَهْن! سبحانه، لو صبروا له لعجَّل لهم، إن الله (لَمْ يُبْطِئْ عَلَى الْخَلْقِ مَا وُعِدُوا، وَإِنَّمَا تَخَلَّفُوا عَمَّا أُمِرُوا، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِمْ مَا وُعِدُوا)!

قال تلميذ: يَا الله، هَؤلاء فينا!

قال الشَّيخ: يَا بُني، كَم مِن عبدٍ شارَف مَركبه ساحِل النَّجاة، فلمَّا هَمَّ أنْ يَلِج، لَعِبَ به الموج فَغرِق! لا توقيع بالأمان، حتى يقول ملَك الموت: «اخرُجي إلى روحٍ وريحان، وربٍّ راضٍ غير غَضبان»! وشَرف الميراث، يكشِفه الله يوم الرَّحيل!

قال التلميذ: يَا وَلِيَّ الإسلام، ثَبِّتني عليه حتَّى أَلقَاك!

قال الشَّيخ: لَقِّنْ قلبك ذاتَ عُسر، ﴿أَنَّ اللهَ يُحِب الصَّابرين﴾! قَومٌ رَكِبوا المشاقَّ لله، فَهيِّئتْ معارج الفِردوس لهم مطَايا، تلك سِهامٌ شَدَّت زِنادها بالله، فبلغَتْ!

يَا بُنَي، ما شَحَّت أَكُفٌّ وَعْدها ﴿وَبشِّر الصابرين﴾، والمعونةُ تأتي من الله، على قَدر النِّيَّة، والأَجرُ على قَدر الجهد!

والحَذرَ الحذرَ على مَا أنت عليه، وما أنت بِسَبيله، واسألوا الله العافيةَ، وأكثروا مِن قَول: لا حول ولا قوة إلا بالله، (إنَّ مِن ورائكم أيامًا، الصابرُ فيها له أجْر خمسين شَهيدًا)!

يَا بُنَي، إنَّ جَمْرتَك المتَّقِدة، هي الثَّمن، فلا تَكُن ممَّن عُجِّل إليه على وَهن! أرادَك الله هلالًا للأُمَّة، فلَا تَكُن عِرجونًا قديمًا، كُن مِن القَليل، ممن أقَام مقامَ السَّبق، وقد نكَص القَوم، وَقُل: (حبَّذا الجنَّة واقتِرابها)!

يا بني، لله عِبادٌ مِن فَرط يَقينهم، كأنَّهم عاينوا الآخرة، فصبروا وثبَتوا، وثبَّت اللهُ بهم!

قال التلميذ: اللهُمَّ لا تَكره انبعاثنا، فَتثبِّطنا عَن المسير، يا الله، فِتَنٌ مُدبرة وَمُقبِلة، وصبرٌ على اللظى، سُبحانه هو الصبور!

قال الشَّيخ: هو الصَّبور على عباده وقَد عكَفوا على السَّفه، هو الصَّبورُ على مَن جابوا الليل بالوادي، هو الصبورُ على خوار العِجل في الأمَّة، هو الصَّبورُ على مَن نَزعوا عَن الأُمة ثياب الوَحي، فانكشَفتْ لنا السَّوءة، هو الصبورُ على ضَجَّة الدمع في مآقي الأقصَى!

يَا أبنائي، مَا كان للأرامل أن تَتحمَّل دُيون الأُمَّة! والله لقد بَعْثَروا السَّنابل، وأبدَلونا سنينَ في وَهجِ احتراقها!

قال التلميذ: (ضاقَت الأرضُ عَلينا والمسالك، كُلَّما قُلنا نجَونا، ألقتْ الدُّنيا مَزيدًا مِن مَهالك)!

قال الشَّيخ: يا بني، متى تَعِب النَّخيلُ مِن الوقُوف؟! ومَن استَصعَب المشَاقّ، ذاقَ ذلَّة التَّرك!

يَا بُنَيَ، كَم جَاءِ بِشْرٌ بِلَيْل الكَدر! فاسأل الله اللطف في القَدَر، وقَدر الليلُ الأُفُول، والصبحُ مَوعده الوصُول، فَقُل: اللَّهُم هَبْنا قَدَر القَبول، حتى نَثبُت، اللَّهُم إن أتى المخاضُ فلا تجعلنا فيه ضحايا، ولا تجعل مآل الخطى سرابًا.

يا بني، مَن يَتصَبَّر، يُصَبِّره اللهُ حتى يبلغه ﴿إنَّا وَجدناهُ صَابرًا نِعْمَ العَبد إنَّه أوَّاب﴾!

المحيط

قال الشَّيخ: بالدُّعاء ستَنبُت بين كافٍ وَنون، كُل الأُمنياتِ! أنتَ مَكسوٌّ، ولو كُنتَ عاري المنكِبين حافيًا، وحوائجك إذا قالَ لها الإله كُوني، رأيت القَدر سائقها، والأسبابُ مجراها، وبينَ يديكَ مُرساها!

يا بُني، إن الفتحَ سرٌّ، والدعاء بابه، ومَن غلَبه يأسه، طَال عذابه.

قال تلميذ: يا رب، إن في القلب حَوائجَ، تطَأ الفُؤاد، وتُلهب المقَل.

قال الشَّيخ: (وفُتوح ربِّك مِن وراءِ حِجابها)، فقُل: اَللهُمَّ اطوِ عنَّا الهَمَّ في الحِلِّ والتَّرحال مَهْما توعَّر الطريقُ واستَطال، سبحانه هو المحيط بدعائنا، فعسَى الله أنْ يؤتي الأَكُفَّ سُؤالها!

هو المحيط، لا يعزُب عنه أمرك، وبيده مَنائِح الغَيب، فإن أحسنتَ الوَصل، ساقَ لك اللَّطائف، واللهِ، (لولا مَعيَّته، تَعِبَ الفُؤاد، وكلَّت الأكتاف)!

هُو المحيطُ بأحوالك، كَم حباكَ مِن المنح، لما أَغلَقَ عنكَ أبوابًا لم تُفتح، وفي العَطاء الذي لا تشتهيه غيوبٌ، كُلها الفرج! سُبحانه، ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾! وأنت لا تعلم من علمه شيئًا! فلا تَعبُر رغبةً دُون إذنه، وَما عَلِمَه مِن سَالف أيامك، أعطَاه لك في قادِم أيامك!

هو المحيط، اسم هو مِفتاح السكينة، وهو للحُزن قِفْله، فلا تنشغل بالمخاوف واخْرُج من هواجس الدنيا، تلك السامري وعِجْله، إنَّ أقصَى السلام ومُنتهى التَّفويض، أن تفهمَ اسْمه!

يا بني، بئسَ القلب إذا عَرف الله المحيط، وظَل يَلدغه التوجُّس! فخَفِّف عنكَ الحِمل، هذا الحمل واسعٌ في ثِقله، وثق به، هو المحيط بما لا يَبلغه خَطوك، فاخرج إلى حولِه من حَولك.

هو المحيطُ بِعَبده، وعالم بفاضله ومفضوله، وبكلِّ فروعه وأُصوله وبخفايا غَيبه، ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾!

يَا بُنَي، سبحانه هو المحيطُ لأقدارنا بقدرته، فاعلم (أن الأقدارَ غالبة، والعاقبة غائِبة)، والنِّيات مَخْفية، فَقُل: يا رب حُسن الخاتَمة!

سبحانه وهو المحيطُ بعلمه، بمن زرَعوا في كُلِّ أرضٍ مِحرابًا ومُعتكَفًا، وبمن نَسخوا آثار خُطاهم على خُطى السَّلف، وبمَن ثبَتوا عند كُلِّ مُنعطَف، أولئكُ عِبادٌ تطهَّرتْ مِن الرِّياء أسرارهم، فتمَّت لهم أنوارهم، ألم أَقُل لك: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ﴾!

قال التلميذ: أدري أنَّ خاتمتي يا ربي تعلَّقت بِسَترك!

قال الشَّيخ: إن أردت الطريق فاربأ بنَفْسك أنْ تظَلَّ كما هي، اربأ أنْ يُساقطها العَجْزُ، حتى تجيءَ ورائِيَ!

قال التلميذ: لأَخُطَّنَّ خُطَّةً تُضاعِف أَجري، أو تكونَ شِفائِيَ!

قال الشَّيخ: إذن اجعَل مِن الاسم بدايتك، وارحل إلى أَعالي المعنى، فإن مَن عمَّقَ حرثَه في تُربة المعنى، سَيُزهر حَقله!

يا بُني، رَبُّك أحاطَ فأثاب، وإذا فتحَ العبدُ باب نيَّةٍ حسَنة، فتح له اللهُ سَبعين بَابًا مِن التَّوفيق. وقَد قيلَ مَن أرضانا بدنياهُ، عجَّلنا لَه في هواه، وأوصلنا إليه مِنها، مُناه. ثق ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، فناوِله عُمرك، وتبتَّل بالانشغال بأمْره، يكفِكَ ما أهمَّك.

سُبحانه، هو المحيطُ بمن قضَى نَحبَه بين: (رُبَّما) و(قَد)، فَلا (رُبما) أوفَت، ولا (قد) أثمرتْ، فلا يكن عُمرك فَراغًا، فأنت في ذُبوله مِثلك في شَبابه!

قال التلميذ: أَعِني يَا مَولاي (لِأَحْرِزَ من دُنياي مَا ليس يُحرَز)، ولأَتْرُك كُلِّي خلفَ بابِ مَتاعها.

قال الشَّيخ: توجه إليه، وإذا ضاقت القُيود، تذكَّر أنكَ غيْمٌ تَشتهيه الحُقول، وفي خضم الشوك، أَحْصِ عَتادك، واجمَع عُمرك خلفَ ثباتِك، ولا تتلكَّأ. إنْ أطبقَ الموت، ورأيتَ النهار أسْود داجيًا، فَقُل: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾، وإذا الحيَاةُ (قَستْ عليكَ بجَمرها، آويتَ للمعنى تُنيخُ بظِلِّه)! فقُل: يا رب، إذا طالَ الليلُ وعَسْعَس، فأتْبِعهُ بِصُبحٍ يتنَفَّس!

لا تخف، هو المحيطُ بالفِتن، ومن خاضوا غِمارها!

قال التلميذ: إيه، اللهُمَّ قَد تشابهتْ علينا السُّبل، فاسلُك بنا مَسالك الصالحين، وهَبْنا خَواتيمَهم!

قال الشَّيخ: اسمع مني يَا بُني: لازِمِ الاستغفَار، ولا تأمَن الاغترار، وكلَّما زللتَ، فَللهِ اعتَذِر، ومِن مجهودك، لا تَدَّخِر، ومن كان يخشى الشَّر قبلَ حُلوله، حاشَا لله ذُبوله. هو المحيط علمًا بالسائرينَ إليه، رُغم طُرق المتاهة!

قال التلميذ: يا رب، اجعَل العُقبى منكَ فوق ما أملْنا، واحفَظنا مِن لحظةٍ أطالتْ الألم، ومِن هوى زلَّت به القَدم!

يَا مَن تملكُ كُلَّ شَيءٍ، ولا شَيء يَملكك، حوائجنا أنتَ مالكها، وأنتَ تقضيها!

قال الشَّيخ: الْزَم دُعاء الزهْريِّ، (اللهُمَّ إنِّي أسألكَ من كُل خيرٍ أحاطَ به عِلمك، وَأعوذ بك من كُل شَرٍّ أحاط به علمك).

ومَن لَهجَ بـ (لا حول ولا قُوة إلا بالله)، سيقتْ له الحُظوظُ الكُبرى بأيْسَرِ أسبابها، والمنى مِن أوسَع طُرُقها، فإنْ أنهكتكَ الخُطى وأفناكَ الضَّنى، فَقُل: يا رب، لَك ما في السَّما، فَهبني الغِنى، وَهبني فَوقَ الغِنى، الرِّضا، وهَيئ لي أسبابَ المنى، أنتَ اللهُ المحيط بما يصلحني، وأنا السَّائِلُ الفَقير الذي لا يرى!

المغيث

هَنيئًا لمن شمَّر في الخَفاء، يرجو مَلء الخزينة، إذا انكشف الغِطاء، وهنيئًا، لمن اتَّسع عُمره! وأواه مَا أضيقَ العُمْر، لولاكَ يا مولاي، يا رب، راحلونَ إليك بِسَعينا، فاقْبَل (العير التي أقْبَلْنا فيها)!

يختلي مُصلٍّ وهو يُناجي ربه: ليسَ معي منِّي سواي، وما لي سوى فَقري يدٌ! يا رب، مِثلك بالوعود يفي، فلا تَدع لنا جُرحًا إلا شُفي!

ترتعشُ يَد شَاب: يا رب يَدي عطشى، أويتُ إليكَ فلا تخْذل قلبي..

يقولها والقلبُ يئِنُّ همه!

يهمسُ مَلك: يَا لحاجة الشيء، لمن ليسَ كمثله شَيء، حنانيكَ بقلبٍ يلتحفُ الحزن!

تضجُّ زوايا المسجد بصوتٍ قَد أرهقته المدامع: يَا غيَّاث أغِثنا، فالنارُ تأكُل بعضَنا! يَا غيَّاث أغثنا، فقد أسْرفت الهُموم في أعمارنا! يَا غَيَّاث أغِثنا، امْدُدْ لنا ﴿فاستَجبنا﴾، عسَى مَا كان من الهم لا يكون!

تصعَد الملائكةُ، وصوت الصحائف تُطوى وترتفع، وفيها قَد كانَ: ما سألتَ يَا عبدي؟!

ثُمّ زَفر الشيخ: سبقتْ له الحسنى، مَن وُفِّقَ لدوام النَّجوى، فَقُولوا، يَا غيَّاث، اعبُرْ بِنا هَذا الليل، ويا رب، إذا كَان بيني وبين سُؤلي ما يحول، فاجعَل اللهمَّ العَوائق مما يزول، واكْتبني وَسُؤلي فيما تَعول.

قال تلميذ: هَنيئًا لمن مَدَّ الله لهم يَدًا!

قال الشَّيخ: يَا بُنَي، وقفَ عُمر بن الخطاب على المنبر يقول: يا ساريةُ، الجبلَ الجبلَ!

ثمَّ قال: «إنَّ لله جنودًا لا نعرفها، ولعَلَّ بعضها أنْ يَبلُغهم!

يَا بُنَي، تبلُغ أصواتنا المستحيل، إذا امتلأتْ بالله، وَتُبحُّ كَأن ما لها وَتر، إذا فقَدْنا الله!

يُنادي عبْدٌ: يا غيَّاث في البَراري، فَتُقَعْقع السماوات له، وتتحَرك سُيوف الملائكة! سُبحانه، إذْ يتجلَّى في غَيْثه!

قال التلميذ: كيفَ بلَغوا ذلك؟

قال الشَّيخ: طُهر الصوت يَصِل، قُلْ: يَا غيَّاث، واشدُد على التقوى لجِامَك، يَا غيَّاث، والعَهد مَع الخَطايا، ﴿لا مِساس﴾، يَا غيَّاث، ولا ذَنب يَجترحه اللِّسَان!

قال تلميذ: ومن يُطيق؟

قال الشَّيخ: يا بُنَي، مَن التفتَ إلى نَصيبه لله، أقبلَ الله عليه، ومَن وهَب نفْسه لله، حفظها الله له، هو ألطَفُ بك مِنْك لنفْسك!

احفظْ عني: السائِرون على آثامهم، لا يَبلُغون، فنَقِّ الخطوات مِن عوائقها، ووالله لو تَعلم المكافآت، لسارعتَ في إدراكِ ما فات!

قال التلميذ: إيه، يا رب، بابٌ ضَاع مفتاحه، وقلبٌ طفئ مصباحه، وعمرٌ تقاعَس أوله وآخره، فاجْمَع شَعثي!

قال الشَّيخ: الزمْ الاسم لِغَوث قلبك، وقُل: يا غيَّاث، أغِثني على تخطِّي شَهواتي.

يا بُني، تَلافَ الهَفوات قبلَ الفَوات. هو المغيث، أليسَ هو مَن خصَّك، ومِن كُل كربٍ خلَّصكَ وثبتَ قدمك، وأقَرَّ عينك، وأنالَك مُرادَك، وأعطَاك فوق نهاية آمَالك، ومِن كُل أذًى وقَاك؟ فلأيِّ غايةٍ أعاشَك؟

فَقُل: يا الله، اجعلني في شَرف مَأواك، يَا مُنشئي مِن العَدم، وجاعِلَ مَن شاء كالعَلم، ومعلِّمَ مَن اصطفى بالقلَم، جُد علينا مِن خَزائن مَا لَديك. يَا غيَّاث، نجِّنا مِن المهالك، واصْحَبنا في المسالك، إلى بَحبوحَة نَعمائك، إذا شئتَ يا رب، قرَّبت وأدنيت، فَجُد علَينا بك!

يَا بُنَي، إنَّ الله إذا تابَع لك المزيد في الدعاء، فاعلَم أنَّك مُجَاب، فاعكِف في محرابك، وارفَع عَزيمة دعائك، وأقبِل بِيقينك، وَقُل: يَا غيَّاث، إنِّي مدَدْتُ يدي، فامْدُدْ إليَّ يدًا. يَا غيَّاث، لا تَرُدَّنَّ ظَمْآنَ إذا وَردا. يا غيَّاث، يَا مُخْرج أوانِ الإجابة مِن أوان الضِّيق، يا مَن هُو كُل يومٍ في شَأن، أغِثنا، ولا تَدع لنا جُرحًا إلا برِئ!

عسَى الله بهذه الأسماء المباركة، أن يَنقلنا عَن الأحوال المبغوضة إلى أحوالٍ رَضيَّة!

يَا بُنَي، ثقْ أنَّ النِّعمة مُتتابعة، والاستطاعة حاضرة، فأين التَّشمير في طَلب العتق مِن الرِّق؟! فاسأله، وَقُل: اللهُم زِدْنا مِن فَضلك ما فوق الأمَل، وإنْ قَلَّ مِنَّا العَمل! جئناكَ، وَحقُّكَ، لنْ نَبرح بابَك حتَى نَرى الإجابَة ونَقطِف!

يَا بُنَي، إنْ بلغَ قَلبك كنَف اليَقين، فألْقِ الشكَّ، ينفلقُ لَك صُبح الإجابة عما قَريب! سُبحانه، مَا أجمَل الوَصْل به! و(مَن ذاق، لم يَكْتفِ)!

المحسن

قال الشَّيخ: يَا أبنائي، سأحدثكم ببعض شأني.

فأرخى الجميع سمعه، فقال الشيخ: والله لقد كانت حُروف الفجيعة أسطُري، وكنتُ لا أملك في هذا الطريق إلا الأُمنيات، وقضيتُ شَطر عُمري في جَوف الرَّحى، واطمأنَّت المكارهُ في عمري، حتَّى ما أرى لها فرَجا! وكَم مسحتُ وجهي بملحِ دُموعه! وكَم مَرَّةٍ في شَهيقي صاح الألم! وكَم نُكئ جرحي، كأنَّ أقدارَه عودٌ على الحُزنِ! كنتُ أزرع قمحَ التمني، وأخشَى (أنْ يخذلني السَّحاب)، وكَم ليلٍ كنتُ فيه حسيرًا ما لأسئلتي جواب! فلمَّا أسرجتُ الدعاء، آنستُ من فَيضه ما لا يُشرَح!

يَا أبنائي، مِن ألفِ عُسرٍ رأيتُ لُطف الله يخيط لي ثوبَ يُسري، أغناني بما سألتُ حتَّى نفَى غنِّي فقري، وأعادَ لي نحتَ عُمري، ورأيتُ في كَفِّ الإله مقاديرَ ما عَسُرَ عليَّ مما كنتُ أرجو!

قال تلميذ: كأنَّك تسكب لنا أسرارَ روحك!

هز الشيخُ رأسه ثم تنهد وقال: يا أبنائي، هو المحسن لمن وثَّقَ على آلام الثبات خطواتِه، ومَا هالَه لهَبُ الحطَب، هو المحسِن لمن تفاصيل عُمره ملأى بالطاعات، كأنَّها حِقَب، و﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. هو المحسن، لمن تَجاوزوا الفتنة الهَوجاء، وما فيه فكرةٌ تَضْطرب. وقد قالها يوسف: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ

بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾، أتدرون ما إحسانه؟ أنْ تغترفَ من غِناه، وقد كنتَ تَشُدُّ على الروح مئزَرَ البُؤس، أنْ يصنعَ اللهُ لجرحك غِمدًا لا يُنزَع عنه أبدًا، أن يكفيَكَ قلَقَ النهايات، فقد أسفَر الصبح، أن ينحَر لك قرابين الإجابة في محرابك، أن ترى إحسانه غيمةً تَروي سُفوحك! وَسَنَزِيدُ المحْسِنِينَ!

سبحانه هو الله، يختارُ للطُرق قلبًا مِن رَحِمِ الإحسانِ ينبثق ﴿واللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المآبِ﴾!

يا بني، كانَ يوسُف ﴿مِن المحسنين﴾ يومَ تقاسموا الغنائم، فاختارَ صَبره، ورضيَ باللَّظى في قيْد سجنه، فأحسَن اللهُ إليه، ﴿وهَل جَزاءُ الإحسَانِ إلا الإحسَان﴾!

سُبحانه، هو المحسِن لمن يُضيئون الأرض، رغم انطفاء النجوم، الواصلونَ رغم متاهة الطُّرُق! هو المحسِن للقُلوب التي مَا خانَت نبْضها، ذلك أجر ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهوَ مُحْسِنٌ﴾.

سبحانه هو المحسن، لمن انفردَ بالتقوى خارج السِّرب، ولمن تسامى بالطُّهر، لأجل وَعد الغَيب!

يَا بُنَي، ﴿إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المحْسِنِينَ﴾.

قال تلميذ: يا الله، رغم انفلات الخُطا، يَثبتُون، يا رب، كَم نَاءٍ بالقلبِ هذا الهَوى! يَا سيدي، كمْ بَيننا وبينَ تَمكين يوسُف؟

قال الشَّيخ: مسافةُ إحسانه.

يا بُني، هو المحسِن، لمن قرؤوا فاتحة الوعد، وأرادوا العُمر وثيقةَ الثبات على العَهد، ﴿وإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ المحْسِنِينَ﴾.

يَا بُني، افهم عني وتأمَّل، ألا تَرى السالكينَ بين معصومٍ ومخذول؟ فالزَم حِراسة جَوارحك، فما تدري مِن أين يؤتى القلب!

قال التلميذ: مَن هُم المعصومون؟

قال الشَّيخ: المسكونون بخشيةِ الله، فَقُل: يا رب، كُن لنا فيما بيننا وبين أهوائنا.

يَا بُني، طُوبى لمن سبقَت له من الله الحُسنى، وارتفعَ إلى الدرجات العُلا مِن غير عَرجٍ ولا التفاتٍ على ما خلَّفَ هُنا وهُنا، فقَلبه يحوم في الملأ الأعلى. فَقُل لَه: اللَّهمَّ أبقني لك، و(اختَر هواكَ كما رضاه، عسَاك أنْ تلقَى على الطريق طَريقًا)!

قال التلميذ: يا الله، يَا دُعائي الأخير، إذا جئتكَ على فراش الموت وحيدًا. يَا الله، يَا شَهقة الختام، إذا غابت عن قَبري الشمس. يَا الله، عند يقين الموت، وإذا بكَى القلبُ، أعطِنا الأَمنَ.

يا رب، إذا دنَت المنَايا، وطُويت صحيفتي، فَلا تجعَلْ أجْري مَطويًّا.

أنت الله، وأنا ذرةٌ في هَشيم المحتظر. أنتَ الله، وأنا غُروب البَقاء. أنتَ الله، وأنا معنى الفَناء. راحِلٌ إليك، راحِلٌ إلى المنتهى، حيث المقامات العُلا.

قال الشَّيخ: هو الله، فارفَع الصوت بين يديه، وَقُل: هذا الحُطام أنا، فرَمِّم كل ما تصَدَّع منِّي يا مَولاي وانتثرَ! هو الله، فارفَع كفَّيكَ، وَقُل: دون وصْلِك يَقضمني اليأس!

يَا بُني، قد أحسن الله إليك، إذ أنبتكَ فلا تَذوي، فقل: اللهم تقبلني (بِقَبُولٍ حَسَنٍ)، أنت المحسن فلا تعذِّب عينًا فتَحتها بنعمتك، ولا تُذل نفسًا هي عزيزةٌ بمعرفتك، ولا تَسلب عقلًا هو مستضيءٌ بنور هِدايتك، ولا تُخرِس لسانًا عوَّدْته الثناء عليك، فكما كنتَ أوَّلًا بالتَفضُّل، فَكُن آخِرَ بالإحسَان، وأنبت عمري (نَبَاتًا حَسَنًا) يمتد ولا يفنى.

يَا بُنَي، ﴿وأحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

قال التلميذ: يا رب، قُد أنفُسَنا صافيةً إلى بابِك. يا رب، لا نملكُ إلا ما ملَّكتنا، ولا نملكُ، إلَّا إذا أرفَدتنا، قلوبنا أوانيكَ فينا، فاملأها بما يُرضيك.

إنِّي مُوصيكُم، سابقوا إلى الله بإلجامٍ وإسراج، ألجِم خَطيئتك، وأسْرِج خَيلَ حَسناتك، وقُل: يا الله، اجعل العُمر ﴿وعَجلتُ إليكَ ربِّ لترضَى﴾.

الوارث الباقي

قال الشَّيخ: يا أبنائي، تَوسَّمنا العَطاء من معاني الأسماء، فرَدِّدوا ما بقيتم الأسماء، حتى يمتلئ العُمر منهُ، فلا يَظمأ.

قال تلميذ: إنَّ بنا ظمأ، (والشوق نحو الله لا يُحاطُ مَداه)، والله إنِّي مليءٌ بالحب يا سَيدي!

قال الشَّيخ: يا بني، اطوِ الأيامَ في صُحبته، يَمُد لك العُمر مَدًّا، تهَيَّأ لله وقُل: خُذني مِن نَفْسي إليك. أقبِل عليه ولو حَبوًا، أقبل عليه ولو كان ما كان في سَريرةِ الجَوف، أليس هو القائل: ﴿وآمَنهُم مِن خَوْف﴾؟! (مَن صَمَّمَ على إرادة الخَير، أعانَه الله وثَبَّته)، رِد لله مَا يُريد، وقُل: يَا وارِث الأرض ومَن عليها، ورِّث آمَالي مُنتهى المنى، أصلِح سَرائرنا، وابعث لها جَوارحنا، اشدُد على عَزيمة الطاعة نيّاتنا!

يَا ولَدي، (لو عرفتَ قَدر نفسك عنده ما أهَنْتَها، إنَّما أُبعِد إبليسُ لأنَّه لم يسجُد لأبيك). هو الوارثُ لأعمالنا كلها، فانهَض وبادِر، فالمعين قادِر! فَقِهَ السَّلفُ ذلك، فما تسمعُ عن أخبارهم إلا فلانًا مَلكَ لسانه، وفُلانًا اشترى الحُور بأربعةِ آلافِ خَتمة، وفُلانًا نافَس زمانه، فاغتَنم الدقائقَ والثواني، وفُلانًا كان يتَّقي الله؛ حتى في الخطَرات، وإنَّ بِشر الحافي لمْ تُكتَب عليه غِيبة!

تلك اليَقظَة والله، واليقظةُ سُلَّم مِعراج الهِمَّة، عباد علِموا أنَّ الأعمار فانية، فجعلوا البقاء عند الباقي، وجَعلوا المستراح تحتَ شجرةِ (طوبى)! قَومٌ تخَلُّوا للوارث الباقي، وجَعلوا الآمال لله، فسُحَّت عليهم المواهب سحًّا.

قُلْ: اللهُم وثبةً مِن وثَبات الصِّدق، نبلُغ بها مقعد صِدق. ثُم أنت هناك ترقَى؛ على قَدر ما ترَقى!

يا ولدي، خَفَّت الأعمال، على مَن نصَبوا بين أعينهم أنَّ اللهَ وارِث الآجال، فكن بالله مُتحركًا، وللهِمَّة مُحَرِّكًا، فإنَّ من علامة المقت إضاعةَ الوَقت!

غَدًا تُوبخ إذا عُرِضت عليكَ ﴿أوَ لم نُعمِّركم﴾، إِنَّمَا لَكَ مِنْ عُمْرِكَ مَا أَطَعْتَ اللَّهَ فِيهِ، فَأَمَّا مَا عَصَيْتَهُ فيه، فلَا تَعُدُّهُ لك عُمْرًا! فإياك إياك وقُطَّاع الطريق للآخِرة!

قال تلميذ: اللهُم أنت الكاشِف، (اكشِف لنا أغلالنا، ويَسِّر لنا منها الخَلاص)!

قال الشَّيخ: وقُل: (أعُوذ بالله من التفاتةِ اللحظة، ثُم استدامة اللهو، واستِطابة القَلب في اعوجاجِ الحَال). اللهُم أحسِن حياتنا بِك، وأحسِن قيامنا إليك، وأحسِن سَيْرنا إليك، وأحسِن قُدومنا عَليك، اللهُم قلبًا سليمًا يَليقُ بالوفادةِ عَليك، أنتَ الباقي، فلا يبْقَى إلا ما اتَّصَل بك!

يَا بُنَي، لا تجعَلن عُمْرك نَعْشًا، لا يكُن عُمْرك عَددًا، ليسَ له مِن الله مَدد، فَقُل: يا باقي، هَبْنا مَدَدًا لا انقطَاعَ بَعْده.

يَا ولَدي، إنَّ فراغ ما بينك وبين الآخرة هو مِن صُنع يَديك، هو الباقي، فَاتَّصِل به!

يَا وَلدي، قَد ماتَ قَومٌ وَهُم في الأَثَرِ أحياء، كُن لله إنْ رُمْتَ الأَثر، وإياك أنْ تَجِد اسمك مَكتوبًا في الخَوالف، مكتوبًا في صحائف النسيان، هو الوارِث لكُلِّ قَطرةِ عَرَق، فلا تُعجِزك طُول المسافات!

اجعَل سَعيك في السماء مَسموعًا، وقُل: اللهُم حَرْثَ الآخِرة.

يا ولدي، قَد تزدحمُ الموازين بحَسنة، وكُل حسنةٍ لها مِعراجها، وعند الله المستقر.

يَا بُنَي، إذا امتلأ الملأ الأعلى بِدَندنةِ اسمك، فلا فِتنة للدنيا.

قال التلميذ: اللهُم أبقني لَك، أَعُوذ بك مِن أنْ أفقِد اسمي عند العَرش، أسأُلك قلبًا يَحومُ حَول العَرش!

قال الشَّيخ: ﴿فإذا فَرغْتَ فانْصَب﴾، مَن أراد السِّيادة، فَليُغادِر الوسادة. اعكف على صناعة ذاتِك، فإن قُوَّةَ القَوسِ تكون في أوَّل انحنائه، ثُم ترى بعد شدة الانحناء لله السِّهام تَصل! خلِ عينك على الغاية، ﴿ادخُلوها بِسلام﴾، تلك أُمنيةٌ تحتاج إلى سَعي.

يَا بُنَي، كيفَ للنَّفْس أنْ تهدأ إنْ لمْ تبلُغ ﴿يا أيتها النَّفسُ المطمئنة ارجعي إلى رَبِّك راضيةً مَرضِيَّة﴾؟! إنها وَربي أيامٌ قَلائِل، (وإنَّما السَّيل اجتماعُ النقط)، فاجمَع

بسَعيك خُلودًا في صُحبة الله، غايَته لذَّة النظَر. وقد قيل: ما أشَد فقد الجنان مَع القُدرة على الإمكان!

قال التلميذ: اللهُمَ اغمُرني صَلاحًا حتى تُحبَّني، وهَبْني مِن الفَرح ما يُبَلِّل تُراب الجنَّة بالدَّمع!

قال الشَّيخ: يا رب، نحنُ ما بدَّلنا، نحنُ على العُهود السَّالفات صِدقًا.

قال التلميذ: اختِم لنا بالوَصيَّة.

قال الشَّيخ: أعرِضْ ذاتَك عليكَ، قبلَ أنْ تُعرَض عَليك! خُوضوا الغمَرات بالتَّقوى، ولا تَتسوَّروا المحظُور، وإذا كَثُر تقلُّب القَلب، هانَت عليه الكبائِر.

والبِقاع، لها أثرٌ على الطِّباع، فاحذَر البيئة، وقُل: أعوذُ بك مِن عبادةٍ غالبها قُشور، واجعَلنا يَا مَولاي ممَّن أُشرِبَ القُرآن قلبه، حتى ثَبَّته على قدم التوجه، (ومَن لمْ يعمل على الإخلاص، فَلا يَتعَنَّ)، فتعلَّم النِّيَّة؛ بَل النِّيات، وتَفطَّن لقوله: ﴿وَقِفُوهُم إِنَّهُم مَسؤُولُونَ﴾؛ حتَى عَن صَفاء النَّوايا!

يا بُنَي، السَّفَر إلى الله مَطيَّته الفَقر والذُّل بين يَديه.

قال التلميذ: ثَبِّتنا يا رب إذا ابتَليتَنا.

قال الشَّيخ: اصطفَى جُرحك فاصطفَاك، (مَا لجُرحٍ إذا أرضى الله ألم)، وبالابتلاءِ إنَّما كانَ يمتَحِنُ يَقينكَ وثِقتك به.

قال التلميذ: عفوك، فقد مَسَّنا جَفاء البُعد، وَكُشِف مَا كَان مِن الإثمِ مَستورًا.

قال الشَّيخ: يا ولدي، لا يَخْذِل اللهُ قلبًا صَادقًا نطَقَ في نبْضه بما يبتغيه ولو تلعثمَت جَوارحه قَليلًا! سَمِع اللهُ لِمَن دعَا، اجعل مِن الدعاءِ عصا؛ تَهُشُّ بها على كُرَب الطريق.

يا بُني، الأسماء الحُسنى تُعيذك مِن السقُوط! يَضُجُّ السَّحَر بالاستغاثة، فينهمِرُ المطر! تَزاحمت لكَ الأَكفُّ ضراعة، نلِحُّ على الذي عندَه خَزائن الرحمة؛ أنْ يَصُبَّ علينا منها الخَير صبًّا صبًّا.

املأْ كَفَّيك بِفَيض الدعاء، فإذا الإجابة وابل صَيِّب! اللهُم ارزُقنا رحلةً إليك؛ ربَّانية الخطوات، خطوةً خطوة؛ خِتامها ﴿مَقعَد صدقٍ عند مَليكٍ مُقتَدر﴾!

صمت الشيخ ثم قال: اللهم اجعل صحبتَك صحبةً مدى العمر..

ثم طوى الشَّيْخ بِسَاطَه وقال: السَّلَامُ علَيكُم.

فانهَمرنَا فِي البُكَاء!

تم بحمد الله